



إدوارد سعيد

نقد

الاسلام



ترجمة: د. محمد عناني



■ إرولرو سير ■

تغطية الإسلام

كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء

فى رؤيتنا لسائر بلدان العالم

ترجمة وتقديم الدكتور

محمد عنانى

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب
Covering Islam :
How the Media and the Experts
Determine How We See the Rest
of the World
By Edward Said
الصادر عن دار
Routledge & Kegan Paul, London, 1981

تغطية الموسم

مرايا الكتاب

الكتاب : تغطية الإسلام

الكاتب : إدوارد سعيد

الترجمة : د. محمد عناني

المدير المسؤول : رضا عوض

رؤية للنشر والتوزيع

القاهرة ١٢ / ٣٥٢٩٦٢٨

Email: Roueya@hotmail.com

فاكس : ٥٧٥٢٨٥٤٠

الإخراج الداخلي : جوي

جمع وتنفيذ : الشركة الدولية لخدمات الكمبيوتر

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

رقم الإيداع : ٢٠٠٥ / ١١٥٢٧

الترقيم الدولي : I.S. B. N.

977- 6174 - 00 - 0

رؤية

للنشر والتوزيع

2006

■ تصدير ■

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لكتاب تغطية الإسلام : كيف تتحكم أجهزة الإعلام ويتحكم الخبراء في رؤيتنا لسائر بلدان العالم الذى أبدعه قلم الناقد الفذ إدوارد سعيد ، وقد ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨١ عن دار نشر Routledge & Kegan Paul فى سلسلة كتب Pantheon ثم ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب نفسه عام ١٩٩٧ عن دار نشر Random House فى سلسلة كتب Vintage ، وأضاف المؤلف إليها مقدمة ثانية مسهبة يعرض فيها لبعض الأحداث والكتابات التى تؤكد ما انتهى إليه فى الطبعة الأولى وتقتصر على هذا التأكيد ، وقد استندت فى الترجمة على الطبعة الأولى ثم راجعتها على الطبعة الثانية المنقحة ، فرأيت الاكتفاء بالصورة الأخيرة دون إضافة المقدمة الجديدة ، وفى ظنى أن إدوارد سعيد لو امتد به

العمر ليصدر طبعة ثالثة بعد غزو العراق (بعد غزو أفغانستان وأحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١) لأضاف مقدمة ثالثة تزيد من تأكيد صحة النتائج التي توصل إليها البحث فى الكتاب . وأما أهم ما جاء فى المقدمة الثانية فسوف أعرض له بإيجاز فى هذا التصدير .

يعرض إدوارد سعيد فى مقدمته الجديدة للتحويلات التى طرأت على العالم بعد تفكك الاتحاد السوفىيىتى وانهاره ، قائلاً إن التقسيم المبسط (السادج) القديم للعالم فى عيون الولايات المتحدة إلى معسكرين: معسكر يناصر الشيوعية ومعسكر يناهضها، قد تحول إلى تقسيم لا يقل تبسيطاً وسذاجة، أى تقسيم العالم كله إلى معسكرين من نوع آخر : معسكر يناصر الإرهاب ومعسكر يناهضه ، ويدلل على صدق ذلك القول بأحداث وكتابات شتى ، ثم يعرض بعض الأفكار الرئيسية التى سبق له

عرضها في متن الكتاب ، وبعض الكتب التي صدرت منذ مطلع الثمانينيات في هذا الصدد ، ومعظمها يردد الأغلوطة نفسها عن "الصدام" المحتوم بين الحضارات ، مع استثناء كتاب واحد كتبه أستاذ في جامعة جورجتاون اسمه جون اسبوزيتو ، وعنوان الكتاب "التهديد الإسلامي : خرافة أم حقيقة واقعة ؟" في عام ١٩٩٢ ، وبعد ذلك يعرض لمشاركة إسرائيل في الحملة على الإسلام ، بمساعدة المجلات والصحف والكتب الموالية لها في أمريكا ، "على أمل زيادة عدد الأمريكيين والأوروبيين الذين يرون أن إسرائيل من ضحايا العنف الإسلامي". (ص ٢١). ويأتي بنماذج من الكتابات الصحفية الأمريكية التي تنصح عن التعصب العرقي والتحيز البغيض واللاعقلاني ، ثم يخصص الصفحات الباقية من المقدمة للهجوم على الكتاب الذي أصدرته صحيفة تدعى جوديث ميلر بعنوان رحلة صحفية في الشرق الأوسط المقاتل الصادر عام ١٩٩٦ ، وتزعم فيه المعرفة الفياضة بالمنطقة وشعوبها وهي لا تعرف أيًا من لغاتها ، بل وتخطئ حتى في كتابة الأسماء العربية أخطاءً فاحشة . ولا بد لي الآن من أن أشير بإيجاز إلى موقع المفكر إدوارد سعيد وأهميته في ميدان الأدب والنقد أولاً، فهذا هو تخصصه الأول ، ثم إلى ما ساهم به في الفكر العالمي المعاصر .

ولد إدوارد سعيد في القدس ؛ في فلسطين ، عام ١٩٣٥ ، وتوفي عام ٢٠٠٣ ، وقد التحق بالمدارس الابتدائية والثانوية في

القدس وفي القاهرة ، ثم تخرج متخصصاً في الأدب الانجليزي في جامعة برنستون عام ١٩٥٧ ، وحصل على الماجستير عام ١٩٦٠ من جامعة هارفارد والدكتوراه من الجامعة نفسها عام ١٩٦٤ ، حيث فاز بجائزة أفضل ناقد فبدأ نجمه يسطع . وبدأ حياته العملية أستاذاً ينتقل بين الجامعات الأمريكية الكبرى حتى استقر به المقام في جامعة كولمبيا أستاذاً للغة الانجليزية وآدابها والأدب المقارن . ومنذ نشر كتابه الأول عام ١٩٦٦ عن الروائي جوزيف كونراد وكتبه تحوز الإعجاب وتفوز بالجوائز ، الأمر الذي أكسب آراءه مصداقية وحقق لها الانتشار واتساع التأثير ، وخصوصاً بعد ذبوع المذهب النقدي الذي ارتبط باسمه ، والذي يشار إليه عادة باسم نظرية ما بعد الاستعمار ، وهو المذهب الذي ساهم مع غيره من المذاهب النقدية الحديثة (مثل التاريخية الجديدة - في أمريكا - والمادية الثقافية ، في بريطانيا) في تأكيد 'العودة' إلى النظرة التكاملية أو الكلية للأدب باعتباره نشاطاً إنسانياً 'ثقافياً' بمعنى أنه ينبع من الثقافة الخاصة لكل مجتمع ويصب فيها ، ولذلك فقد اقترن اسمه كذلك بالنظرة الجديدة إلى الاستشراق وما فعله المستشرقون من رسم الصورة التي يريدونها الغرب للشرق حتى بدا أنها صورة حقيقية ، على زيفها ، وهو الذي دعا سعيد إلى إعادة النظر في كتاباتهم ، على نحو ما يعيد النظر في هذا الكتاب في كتابات الغربيين عن الإسلام ، والتنبيه إلى أوجه الانحراف عن الصواب ، وإلى التعصب المقيت الذي تمليه المصالح المادية المحضة

للرأسمالية المتضافرة مع نظم الحكم فى الغرب عمومًا ، وفى الولايات المتحدة بوجه خاص .

وإذا كان صحيحًا أن أهم تأثير لإدوارد سعيد فى الحياة الأكاديمية الأمريكية ، فى رأى تيرى جولدى ، هو أنه كان من أبرز الذين قدموا نظرية النقد الأوروبية المعاصرة إلى الدارسين ، باعتباره من مؤيدى فوكوه ومن معارضى دريدا ، فإن إسهامه الأصيل فى النقد الأدبى الإنجليزى لا يقل أهمية عن آرائه النقدية فى أصحاب هذه النظرية ، ولا تزال نظرية ما بعد الاستعمار ، بمعنى تحليل العلاقات القائمة بين الدول الكبرى التى كانت لها مستعمرات ، والدول الصغرى التى تحررت من الاستعمار ، نظرية متماسكة يهتدى بها دارسو آداب هذه الدول التى تحررت ، وينظرون من خلالها إلى تركة الأفكار الخاصة التى خلّفها الاستعمار ولا تزال تتحكم فى مسيرة هذه العلاقات على المسرح الدولى . وسوف أخص معنى هذه النظرية (أو النظريات) فيما يلى :

أهم أعمدة هذه النظرية هو التشكيك فى عدد من الأفكار الأساسية التى خلفتها التركة الاستعمارية ، ومن بينها الإيحاء بأن الاستعمار أفاد البلدان التى تعرضت له ، من حيث 'النهوض' بها صناعيًا ، و'تحديثها' ، بمعنى مساعدتها على الأخذ بأساليب الحياة 'الحديثة' سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا ، حتى تلحق بركب

‘الحضارة’ ، والمقصود هو الحضارة الغربية الحديثة ، كأنما تقتصر الحضارة البشرية على نسق الحياة في مجتمعات الغرب الرأسمالية وحده ، ومن حيث الإيحاء ‘بتفوق’ التراث الأدبي الأوروبي وما بُنى على افتراض هذا التفوق من مناهج لدراسة الأدب المقارن تقول بالتأثير المحتوم لما هو ‘متفوق’ على ما هو ‘متخلف’ ، وعموماً من حيث الإيحاء بتفوق ثقافة القوة المستعمرة (بكسر الميم) على نحو ما يصر عليه البعض مثل برنارد لويس وأضرابه ، كما إن من عمد هذه الأفكار إثارة قضايا مهمة تتعلق بالانتماء العرقي والتعصب العنصري ، والاستغلال بشتى صوره ، حتى بعد زوال الاستعمار . ويقول چوناثان هارت إن من أهم عناصر هذه النظرة موقع ‘أفراد الرعية’ في البلدان التي تحررت من الاستعمار ، ويقصد بذلك ما أورثه الاستعمار للفرد في هذه البلدان من نظرة دونية إلى ذاته ، وهي نظرة تتصل بالتصوير المتسق له ولأتمته في كتابات المستشرقين وأدب الأدباء ، وهو ما يركز عليه إدوارد سعيد تركيزاً خاصاً في كتابه الاستشراق (Orientalism) . ويقول سعيد في هذا الكتاب الذي ساهم به في إرساء أسس نظرية ما بعد الاستعمار إن الصور التي تمثل الشرق في الكتابات المذكورة تؤثر لا في الدراسات الأكاديمية فحسب بل في رؤية أبناء البلدان التي تحررت من الاستعمار لذواتهم ، ويؤكد أن هذه الصور لا تمثل الحقيقة الباطنة للثقافة وإن كانت ترسم الهيكل القائم الذي ساعدت على إقامته ظروف الإمبريالية والعنصرية . وهكذا فإن

نظرية إدوارد سعيد قد ساهمت بصورة مباشرة في تدعيم أسس النقد الثقافي الذي أتى بالدراسات الثقافية الخالصة إلى ميدان النقد الأدبي ، وأتى إليه كذلك بنظريات النقد النسوي ، وخصوصاً 'النظرة' التي تقول بضرورة تحرير المرأة في البلدان التي تحررت من الاستعمار من الصورة النمطية التي رسّخها الغرب لها أو دأب على محاولة ترسيخها ، وهي صورة الأمة التي لا حول لها ولا طول ، في بلدان الشرق عمومًا ، وفي بلدان إفريقيا وآسيا بصفة خاصة ، فهي صورة قد تمثل بعض حقائق الواقع 'القديم' ولكنها لا تمثل الحقيقة كلها ، وما فيها من جوانب الصدق لا يرجع برمته إلى الثقافة الشرقية الأصيلة بل هو في بعض جوانبه من ثمار عوامل تاريخية معينة ، فرضت فرضاً على تلك المجتمعات ، وعانى منها الرجال مثلما عانت النساء . وهذا الفرع من النقد الثقافي مهم في نظر إدوارد سعيد لأنه يتصل بالإطار العام للاستعمار وما خلفه وما ترتب عليه من آثار، تهم الناقد الأدبي والدارس الأكاديمي جميعاً.

وقد بدأ ذبوع صيت إدوارد سعيد على المستوى الدولي ، كما نعرف، عندما نشر كتاب الاستشراق عام ١٩٧٨ ، ولكنه كان قد أثبت امتيازَه ورسوخ قدمه في ميدان النقد الأدبي بصفة عامة عندما نشر كتابه الأول (الذي كان أصلاً رسالة الدكتوراه التي أنجزها في هارفارد) وعنوانه جوزيف كونراد وخرافة السيرة الذاتية *Joseph Conrad and the Fiction of Autobiography* (١٩٦٦) وأذكر أنه أحدث دوياً هائلاً في أوساط دارسي الرواية ، فالكلمة التي

ترجمتها 'بالخرافة' تتضمن تورية من المحال إخراجها في الترجمة، فقد تعنى التخيل أو الوهم (بالمعنى العام) وقد تعنى فن الرواية الخيالية أو القصة الخيالية، طالت أم قصرت، وهو يقارن فيه بين الصورة التي يرسمها كونراد لنفسه في خطابه، معتبراً إياها ضرباً من ضروب السيرة الذاتية، وبين الروايات والقصص التي كتبها، قائلاً إن الكاتب كان يحاول فيها تحقيق ما عجز عن تحقيقه في سيرته الذاتية غير المباشرة، فكان بذلك يطبق 'التعارض الثنائي' أو 'الثنائية المتعارضة' التي أتت بها سيمون دي بوفوار بين الذات والآخر (بل وحتى بين الذات والموضوع) بمعنى أنه يفسر سيرة الحياة الحقيقية للكاتب كونراد باعتبارها الذات، ويفسر أدبه وما يتجلى فيه من صورة غير مباشرة لما كان 'يعتزمه' وعجز عن تحقيقه باعتباره الآخر، وهكذا فهو يخرج لنا نظرة تقوم على التعارض ما بين الذات والآخر في حدود التعارض بين القصد (أو العمد) وبين التحقيق أو العجز عن التحقيق، الأمر الذي يقيم وشائج مهمة بين منهجه ومنهج 'الظاهراتية' أو الفينومينولوجيا الذي أرسى أسسه الفيلسوف إدموند هوسيرل وطوره الفيلسوف مارتن هايديجر فيما بعد (وأيضاً موريس ميرلو - پونتي). فمذهب الظاهراتية يصر على أن القصد أو العمد هو أساس كل وعى إنسانى، وأن 'الوعى' لا يتحقق إلا بوجود هذا القصد أو العمد، وأنا أذكر ذلك لتبيان التوجه الفلسفى المبكر فى كتابات إدوارد سعيد، وما استتبعه من 'التجريد' الذى يضيف على

أسلوبه عمقاً خاصاً ويجعل ترجمته إلى العربية شاقة عسيرة . وربما كنت أذكره أيضاً لإيضاح ما يعتبره مؤرخو النقد الأدبي المعاصر أكبر مساهمة لإدوارد سعيد في النقد الأدبي بصفة عامة وهو كتابه المهم البدايات : المقصد والمنهج : *Beginnings* *Intention and Method* الذى أصدره عام ١٩٧٥ ، فإن اهتمام سعيد بالمقصد لا يتوقف عند التطبيق (فى حالة كونراد) بل يتطور إلى نظرية كاملة نرى فيها الاهتمام الموازى 'بالتعارض الثنائى' الذى قد تكون له جذوره فى 'الفكر البنىوى' ولكنه يتطور عند سعيد ليصبح نظرة عامة إلى موقف الأديب ، تذكرنا بموقف هارولد بلوم (الذى أتى فيما بعد) عن 'قلق التأثير' . وهذه المجردات فى حاجة إلى إيضاح : يقول سعيد فى مقدمته لطبعة عام ١٩٨٥ من ذلك الكتاب إنه يفرق بين مفهوم البُنىوة (filiation) والاتباع (affiliation) . أما البنىوة فتتضمن حتمية 'بيولوجية' فالابن لا يملك إلا أن ينحدر من نسل أبوين ، يرث منهما صفات معينة ، شاء ذلك أم أبى ، وأما الاتباع فيقوم على الاختيار أى على القصد ، والتعارض بين هذين القطبين (أى هذا التعارض الثنائى) يفسر فى نظر سعيد الخطأ الذى وقعت فيه بعض المذاهب التى أتت بها النظرية الحديثة حين زعمت أن كل نتاج أدبى ينتمى وفقاً لقانون الحتمية ، أى حتمية البنىوة ، إلى ما سبق إنتاجه من أدب ، فكأنما ينتمى وفقاً لقانون البنىوة للأسلاف ، الأمر الذى ينفى إمكان وجود بداية جديدة لأى شئ ، أى وجود ما يسميه

سعيد 'البدايات' ، ولكن إدوارد سعيد يرفض هذا التعميم ، ويقول إننا حتى لو استطعنا أن نجد ظلالاً 'لأصول' أى 'فكرة' فيما سبق من كتابات أو أقوال ، فلا بد أن الكاتب أو الشاعر الأصيل يستطيع أن يأتى بالجديد ، وأن يضع فى أدبه جذوراً جديدة قد تشبه بعض ما سلف فى بعض المظاهر ، ولكنها - حتى ولو كانت تقوم على 'الاتباع' - تأتى قطعاً بالجديد ، ولابد من اعتبارها بداية من لون ما .

وليس الغرض من هذا كله أن أقدم عرضاً مبسطاً أو موجزاً لموقف إدوارد سعيد 'النقدى' أو مكانته بين نقاد العالم اليوم ، فهى مهمة تتطلب مجلداً أو أكثر ، ولكننى أقدم وحسب ما أرى أنه يوضح مذهب الفكرى فى الكتاب الذى بين أيدينا، فهو مذهب تكاملى دينامى ، بمعنى أنه يربط بين الظواهر المختلفة فى المجتمع (التي يكمل بعضها بعضاً) ويقبل مبدأ الحركة والتغير (أى الدينامية) باعتباره المبدأ الذى لابد من وضعه أساساً لتحليل أى ظاهرة إنسانية، ومن بينها الفكر والأدب . فإعجابه بفكرة الذات والآخر عند بوفوار جعله يطورها ويوسع من نطاقها بحيث تتجاوز العلاقة بين الرجل والمرأة وتضم فى إطارها -واسع العلاقة بين الشرق والغرب- ، وإعجابه بفكرة القصد أو العمد فى الظاهراتية تجعله يطورها ويوسع من نطاقها فى تحليله لكتابات الغرب عن الشرق ، ونظرة المستشرقين إلى الشرق ، وما ينسبونه عمداً (نتيجة الوعى الذى لابد له من القصد أو العمد عند هوسيرل) إلى الإسلام ،

ولذلك فلن أضرب أمثلة لمنهج إدوارد سعيد النقدى والفكرى من كتابه البدايات ، وكنت أحب أن استطرد لعرض حديثه الممتع عن 'مقصد الكاتب' والتعارض بينه وبين 'تحقيق غايته' فى كتاباته ، وخصوصاً ما يسميه سعيد الصور التى تمثل هذا القصد أو هذه الغاية ، فهذه الصور التمثيلية (representations) يكثر الحديث عنها فى ثنايا كتاب تغطية الإسلام ، مثلما يضرب سعيد أمثلة لها ويقدم نماذج مقنعة فى كتاب البدايات من كتاب فرويد تفسير الأحلام ، ومثلما يعود إليها فى كتابه العمدة الاستشراق . ويكفى أن نقول فى هذه العجالة إن سعيد قد أعاد 'اكتشاف' الفيلسوف فيكو الذى يشير إليه فى هذا الكتاب فى مطلع الفصل الأخير عن المعرفة والسلطة باعتباره تلميذ فرانسيس بيكون ، وهو يعيد اكتشافه بعد أن ظل كتابه 'العلم الجديد' مهملاً ولا يحظى بالاهتمام اللائق به على امتداد القرن الثامن عشر ، حتى اشتد ساعد العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر فأبدى الكتاب الأوروبيون اهتماماً (ولو محدوداً) به .

وأما جامباتستا فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) فقد ارتبط اسمه فى أذهان دارسى المذاهب النقدية بالمذهب التاريخى (القديم) الذى يعتبر أقرب المذاهب إلى المنهج 'السياقى' التكاملى قبل ظهور التاريخية الجديدة التى أضافت إليه بعض العناصر من بينها معارضة الفصل بين المباحث العلمية ، وضرورة الاهتمام بالعوامل الاقتصادية التى تتحكم فى الثقافة ، وتحليل كتابات الكتاب

باعتبارها دلائل غير مباشرة على تفاعلهم مع ثقافة عصرهم، ومن ثم على التناصّ المحتوم في كتابات العصور المتوالية . وغير دارسى النقد يرون في فيكو مبدعاً فكرياً في مجال الدراسات التي أتت فيما بعد بعلوم السلالات البشرية (الأنثروبولوجيا) وعلم الأعراق (إثنولوجيا) ولكن إدوارد سعيد يركز على منهجه العلمى الذى سبق به عصره، بل أغضب رعاته الكنسيين حين أصدر كتابه الذائع عام ١٧٠٩ الذى يدعو فيه إلى الدراسة العقلانية (بالمعنى الحديث) للعصر ، فتخلوا عنه فأصدر على حسابه الخاص كتابه الأهم وهو العلم الجديد (١٧٢٥) . فالمنهج العلمى عند إدوارد سعيد هو الذى يجعل من فيكو خير شارح لما يدور فى أواخر القرن العشرين لا فى أوائل القرن الثامن عشر فحسب ، وهو من ثم يتفجع بالتناجى التى توصل إليها فيكو عن العلاقة التكاملية الدينامية بين السياق التاريخى والنص المكتوب ، لا فى كتب سعيد الأولى فقط بل فى كتابه الاستشراق الذى وصفته بالعمدة .

أصدر سعيد كتابه الاستشراق عام ١٩٧٨ فكان نقطة تحول بالغة الأهمية فى مسار نظرية النقد الأدبى الحديثة ، لا كما يقول أحد النقاد فى فكر سعيد أو عمله فحسب ، إذ فتح هذا الكتاب الباب أمام دروب جديدة فى الدراسات النقدية لا لكتابات الغربيين عن الشرق فقط ، بل أيضاً لكتابات الدول التى تحررت من الاستعمار عن ذواتها ، خصوصاً فى إطار وعيها المحتوم بما خلفه الاستعمار من آثار 'ثقافية' ، فإذا كان رأى تيرى جولدى يقول إن

كتاب الاستشراق نموذج لما أصبح يسمى نقد الاستعمار (colonial critique) فإن سعيد نفسه يطلق عليه اسم 'نقد ما بعد الاستعمار' (Postcolonial criticism) وتبرز معالمة في هذا الكتاب الذي يقتصر في ظاهره على تقديم الكتاب الأوروبيين للصور التي تمثل الشرق (بحيث أدت إلى تكوين الصورة التي يريدونها للشرق والاصرار على صدقها بزعم أنها تمثل الحقيقة) ولكن الكتاب يقدم في ثنايا عرضه وتعليقاته ما سبق لى أن أشرت إليه من نظرات نقدية جديدة ، ولتكتف بمثال واحد من ذلك الكتاب على منهجه ، فهو يدلّل بنماذج مفحمة على أن صور الشرق كانت 'تباع' للغرب في ظل نظام 'اقتصادي' يحكمه الربح المادى والفائدة المعنوية ، فما يريده السوق يقدمه الكتاب ، سواء كانوا يكتبون كتابات عامة أو إبداعية أو 'علمية' (مزعومة) ، فالسوق يريد صور مكان غريب متخلف عن ركب الحضارة ، يسوده التفكير اللاعقلانى ، وتسود فيه المتع الحسية ، وخصوصاً الاستغراق فى الملاذ الجنسية ، سواء كان ذلك مما يتفق مع الواقع كله أو يختلف عنه فى بعض التفاصيل المهمة التى قد تغير من 'حقيقة' الصورة . وإدوارد سعيد يواصل هذا المنهج فى هذا الكتاب ، فيبين أن الصور التى تمثل 'الإسلام' أى عالم المسلمين متقاة بعناية لتلبية احتياجات سوق من نوع آخر ، سواء كانت السياسات الحكومية ، أو ما يسمى 'بالمصلحة القومية' ، وسعيد يثبت أنه ليس فى 'صالح' الغرب بصفة عامة والولايات المتحدة

بصفة خاصة تكريس هذا الاستقطاب أو العداء أو الصدام المزعوم بين الثقافات أو الحضارات ، بل يقول إن هذا ينشئ إنشاءً ويعمل على تنميته بما يغذوه من تشويه له ، بحيث لن يؤدي استمرار ذلك النهج إلا إلى يأس الشرقيين من تفهم الغربيين لهم ، وقد يدفع اليأس إلى الإرهاب ، أو إلى الهجمات الانتحارية ، أو إلى الحروب ، وهو ما أثبتت الأيام صحته فتحقق في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وما تلا ذلك من غزو أفغانستان والعراق .

والمنهج الذى يتبعه إدوارد سعيد على درب 'النقد الثقافى' يتميز إذن بالاتساق ، فهو يتجلى فى أكثر من نسق من الأنساق التى يتسم بها ما يكتبه فى شتى المجالات حتى حين يتكلم عن الموسيقى فى أحد كتبه وهو 'تنويعات موسيقية' (Musical Elaborations) الصادر عام ١٩٩١ ، وهو يعتمد على خبرته الخاصة فى العزف على البيانو (وهو من المشهود لهم بالبراعة فى هذا المجال) فى تأكيد مذهبه الذى يقول بوجود الإطار الاجتماعى المحتوم ، حتى لعازف البيانو ، وهو الذى يبدو أنه يتجاوز المجتمع فى عزفه وإن كان محكوماً فى الواقع بهذا المجتمع ! وهو يدلل على ما يذهب إليه بأمثلة من حياة عازف البيانو الشهير ، والمفكر اللامع جيرالد جولد (الذى قيل إنه يكره الجنس البشرى) وغيره ، كما يضرب أمثلة من غيره ، وليس فى هذا ، كما قال البعض ، 'انحراف' عن منهجه وإن كان يتحدث عن الموسيقى ، فأنا أعرف من خبرتى الخاصة بالموسيقى مدى ارتباط ذلك الفن بالمجتمع

وبالثقافة بصفة عامة ، وإن كنت أدهش للتحليلات 'التجريدية' المذهلة التي يأتي بها سعيد (ذلك الذهن العبقري) للحدود التي يتقيد بها 'فن الصنعة' الصَّرف ، وهي التي لا يملك أن يتخطاها، وما يدفعه المجتمع وتدفعه الثقافة دفعًا إلى تخطيه .

وتعجلاً لاختتام هذه المقدمة التي أريد لها أن تقتصر على 'التعريف' بإدوارد سعيد ، الذي أرجو أن يستمتع القارئ بأفكاره التي كسوتها ثوباً عربياً مثلما استمتعت بقراءة النص بإنجليزيتة العميقة ، سوف أوجز عرض الجانب الآخر لهذا المفكر ، وهو دفاعه العقلاني المتمهل عن القضية الفلسطينية . وسأبدأ بالإشارة إلى ما بين يدي من كتبه (وما ليس عندي كثير) فأقول إن منهجه في النقد الثقافي الاجتماعي يستمر في بعض كتبه الأخرى ، مثل كتاب *العالم والنص والناقد* (The World, the Text and the Critic) (١٩٨٣) وهو مجموعة مقالات بالغة الأهمية ، وفي العلم والسياف (The Pen and the Sword) (١٩٩٤) وهو حوار مع دافيد بارساميان ، مع مقدمة بقلم إقبال أحمد ، وسوف أقتطف من هذه المقدمة عبارات محدودة ، وهي التي تمهد لمن يريد قراءة كتبه المهمة الأخرى ، وعلى رأسها المسألة الفلسطينية (The Question of Palestine) (١٩٨٠) وكذلك سياسات السلب والتجريد : كفاح الفلسطينيين في سبيل تقرير المصير *The Politics of Dispossession : The Struggle for Palestinian Self-Determination 1969-1994* (١٩٩٤) وهو من أهم كتبه العامة على الإطلاق . يقول إقبال أحمد :

كان سعيد من أوائل دعاة السلام مع إسرائيل . ولو كان عرفات قد استجاب للاقتراح الذى عرضه سعيد عليه فى بيروت فى خريف ١٩٧٨ ثم فى مارس ١٩٧٩ - وهو يكشف هنا عن تفاصيل هذا الاقتراح لأول مرة - فرمما كان من الممكن التوصل إلى تسوية معقولة بين الفلسطينيين والإسرائيليين . وسعيد يعتبر أن الاتفاق الحالى بين الجانبين يمثل "استسلاماً" من جانب عرفات، ويقدم الأسباب التى تبرر هذا الرأى . وينبغى لى أن أدع الفصل فى هذه القضية للآخرين وللتاريخ ، لكننى أشير هنا وحسب إلى جوانب اعتراضه التى تتعلق بتكوينه ذهنى . وتتضمن انشغاله بما يسمى الذاكرة ؛ وبوجهة نظر المقهورين ؛ وبالتزامه بعدم السماح مطلقاً لأسطورة أو وجهة نظر فاسدة سائدة أن تصبح جزءاً من التاريخ دون ما يقابلها من أضداد . وما لا يقل أهمية فى عمله إحساسه العميق بالخسارة الشخصية والجماعية، ونشده له للبدايل الإيجابية والعالمية لما يتسم بالطائفية من أيديولوجيات وأبنية ومزاعم . وفى ثانياً عمله كله نرى هذه الموضوعات وقد التحمت معاً بخيوط تربط ما بين المعرفة وبين السلطة وتقيم الوشائج ما بين الثقافة وبين الإمبريالية . وهو يقيم هذه الوشائج بأساليب تفتح الدروب إلى البديل الأقوى والإنسانى -

فلنسمه فلسفة مضادة ، أو ثقافة مقاومة ، أو الوعد
بتحرير غير طائفى ، وعلمانى . (ص ١١ - ١٢) .

وسوف ألمح إلى أهم كتبه فى هذا المجال وهى دون ترتيب
الثقافة والإمبريالية *Culture and Imperialism* (١٩٩٣) الذى
يضم دراسات متنوعة تدور فى الفلك نفسه ، وكتابه الأخير ،
وأطول كتبه وهو تأملات فى المنفى ومقالات أخرى (*Reflections*
on Exile and Other Essays) (٢٠٠٠) والطبعة التى لدى
صادرة عام ٢٠٠٢ ، ويضم دراسات عميقة ممتعة ، بعضها عن
الأدب الأمريكى ، وبعضها عن موضوعات عربية مثل دراسته عن
تحية كاريوكا ، وعن المشهد الأدبى فى مصر ، وعن نشأته الخاصة
فى القاهرة ، وعن فن الرواية عند أهداف سويى وغير ذلك .

وليأذن لى القارئ أن أذكر شيئاً عن هذه الترجمة ، فلقد كنت
اعتدت قراءة ما يكتب إدوارد سعيد بالانجليزية دون أن أتصور أننى
سوف أترجم منه أى شىء ، وكان يتتابنى مزيجٌ من الإشفاق
والإعجاب بمن يتصدى لترجمته بسبب إغراق سعيد فى
’التجريد‘ ، وهو من ’ضرورات‘ التفكير الفلسفى ، وبسبب تعقيد
أبنيته واتكائه على المصطلح الانجليزى القح ، ومزجه النبيرة العامة
أحياناً بالنبيرات ’المتقعة‘ لكبار النقاد الذين اعتدناهم فى دراستنا
للأدب الانجليزى ، وعندما اقترح على الناشر ، الأستاذ رضا
عوض ، ترجمة هذا الكتاب امتزج الشعور بالإشفاق والوجل
بإحساسى الدفين بالتحدى ، وكان لابد أن أقهر الشعور الأول

وأستجيب للتحدي ، وكان معنى ذلك قضاء وقت أكثر مما قدرت
 فى الترجمة والمراجعة ، وحاولت أن أنقل للقارئ بإخلاص وأمانة
 صورة صادقة لفكر إدوارد سعيد وأسلوب صوغ هذا الفكر ، ولو
 اقتضى ذلك بعض الالتزام الحرفى بما يقول ويصوغ فى بعض
 المواضع ، ولكن دون جور على الوضوح الذى أبتغيه فى كل ما
 أكتب وأترجم . وأرجو ألا يجد القارئ صعوبة فى تتبع مسار فكر
 الرجل العظيم بعد أن أنطقته بالعربية ، وأن تصل رسالة الكاتب
 بوضوح إلى الجميع . فإذا وجد القارئ هنا وهناك ، وهو
 أمر محتوم ، فأرجو منه الصفح ، فالإنسان غير معصوم من
 السهو والخطأ .

محمد عنانى

القاهرة - ٢٠٠٥

■ المقدمة ■

هذا هو الكتاب الثالث والأخير من سلسلة الكتب التي حاولت فيها تناول العلاقة القائمة في العصر الحديث بين عالم الإسلام والعرب والشرق من ناحية ، وبين الغرب وفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة من ناحية أخرى . وكتابي الأول الاستشراق هو أشد هذه الكتب تعميماً إذ يرصد شتى مراحل تلك العلاقة منذ غزو نابليون لمصر ويتناول الفترة الاستعمارية الرئيسية ونشأة دراسات المستشرقين الحديثة في أوروبا حتى انتهاء الهيمنة الإمبريالية، البريطانية والفرنسية ، على الشرق بعد الحرب العالمية الثانية وظهور السيطرة الأمريكية في الوقت نفسه . وأما الأساس الفكري الذي يقوم عليه كتاب الاستشراق فهو الارتباط الوثيق بين المعرفة^(١) وبين السلطة أو القوة.

ويقدم الكتاب الثاني وعنوانه المسألة الفلسطينية تاريخ حالة

خاصة، إذ يعرض للصراع ما بين السكان العرب الأصليين لفلسطين، ومعظمهم من العرب، وبين الحركة الصهيونية (إسرائيل فيما بعد) ذات المنشأ الغربى والتي تنتهج فى تعاملها مع حقائق الواقع ”الشرقى“ نهجاً غربياً إلى حد كبير . وتحاول دراستى عن فلسطين كذلك ، وبمنهج أشد صراحة من منهج الاستشراق ، وصف ما اختفى ويختفى تحت السطح فى الرؤى الغربية للشرق ، وهو فى هذه الحالة ، الكفاح الوطنى الفلسطينى فى سبيل تقرير المصير^(٢) .

وأما فى تغطية الإسلام فإن موضوعى معاصر بصورة مباشرة، وهو المواقف الغربية ، والمواقف الأمريكية خصوصاً إزاء العالم الإسلامى الذى بدأ الغربيون يرون، منذ مطلع السبعينيات، أن له صلة وثيقة بهم ، ومع ذلك فهو يموج بالقلق المعادية لهم، ويمثل

مشكلة لهم . وكان من بين أسباب هذه الرؤية إحساسهم الحاد بنقص إمدادات الطاقة ، وهو الإحساس الذى تركز على النفط العربى و النفط الخليج العربى ، وعلى منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك) والآثار الضارة الناجمة عن التضخم فى المجتمعات الغربية وارتفاع أسعار الوقود ارتفاعاً بالغاً. أضف إلى ذلك أن الثورة الإيرانية وأزمة الرهائن قدمتا أدلة جديدة ، وتدعو إلى الانزعاج ، على صحة ما أصبح يشار إليه باسم ” عودة الإسلام“. وأخيراً لمحنا عودة ظهور المشاعر الوطنية الراديكالية فى العالم الإسلامى ، وما تبعها من اشتداد المنافسة بين الدول العظمى هناك ، وهو ما يؤسف له بصورة خاصة. فأمّا المثال على الظاهرة الأولى فهو الحرب بين العراق وإيران ، وأمّا المثال على الظاهرة الثانية فهو التدخل السوفييتى فى أفغانستان والاستعدادات الأمريكية لما يسمى بقوات الانتشار السريع فى منطقة الخليج .

ورغم أن التورية فى عنوان هذا الكتاب ، ”تغطية الإسلام“ سوف تتضح لآى قارئ له ، فإنه قد يتطلب تفسيراً مبسطاً فى البداية. فمن الأفكار التى أطرحها فى هذا الكتاب وفى كتاب الاستشراق أن مصطلح ”الإسلام“ ، فى السياقات التى يستعمل فيها اليوم ، يعنى فى ظاهره أمراً واحداً بسيطاً ، وأمّا فى الواقع ، فالمصطلح من أحد جوانبه ليست له دلالة واقعية ، وهو من جانب ثان لا يزيد عن كونه بطاقة أيديولوجية وهو من جانب ثالث اسم لا يتجاوز الحدود الدنيا فى الإشارة إلى الدين الإسلامى . فنحن

نرى أولاً أن المصطلح بالصورة التي يشيع فيها لدى الغربيين لا ينطبق انطباقاً واقعياً على صور الحياة البالغة التنوع داخل عالم الإسلام ، وهو الذي يربو عدد سكانه على ثمانمائة مليون نسمة ، وتصل مساحة أراضيه إلى ملايين الأميال المربعة ، معظمها في إفريقيا وآسيا ، إلى جانب عشرات مجتمعاته ودوله ، وأشكال تاريخه وجغرافيته وأنماطه الثقافية . وفي مقابل ذلك نرى أن ”الإسلام“ أصبح يرتبط اليوم في الغرب بالأنباء المثيرة المفجعة بصفة خاصة ، للأسباب التي أناقشها في غضون هذا الكتاب . فلقد شُغِلَتْ أجهزة الإعلام الغربية بتغطية الإسلام في الأعوام القليلة الماضية ، خصوصاً منذ أن لَفَتَتْ أحداث إيران أنظار الناس في أوروبا وأمريكا إليه وشَغَلَتْهُمْ حقاً ، فإذا بهذه الأجهزة تتصدى لتصوير الإسلام ، وتحديد ملامحه ، وتحليله ، وتقديم دراسات فورية عنه ، ومن ثم فقد جعلته في ظنهم ”معلوماً“ .

ولكن هذه التغطية ، كما ألمحت إلى ذلك ضمناً ، تغطية مضللة حتى ولو بدت شاملة ، ويضاف إليها عمل الخبراء الأكاديميين في الإسلام ، ورجال الاستراتيجيات الجغرافية السياسية الذين يتحدثون عن ”هلال الأزمة“ وعمل المفكرين الثقافيين الذين ينعون ”تدهور الغرب“ . ومصدر التضليل هو أن التغطية توحى لمن يتلقون الأنباء بأنهم قد فهموا الإسلام ، دون أن تقول لهم إن جانباً كبيراً من هذه التغطية النشطة يستند إلى مادة أبعد ما تكون عن الموضوعية . فلقد أدى استعمال مصطلح ”الإسلام“ إلى

السماح بقدر واضح من الأخطاء، وبأقوال تنم عن التعبير عن التحيز العرقي الشديد، والكراهية الثقافية بل والعنصرية، والعداء العميق الذي قد يتذبذب صعوداً وهبوطاً، وهذه من إحدى المفارقات. ويجرى ذلك كله في إطار ما يُفترض أنه تغطية منصفة متوازنة مسئولة للإسلام. وبغض النظر عن عدم تناول أجهزة الإعلام للمسيحية أو لليهودية بنفس الحماس الانفعالي الذي تتناول به الإسلام، وإن كان كل منهما يمرّ بنهضة بارزة (أو ما يسمى "العودة") فالافتراض المسلّم به هو أنه من الممكن تحديد صفات الإسلام دونما حدود باستعمال حِفْظَةٍ من القوالب اللفظية (الكليشيات) التي تتسم بالتعميم الذي ينم عن التهور، والتي تستخدم مراراً وتكراراً. ودائماً ما يُفترض أن "الإسلام" الذي يتحدثون عنه شيء حقيقي ثابت له وجود واقعي في المكان الذي تصادف أن وجدت فيه إمدادات "بترولهم".

ولقد صاحب هذا اللون من التغطية قدر كبير من التستر والتكتم. فعندما تحاول صحيفة نيويورك تايمز أن تشرح المقاومة الإيرانية المدهشة للغزو العراقي، نجدها قد لجأت إلى المقولة القديمة من أن "للشيعة ولعاً بالاستشهاد" وأمثال هذه المقولات لها حظُّها من القبول من الناحية السطحية، ولكنني أعتقد أنها تستخدم لتغطية الكثير مما لا يدري الصحفيّ عنه شيئاً. والجهل باللغة لا يمثل إلا جانباً واحداً أشمل وأعظم، إذ كثيراً ما تبث الصحيفة بمراسلها إلى بلد غريب، دون استعداد ودون خبرة، لا

لسببٍ إلا لذكائه وقدرته على التقاط الأنباء بسرعة، أى للماحيته، أو لأنه تصادف وجوده في مكان قريب من الجبهة التي تزود الصحيفة بأنباء الصفحة الأولى . وهكذا فبدلاً من محاولة معرفة المزيد عن ذلك البلد، نجد أن الصحفي قد التقط ما هو قريب منه، وعادة ما يكون كليشيهًا أو فكرة صحفية جذابة ليس من المحتمل أن يشك في صحتها قراء صحيفته في بلده . وهكذا وجدنا ما يقرب من ثلاثمائة صحفي في طهران في الأيام الأولى من أزمة الرهائن ، دون أن يكون من بينهم من يتحدث اللغة الفارسية ، ولم يكن من الغريب إذن أن تكرر جميع الأنباء الصحفية الخارجة من إيران ، في جوهرها ، نفس المقولات البالية عن الأحداث الجارية هناك . وبطبيعة الحال لم يلحظ أحد ولم يلتفت الناس إلى غيرها من الأحداث والتحولات السياسية في إيران ، وهى التى تعذر تصنيفها باعتبارها نماذج ”للعقلية الإسلامية“ أو ”لمعاداة أمريكا“ .

وقد ساهمت أنشطة تغطية الإسلام والتستر على الإسلام فيما بينها إلى حد كبير في صرف النظر عن المرض الذى تعتبر هذه الأنشطة من أعراضه ، ألا وهو المشكلة العامة المتمثلة في الحياة في عالم أصبح يتسم بقدر بالغ من التنوع والتعقيد إلى الحد الذى يستحيل معه إطلاق التعميمات الفورية والميسرة . ومصطلح الإسلام نموذج ينطبق عليه هذا القول ، وهو نموذج ذو خصوصية أيضاً ، بسبب تاريخ الإسلام في الغرب ، فهو تاريخ قديم وذو

سمات محددة بدقة ، وأعني بذلك أن الإسلام لا ينتمى إلى أوروبا ولا إلى مجموعة البلدان المتقدمة صناعياً مثل اليابان ، بل يشترك في عدم الانتماء المذكور مع سمات كثيرة أخرى من سمات عالم ما بعد الاستعمار ، إذ يعتبر واقعاً في نطاق ما يسمى ”المنظورات الانمائية“ وهي التسمية التي تعني بأسلوب آخر أن النظرة السائدة على امتداد ثلاثة عقود على الأقل تقول بأن المجتمعات الإسلامية في حاجة إلى ”تحديث“ . ونجمت عن أيديولوجية التحديث نظرة خاصة إلى الإسلام بلغت ذروتها وأوجها في شاه إيران ، سواء في قمة مجده باعتباره حاكماً ”حديثاً“ أو عندما انهار نظام حكمه ، باعتباره ضحية من ضحايا الحركة التي اعتبرها الغربيون نموذجاً لتعصب العصور الوسطى واستمساكها بالدين .

ومن ناحية أخرى كان الإسلام دائماً ولا يزال يمثل تهديداً خاصاً للغرب ، للأسباب التي ناقشتها في كتابي الاستشراق وأعيد فحصها في هذا الكتاب . ومن المحال أن يقال عن أي دين آخر ، أو أي تجمع ثقافي آخر ، وبنفس الدرجة من التأكيد ، ما يقال الآن عن الإسلام ، أي إنه يمثل تهديداً للحضارة الغربية . وليس من قبيل المصادفة أن تؤدي القلاقل والاضطرابات التي نشهدها في عالم المسلمين اليوم (وهي التي ترجع إلى عوامل اجتماعية واقتصادية وتاريخية أكثر مما ترجع إلى الإسلام وحده) إلى فضح مناحي قصور القوالب الثابتة (الكليشيهات) التي وضعها

المستشرقون وهى القوالب الساذجة التى تتحدث عن "الإيمان بالقدر" والتواكل لدى المسلمين ، دون أن يأتوا ببدائل لها سوى الحنين إلى الأيام الخوالى التى كانت الجيوش الأوروبية فيها تسيطر على عالم المسلمين كله تقريباً ، من شبه القارة الهندية إلى شمالي إفريقيا . وما النجاح الذى لاقته الكتب والصحف ولاقاه كبار الشخصيات العامة الذين يدعون إلى إعادة احتلال منطقة الخليج ، مبررين دعوتهم بالحديث عن الهمجية الإسلامية، إلا جانب من جوانب هذه الظاهرة . ولا يقل عن ذلك غرابة أن نشهد هذه الأيام ذبوع صيت بعض "الخبراء" فى أمريكا ، مثل ج.ب. كيلي، الأستاذ السابق للتاريخ الإمبريالى فى جامعة ويسكونسن، والذى كان يوماً ما مستشاراً للشيخ زايد بن سلطان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة (رحمه الله)⁽³⁾ والذى غدا ينتقد المسلمين ورجال الغرب الضعفاء الذين يختلفون عنه فى أنهم أسلسوا زمامهم "لعرب النفط" . ولقد عرّضت بعض المقالات لكتابه وانتقده أحياناً دون أن تقول إحداها كلمة واحدة عن محاكاته للأجداد الإمبرياليين محاكاة صريحة تدعو إلى الدهشة فى الفقرة الأخيرة من هذا الكتاب ، وهى جديرة بالاعتطاف هنا بسبب ما تتضمنه من اشتهااء خالص للغزو الإمبريالى ومن مواقف عنصرية لا ينجح تماماً فى إخفائها :

من المحال أن نتنبأ بطول المدة الزمنية التى بقيت لأوروبا الغربية حتى تحتفظ أو تستعيد ميراثها الاستراتيجى

شرقيّ السويس . ففي الفترة التي ساد فيها ما يسمى بالسلام البريطاني ، أى من العقد الرابع أو الخامس للقرن التاسع عشر حتى سنوات منتصف هذا القرن (العشرين) ساد الهدوء البحار الشرقية وحول سواحل غربيّ المحيط الهندي . ولا يزال الهدوء المؤقت قائماً في تلك المناطق ، لكنه ظلّ عابراً من ظلال النظام الإمبرياليّ القديم ، فإذا كان لنا أن نتعلم شيئاً ما من التاريخ في القرون الأربعة أو الخمسة الماضية ، فهو أن ذلك السلام الهش لن يستطیع الصمود طويلاً . إن معظم بلدان آسيا قد انتكست فعادت إلى الحكم الاستبداديّ ، وعادت معظم إفريقيا إلى الهمجية -أى باختصار إلى الحال التي كانت تعيشها قبل أن يكتشف فاسكو دي جاما طريق رأس الرجاء الصالح ويضع أسس سيطرة البرتغال على الشرق . . . لا تزال عُمان مفتاح التحكّم في الخليج ومداخله البحرية ، مثلما لا تزال عدن مفتاح المرور في البحر الأحمر . ولقد تخلت الدول الغربية من قبل عن أحد هذين المفتاحين ؛ وأما المفتاح الآخر فلا يزال في متناول أيديها . لكننا لم نعرف حتى الآن ما إذا كانت لديها الجرأة اللازمة ، مثل ربانة البرتغال القدماء ، للقبض عليه^(٤) .

وإذا كان بعض القراء قد يجدون غرابة وطرافة فيما يوحى به

كيلى من أن الاستعمار البرتغالى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر يعتبر أنسب مرشد للسياسيين الغربيين المعاصرين، فإن تبسيطه للتاريخ هو أشد ما يمثل الاتجاه الفكرى الراهن . فهو يقول إن الاستعمار أتى بالهدوء ، كأنما كان إخضاع ملايين البشر نعيمًا مثاليًا وكأنما كانت أيام الاستعمار أفضل أيام عهدوها ، وأما انتهاك مشاعرهم ، وتشويه تاريخهم ، وتعايسة مصائرهم ، فلا قيمة لها ”ما دمنا“ ، من وجهة نظره ، نواصل الظفر بما هو مفيد ”لنا“ - أى بالموارد الثمينة ، والبقاع الاستراتيجية من الزاوية السياسية ، وذلك الحشد الكبير من الأيدى العاملة المحلية الرخيصة . وأما استقلال البلدان فى إفريقيا وآسيا بعد قرون من السيطرة الاستعمارية فهو يرفضه باعتباره انتكاسًا وعودةً إلى حالة الهمجية أو الحكم الاستبدادى . وهكذا يقول كيلى إن السبيل الوحيد المتاح ، بعد ما وصفه بأنه وفاة النظام الإمبريالى القديم التى وصمت أهله بالجبن ، هو القيام بغزوة جديدة . وفى طيات هذه الدعوة التى يقدمها كيلى إلى الغرب للحصول على ما يتسمى بحق ”لنا“ ، يكمن احتقار عميق للثقافة الإسلامية الوطنية فى آسيا التى يرغب كيلى أن تتولى ”نحن“ حكمها .

فلنضرب صفحًا عن المنطق المعكوس الذى يستند إليه كيلى فى كتابته ، وهو الذى أتى له بآيات الترحيب والاحترام من الجناح اليمينى من المفكرين الأمريكين ، من ويليم ف. باكلى إلى صحيفة نيويوربيبلك ، فالأهم من ذلك فى النظرة التى يقدمها هو

تفضيل الحلول الشاملة الجاهزة فوراً على كل حلول أخرى للمشاكل المعقدة المتشابكة ، خصوصاً حين توصي هذه الحلول باتخاذ عمل قوى ضد ”الإسلام“ . ولا أحد يذكر أى شيء عما عساه يجرى الآن داخل اليمن مثلاً ، أو فى تركيا ، أو عبر البحر الأحمر فى السودان، أو موريتانيا ، أو فى المغرب أو حتى فى مصر . فالصحافة تلتزم الصمت إزاء ذلك كله ، إذ لا يشغلها إلا إسداء المشورة لرجال صناعة النفط وللحكومة بشأن التنبؤ باتجاهات الخليج العربى ، والحكومة تلتزم الصمت ، إذ إنها لا تطلب المعلومات إلا حيث يوجهها ”أصدقائنا“ (مثل الشاه أو أنور السادات) إلى مكان طلبها . فلا يهم هذه الجهات جميعاً إلا القول بأن ”الإسلام“ هو وحده الذى يمتلك احتياطات النفط اللازمة للغرب ، ولا اعتداد بغير ذلك ، ولا شيء سواه يستحق الالتفات إليه .

فإذا نظرنا إلى الحالة الراهنة للدراسات الأكاديمية للإسلام ، لم نجد فيها ما يكفى لتصحيح الأوضاع ، بل إن المجال برمته يعتبر من بعض زواياه هامشياً بالنسبة للثقافة العامة ، كما إنه - من زوايا أخرى - قد استقطبته الحكومة والشركات . وقد أدى ذلك ، بصفة عامة ، إلى عدم تأهيله لتغطية الإسلام بالمناهج التى ربما كشفت لنا عما نجهله مما يدور تحت السطح فى المجتمعات الإسلامية ، وذلك إلى جانب المشكلات المنهجية والفكرية العديدة

التي لم تحسم حتى الآن: هل يوجد ما يسمى بالسلوك الإسلامي؟ ما الذي يربط الإسلام على مستوى الحياة اليومية بالإسلام على مستوى العقيدة في شتى المجتمعات الإسلامية؟ ما مدى فائدة استعمال مصطلح "الإسلام" باعتباره من المفاهيم النظرية في تفهّم الأحوال القائمة في نفس الوقت في المغرب والمملكة العربية السعودية وسوريا وإندونيسيا؟ فإذا أدركنا ، على نحو ما أشار إليه كثير من العلماء في الآونة الأخيرة ، أنه من الممكن اعتبار أن العقيدة الإسلامية تبرر الرأسمالية مثلما تبرر الاشتراكية ، وتبرر الكفاح مثلما تبرر التسليم بالقدر ، وتبرر مدّ الأيدي إلى الأديان جميعاً والترابط بينها مثلما تبرر الانفراد والانحصار ، بدأنا في إدراك الهوة الشاسعة التي تفصل بين التوصيفات الأكاديمية للإسلام (ومن المحتوم ألا تقدم لها أجهزة الإعلام إلا صوراً شائخة) وبين الحقائق المحددة القائمة على أرض الواقع في العالم الإسلامي .

ومع ذلك فالآراء تتفق على اعتبار "الإسلام" كبش الفداء الذي ننسب إليه كل ما يتصادف أن نكرهه في الأنساق السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة في عالم اليوم . فاليمين يرى أن الإسلام يمثل الهمجية ، واليسار يرى أنه يمثل حكم الدين في القرون الوسطى ، والوسط يرى أنه يمثل الغرابة الممجوجة ، وأما ما تتفق عليه هذه الدوائر جميعاً (وعلى الرغم من ضآلة ما تعرفه عن العالم الإسلامي) فهو استحالة قبول جوانب كثيرة من جوانبه . وينحصر ما تعتبره هذه الدوائر ذا قيمة في الإسلام ،

وبصفة رئيسية ، فى عدائه للشيوعية ، إلى جانب المفارقة الظاهرة فى أن العداء للشيوعية فى العالم الإسلامى يعتبر فى جميع الأحوال تقريباً مرادفاً لنظم الحكم القمعية الموالية لأمريكا . والرئيس الباكستانى ضياء الحق خير مثال لذلك .

ما أبعد هذا الكتاب إذن عن أن يكون دفاعاً عن الإسلام ، فذلك أمر بعيد الاحتمال وجهد لا طائل من ورائه فى حدود ما يرمى إليه هذا الكتاب الذى يقتصر على وصف صور استعمال مصطلح ”الإسلام“ فى الغرب ، وكذلك - ولو أننى أنفق وقتاً أقل فى هذا الصدد - فى كثير من المجتمعات الإسلامية . وهكذا فإن انتقاد صور إساءة استعمال المصطلح فى الغرب لا يعنى على الإطلاق السماح بها أو الموافقة عليها داخل المجتمعات الإسلامية . فالواقع يقول إننا نجد فى الكثير ، بل فى عدد أكبر مما ينبغى من المجتمعات الإسلامية ، أن النظام الحاكم يلجأ إلى القمع ، أو إلى سلب الحريات الشخصية ، أو الاستناد فى الحكم إلى أقلية لا تمثل الشعب وأنه قد يزعم زوراً وبهتاناً أن ذلك مشروع باسم الإسلام ، أو يلجأ إلى السفسطة فى إقامة مبرراته على أسس إسلامية ، والعقيدة الإسلامية بريئة من ذلك كله ، شأنها فى ذلك شأن الأديان العالمية العظمى . والواقع أن إساءة استعمال مصطلح الإسلام تتزامن فى كثير من الحالات مع الزيادة الفاحشة فى القوة والسلطة التى تكتسبها الحكومة المركزية .

لكننا حتى لو لم ننسب كل العلل فى العالم الإسلامى إلى الغرب ، فلا بد أن ندرك العلاقة التى تربط ما يقوله الغرب عن الإسلام بما فعلته شتى المجتمعات الإسلامية ردًا على ذلك ، فالعلاقة الجدلية قائمة بين الطرفين ، لأن الغرب شريك مهم فى الحوار الدائر مع الكثير من المجتمعات الإسلامية ، سواء باعتباره القوة الاستعمارية السابقة أو باعتباره الشريك التجارى الحالى ، وقد أثمرت هذه العلاقة الجدلية ضربًا مما أطلق عليه توماس فرانك وإدوارد ويزباند تعبير ”سياسة الكلمات“^(هـ) ومن أغراض هذا الكتاب تحليل هذه السياسة وشرحها . فنحن نلاحظ التراشق بين الغرب والإسلام ، ونلاحظ التحدى والإجابة ، وفتح مجالات تعبيرية معينة وإغلاق غيرها ، وكل ذلك هو ما يشكل ”سياسة الكلمات“ التى يحاول عن طريقها كل طرف إنشاء مواقف معينة، وتبرير أفعال معينة ، وفرض بدائل معينة على الطرف الآخر. وهكذا فعندما احتل الإيرانيون السفارة الأمريكية فى طهران كانوا لا يردون بذلك فحسب على دخول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة ، بل أيضًا على ما يعتبرونه تاريخًا طويلًا من الإذلال الذى لاقوه على أيدى القوة الأمريكية الفاتكة ، أى إن الأفعال الأمريكية الماضية ”تحدثت“ إليهم عن التدخل الدائم فى حياتهم، ومن ثم أحسوا أنهم مسلمون قد سجنوا داخل وطنهم نفسه ، فقاموا بحبس بعض الأمريكيين واحتجزوهم رهائن على أرض أمريكية ، أى فى السفارة الأمريكية فى طهران . وإذا كانت الأفعال نفسها

قد أقامت الحجة ، فلقد مهدت لها الكلمات ، وتحركات القوة رسمت الكلمات ظلالها ، بل وإلى حد كبير يمكن القول بأنه لولا الكلمات ما كانت الأفعال .

وأعتقد أن هذا النسق ذو أهمية كبرى لأنه يؤكد الرابطة الوثيقة بين اللغة والواقع السياسى ، على الأقل فيما يتعلق بالمناقشات الخاصة بالإسلام . وما أشق أن تجعل معظم الخبراء الأكاديميين فى الإسلام يعترفون بأن ما يقولونه ويفعلونه باعتبارهم علماء باحثين يقع فى سياق ذى صبغة سياسية عميقة ، وأحياناً ما تكون معادية . فكل ما يختص بدراسة الإسلام فى الغرب المعاصر اليوم مشبع بالأهمية السياسية ، ومع ذلك فما أندر أن نجد كاتباً عن الإسلام، سواء كان خبيراً أو ممن يكتبون بصفة عامة ، يعترف بهذه الحقيقة فيما يقوله . فنحن نفترض التزام الموضوعية فى حديث العلماء عن المجتمعات الأخرى ، على الرغم من التاريخ الطويل الذى عرفت فيه جميع المجتمعات ضروب القلق السياسى والخلقى والدينى ، سواء كانت غربية أو إسلامية، بشأن كل أجنبى وغريب ومختلف . ففى أوروبا على سبيل المثال، كان المستشرق يرتبط بصورة مباشرة، وعلى مر الزمن ، بالجهود الاستعمارية ، ولقد بدأنا فحسب ندرك مدى التعاون الوثيق بين الدراسة العلمية والغزو العسكرى الاستعمارى المباشر ، وهو ما تعلمنا منه درساً مفيداً وإن كان محزناً (على نحو ما حدث فى حالة المستشرق الهولندى الميجل سى . سنوك هنجرونيى ، الذى استغل الثقة التى أولاه المسلمون

إياها ، فى تخطيط وتنفيذ الحرب الهولندية الوحشية ضد أبناء شعب أتشه المقيمين فى سومطره^(٦) . ومع ذلك فلا تزال الكتب والمقالات تتدفق علينا وتفيض بالثناء على الطابع غير السياسى للدراسة العلمية الغربية ، وثمار العلم الذى أتى به المستشرقون ، وقيمة الخبرة ”الموضوعية“ . وفى الوقت نفسه يندر أن نرى خبيراً من خبراء ”الإسلام“ لم يكن مستشاراً للحكومة أو حتى موظفاً فيها ، أو فى مختلف الشركات أو أجهزة الإعلام . وما أرمى إليه هو أنه لابد من الاعتراف بذلك التعاون ومن أخذه فى الاعتبار ، لا لأسباب أخلاقية فحسب ، بل أيضاً لأسباب فكرية .

فلنقل إذن إن الكلام عن الإسلام يتعرض للتلوّن دون شك بألوان الأحوال السياسية والاقتصادية والفكرية التى ينشأ فيها ، إن لم يصبه الفساد المطلق من جرّاء ذلك ، ويصدق ذلك على الشرق مثلما يصدق على الغرب . وليس من المبالغة أن نقول ، ولأسباب كثيرة واضحة ، إن كل كلام عن الإسلام يسعى لتحقيق درجة ما من السلطة أو القوة . ولكننى ، من ناحية أخرى ، لا أقصد أن أقول إن جميع الدراسات أو الكتابات عن الإسلام لا نفع لها ، فالعكس هو الصحيح ، وهى أقرب قطعاً إلى النفع بما تميّط عنه اللثام باعتبارها دليلاً يشير إلى ”المصلحة“ التى تسعى لتحقيقها . ولا أستطيع أن أقول بالتأكيد إذا ما كنا سنصادف فى مجال الشئون المتعلقة بالمجتمع البشرى ما يسمى بالحقيقة المطلقة أو المعرفة الصادقة الكاملة ، وربما وجدنا أمثال هذه أو تلك فى عالم

المجردات - وهو قول لا أجد صعوبة في قبوله - ولكنني أرى في إطار الواقع القائم أن الحقيقة في سياق الحديث عن أمور معينة مثل "الإسلام" مرتبطة بالمصدر الذي تأتي منه ، وأرجو أن يلاحظ القارئ أن هذا الموقف لا يستبعد وجود درجات من المعرفة (الصحيحة أو الفاسدة أو التي لا لون لها) ولا يستبعد إمكان تحرّي الدقة في القول ، ولكنه يطلب فحسب من أي إنسان يتكلم عن "الإسلام" أن يتذكر ما يعرفه كل دارس مبتدئ للأدب ، وهو أن كتابة نصوص عن الواقع الإنساني أو قراءة هذه النصوص نشاط يشارك فيه من العوامل ما يزيد كثيراً عما يمكن تفسيره (أو حمايته) بعناوين مثل "الموضوعية" .

وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى بذل الجهد في تحديد السياق الذي تنشأ فيه كل مقولة ، وسبب اهتمامي بذكر مختلف الفئات الاجتماعية المهتمة "بالإسلام" . وأما بالنسبة للغرب بصفة عامة ، وللولايات المتحدة بصفة خاصة ، فإن تلاقى القوى ذات العلاقة "بالإسلام" واضح جليّ ، سواء فيما يتعلق بالجماعات التي تشكل هذه القوى (الحياة الأكاديمية ، والشركات ، وأجهزة الإعلام ، والحكومة) أو الغياب النسبي للمنشقين عن الطريق الذي جعلته هذه القوى "الطريق الصحيح" أو المعتمد . وكانت النتيجة هي التبسيط الشديد والمخلّ "للإسلام" الذي يتيح التلاعب به لتحقيق عدة أهداف معاً ، من إثارة حرب باردة جديدة ، إلى إثارة الكراهية العنصرية ، إلى تعبئة الرأي العام لإمكان القيام بغزوة

جديدة ، إلى استمرار تحقير المسلمين والعرب^(٧) . وأعتقد أنه لا يكاد يكون في هذا كله أى نشدان للحقيقة ؛ بل إن القائمين بذلك دائماً ما ينكرون ، بكل تأكيد ، أنهم يقصدون التلاعب تحقيراً لأهدافهم ، ولكننا نجد أن أقوالهم تصدر وأهدافهم تتحقق وقد تسترت برداء البحث الأكاديمي بل الخبرة العلمية التي تخفيها . ومن العواقب الطريفة أنه حين تتبرع البلدان الإسلامية بالمال للجامعات الأمريكية لإنفاقه على الدراسات العربية أو الإسلامية تعلو أصوات الغضب الليبرالية احتجاجاً على التدخل الأجنبي في الجامعات الأمريكية ، وحين تتبرع اليابان أو ألمانيا بالمال فلا يسمع أحد صوتاً لشاك . وأما عن تأثير ضغوط الشركات على الجامعات ، فذلك أيضاً يعتبر بصفة عامة أمراً مقبولاً ولا غبار عليه^(٨) .

وحتى لا ينطبق علىّ ، فيما يبدو ، التعريف الذي وضعه أوسكار وايلد للمتهكم الساخر بدقة - وهو في رأيه من يعرف لكل شيء سعراً ولا يعرف لأى شيء قيمة - أجد لزاماً علىّ أن أقول في الختام إنني أدرك الحاجة إلى آراء الخبراء المطلعين على بواطن الأمور ، وإنه من المحتمل أن تتخذ الولايات المتحدة باعتبارها دولة عظمى مواقف إزاء العالم الخارجى لا تتخذها الدول الصغرى ، وأن تضع لنفسها سياسات خاصة بها بناءً على تلك المواقف ؛ كما إنني لا يزال يحدوني أمل كبير في أن تتحسن الأحوال السيئة السائدة الآن ، ومع ذلك فأنا لا أشارك الكثيرين من الخبراء وواضعى السياسات والمثقفين بصفة عامة إيمانهم القوى

والراسخ بمفهوم "الإسلام" لديهم ، بل إننى ، على العكس من ذلك ، كثيراً ما أرى فيه عقبة ، بدلاً من أن يكون عوناً على تفهّم الدوافع التى تحرك الناس والمجتمعات . أما ما أؤمن به حقاً فهو وجود حاسة نقدية ، ووجود المواطنين القادرين والمستعدين لاستخدامها فى تخطىّ وتجاوز المصالح الخاصة للخبراء وأفكارهم التقليدية . ويستطيع كل قارئ أن يعتمد على المهارات التى يتمتع بها صاحب النظرة النقدية الصائبة فى التمييز بين الخطأ والصواب ، وبين الغث والسمين ، وأن يطرح الأسئلة المناسبة ويتوقع الإجابات المناسبة ، ومن ثم يتمكن من معرفة ما يريد إما عن الدين الإسلامى أو عن عالم الإسلام ، وعن الرجال والنساء والثقافات التى تعيش فيه ، وتكلم لغاته وتتنفس هوائه وتصنع تاريخ كل بلد فيه وتنشئ كل مجتمع من مجتمعاته . وعندها تبدأ المعرفة الإنسانية الحقة ، ويبدأ الناس فى تحمل المسئولية الجماعية عن تلك المعرفة ، وما كتبت هذا الكتاب إلا فى سبيل ذلك الهدف .

ولقد سبق نشر بعض أجزاء من الفصلين الأول والثانى فى صحيفتى 'ذانيشن' وكولمبيا جورناليزم ريفيو، وأود أن أعرب عن امتناني الخاص إلى روبرت مانوف ، الذى تولى رئاسة تحرير الصحيفة الأخيرة لفترة قصيرة فجعل منها فى إبانها مجلة ناجحة .

وفى غضون جمعى للمادة الخاصة ببعض أقسام هذا الكتاب تلقيت العون من مساعدين قديرين هما دجلاس بولدوين وفيليب

شحاده ، وتولى پول ليارى إعداد المخطوط فى صورته النهائية
بمهارة علمية وكفاءة فائقة . وأعرب عن امتنانى كذلك لألبرت
سعيد لما قدمه لى من سخيّ العون .

أما عن النقد الفكرى والملاحظات الحسيفة فأنا أدين بها
للكثيرين ، ومنهم من لم يقدر لى أن أقابله وإن كنت قد تلقيت
الرسائل التى تحمل أفكاراً ودراسات وتعليقات أفدت منها جميعاً ،
وأخص بالذكر فريد هاليداي ، وميريام روزن ، وويليم جرايدر ،
وإرفارد أبراهاميان ، وويليم دورمان ، ومنصور فريهك ، ونيكى
كيدى ، وميلودى كيميل ، وتشارلز كيمبول ، وستيوارت شار .

وأود أن أشير إلى الدين الخاص الذى أدين به لرفيقى العزيز
إقبال أحمد ، صاحب المعرفة الموسوعية الذى لا يضمن بالإجابة
على سؤال سائل فزدونا بالغذاء الفكرى فى فترات التخبط
والمحن . وقام جيمس بيك بقراءة المخطوط فى إحدى صورته المبكرة
وقدم لى اقتراحات رائعة مفصلة لمراجعته ، وإن كان لا يعتبر ،
بطبيعة الحال ، مسئولاً عما بقى به من مثالب ، ويسرنى أن أشكره
وأقدر له مساعدته التى لا غنى عنها . وتولت جين مورتون ، من
دار نشر پانثيون بوكس تحرير المخطوط بلباقة وبقظة ، فأنا لها
ممتن . ولا يفوتنى أن أتقدم بالشكر كذلك إلى أندريه شيفرين لما
أبداه من حكمة وحصافة فكرية ، إذ يتحلى بالشجاعة صديقاً
ومحرراً وناشراً .

وأما مريم سعيد ، التى أهدى إليها هذا الكتاب ، فأكاد أقول
إنه لولاها لما بقى المؤلف فى قيد الحياة فى أثناء كتابة الكتاب .
ومن ثم أعرب لها عن شكرى العميق على حبها ومرافقتها إياى
ووجودها الملهم .

أ.و.س.

نيويورك

أكتوبر ١٩٨٠

استدراك :

فى ٢٠ يناير ١٩٨١ غادر إيران ، آخر الأمر ، الأمريكيون
الاثنان والخمسون ، بعد أن ظلوا محتجزين فى سفارة الولايات
المتحدة لمدة ٤٤٤ يومًا . وبعد عدة أيام وصلوا إلى الولايات
المتحدة ، فقبلوا بترحاب شديد وبفرحة البلد الصديقة لعودتهم .
وغدت ”عودة المحتجزين“ ، كما أصبحت تسمى ، بمثابة
احتفال إعلامى دام أسبوعًا كاملاً ، فخصص التلفزيون ساعات
طويلة حلت محل برامج العادية ، أفعمها المعلقون بالأشجان ،
للتغطية المباشرة لمراحل نقل ”العائدين“ إلى الجزائر ، ثم إلى
ألمانيا ، ثم إلى قاعدة ’وست بوينت‘ الأمريكية ثم إلى واشنطن ،
وأخيراً إلى بلدانهم الأصلية . وأصدرت معظم الصحف والمجلات
الأسبوعية ملاحق خاصة بالعودة ، تتراوح بين التحليلات العلمية
لكيفية التوصل إلى الاتفاق النهائى بين إيران والولايات المتحدة وما

استتبعه ذلك ، وبين الاحتفالات بالبطولة الأمريكية والهمجية الإيرانية . وقد تخللت ذلك كله قصص شخصية عن محنة الرهائن ، مزركشة بأقلام الصحفيين المبرزين ، وبما بدا بمثابة العدد الكبير (المثير للفرع) من الأطباء النفسانيين الحريصين على شرح حقيقة ما كابده المحتجزون . أما إذا تجاوزت المناقشة الجادة للماضي والمستقبل 'الشرائط الصفراء' التي كانت ترمز للأسر في إيران ، فإن الإدارة الأمريكية الجديدة حددت 'نعمة' ما يقال ورسمت حدوده . فكان تحليل الماضي يتركز فيما إذا كان للولايات المتحدة أن تعقد ذلك الاتفاق مع إيران (وإذا ما كان عليها الالتزام به) وفي يوم ٣١ يناير ١٩٨١ نشرت صحيفة نيويورك هجوماً المتوقع على "الفدية" ، وانتقدت إدارة الرئيس كارتر بسبب استسلامها للإرهابيين ، ثم أدانت "الفكرة المشكوك في صحتها القانونية برمتها" أي مجرد التعامل مع مطالب الإيرانيين ، واستخدام وساطة الجزائر ، قائلة إنها بلد "طالت ممارسة أهله لاستضافة الإرهابيين وغسيل أموال كل فدية يحصلون عليها" ، وأما مناقشة المستقبل فقد وضع حدودها ما أعلنته إدارة الرئيس ريجان من حرب على الإرهاب ، قالت الصحيفة إن الأولوية الجديدة لسياسات الولايات المتحدة لا يجب أن تكون حقوق الإنسان بل محاربة الإرهاب ، ولو اقتضى الأمر مساندة بعض "نظم الحكم المعتدلة في قمعها للشعب" إذا كانت من حلفائنا .

وبناءً على ذلك كتب الصحفي بيتر س. ستيوارت في

كريستيان سيانس مونيتور يوم ٢٩ يناير ١٩٨١ يقول إنه من المحتمل أن يعقد الكونجرس جلسات لمناقشة "الشروط الواردة في الاتفاق الخاص بإطلاق سراح الرهائن . . . ومعاملة الرهائن . . . وإجراءات أمن السفارة . . . [وباعتبار ذلك ذيلًا عارضًا] مستقبل العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران". وكان مما يتفق تمامًا مع النطاق الضيق والمركز للمشكلات التي بحثتها أجهزة الإعلام أثناء الأزمة (وباستثناءات قليلة) أن أحدًا لم يتعمق في فحص ما تعنيه محنة الرهائن ، وما توحى به حول المستقبل ، وما يمكن أن نتعلمه منها. وذكرت صحيفة صنداي تايمز اللندنية يوم ٢٦ يناير أن الرئيس كارتر أشار على وزارة الخارجية الأمريكية ، قبل أن يترك منصبه ، فيما زعمت ، "بالتركيز في عملها الجماهيري كله على إثارة موجة سخط واستياء من الإيرانيين". . . وسواء كان هذا قد حدث في الواقع أم لا ، فإنه يقبل التصديق ، على الأقل ، خصوصًا لأننا لم نجد من يبدى اهتمامًا بإعادة تقييم التاريخ الطويل لتدخل أمريكا في إيران وغيرها من بلدان العالم الإسلامي بين المسؤولين الحكوميين ، وإن تعرضت لذلك قلة لا تكاد تذكر من كتاب الصحف والصحفيين . وكثر الحديث عن مرابطة بعض القوات بصفة دائمة في الشرق الأوسط ، وعلى نقيض ذلك ، وجدنا أنه عندما عُقد مؤتمر القمة الإسلامي في الطائف في الأسبوع الأخير من يناير ، كان نصيبه التجاهل شبه التام في أجهزة الإعلام الأمريكية .

وكانت الآراء تطرح قضية القصاص وتعلو فيها نبرات تأكيد
 قوة الولايات المتحدة مصحوبة بعزف سيمفونية محنة الرهائن
 وعودتهم المظفرة بتفصيلات شجية . وتحول الضحايا مباشرة إلى
 أبطال (الأمر الذى أغضب شتى هيئات قدامى المحاربين وأسرى
 الحرب السابقين - وهو أمر مفهوم) كما تحولوا إلى رموز للحرية،
 وتحول محتجزوهم إلى وحوش دون المستوى آدمى . وتحقيقاً
 لهذه الغاية قالت صحيفة نيويورك تايمز فى مقالها الافتتاحى يوم
 ٢٢ يناير ”فلنعرب عن مشاعر الغضب والسخط فى هذه الساعات
 الأولى من إطلاق سراحهم“ وبعد أيام تأمل فيها المحررون الموقف
 جاءت الصحيفة يوم ٢٨ يناير بالأسئلة التالية : ”ما الذى كان
 ينبغى أن نفعله ؟ إن بث الألغام فى المرافئ أو إنزال قوات مشاة
 البحرية ، أو إلقاء بعض القنابل ، قد ييث الخوف فى قلوب
 الأعداء العقلاء ، ولكن هل كانت إيران ، وهل إيران الآن ،
 عاقلة ؟“ لا شك ، كما قال فريد هاليداي فى صحيفة لوس
 أنجيليس تايمز يوم ٢٥ يناير ، أن إيران كانت تزخر بما يمكن توجيه
 الانتقاد إليه ، بعد فشل الحماس الدينى والغليان الثورى المتواصل
 فى إيجاد دولة حديثة قادرة على اتخاذ القرارات اليومية الكفيلة بأن
 تعود بالفائدة على الشعب كله ، كما كانت إيران تعاني من العزلة
 الدولية والتعرض للأخطار ، كما كان من الواضح ، دون شك ،
 أن الطلاب الذين احتلوا السفارة لم يلقوا فى معاملة أسراهم .
 ولكن أحداً لم يقل ، حتى المحتجزون الاثنان والخمسون ، إنهم

قد تعرضوا للتعذيب أو المعاملة الوحشية المنتظمة ، وهو ما تجلّى في نص الأقوال التي أدلوا بها في المؤتمر الصحفي الذي عُقد في قاعدة وست بوينت (انظر صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٨ يناير) حيث تقول إليزابيث سويغت بصراحة تامة إن مجلة نيوزويك كذبت فيما روته عنها ، واخترعت قصة عن التعذيب (ضخمتها أجهزة الإعلام إلى حد بعيد) دون أن يكون لها أساس تستند إليه في الواقع .

وهكذا أدت عودة المحتجزين إلى ”الترخيص“ بالانتقال المفاجئ من تجربة محددة - مضيئة ومحزنة وطويلة الأمد بصورة مريرة - إلى التعميمات الشاسعة عن إيران وعن الإسلام في أجهزة الإعلام وفي الثقافة بصفة عامة . وهكذا ، وبتعبير آخر ، محا الإعلاميون ببساطة معالم القوى السياسية المحركة في باطن هذه التجربة التاريخية المعقدة والمتشابكة تحقيقًا لحالة غريبة من فقدان الذاكرة ، فإذا بنا نعود إلى المبادئ الأساسية القديمة ، إذ قال بوب إنجل في صحيفة أتلانتا كونستيتيوشن يوم ٢٣ يناير إن الإيرانيين لا يزيدون عن كونهم ”مخبولين أصوليين“ ، وقالت كلير ستيرلينج في واشنطن بوست يوم ٢٣ يناير إن قصة إيران من معالم ’ عقد الخوف الأول‘ أي شن الإرهابيين الحرب على الحضارة . وقال بيل جرين في الصفحة نفسها من واشنطن بوست إن ”البشاعة الإيرانية“ قد تؤدي إلى أن تتحول ”حرية الصحافة“ في تغطية أنباء إيران ”إلى سلاح موجه مباشرة إلى قلب القومية الأمريكية

وكرامة أمريكا“ ، وقد عاد جرّين بعد قليل إلى التلّيف من حدة هذا الجمع الغريب بين التعبير عن الثقة والقلق حين تساءل إذا ما كانت الصحافة قد ”ساعدتنا“ فى تفهم ”ثورة الإيرانيين“ ، وهو السؤال الذى أجاب عنه بسهولة مارتن كوندريك فى وول ستريت جورنال بتاريخ ٢٠ يناير إذ كتب يقول ”إن التلفزيون الأمريكى {باستثناءات قليلة} عالج الأزمة الإيرانية معالجته ”لعرض للشواذ الذين يضمنون من يضربون أنفسهم ويلوّحون بقبضاتهم فى الهواء، أو معالجته للمسلسلات الدرامية التلفزيونية“ .

ومع ذلك فقد تميز عدد من الصحفيين بتأملاتهم الصادقة مثل هـ. د. س. جرينواى الذى أقر فى صحيفة بوسطن جلوب يوم ٢١ يناير بأن ”مصالح الولايات المتحدة قد تضررت من جراء تسلط أزمة الرهائن على العقل الأمريكى ، دون غيرها من القضايا الملحة“ ، لكنه استطاع أن يصل إلى نتيجة واضحة وهى أن ”حقائق التعددية فى عالم اليوم لن تتغير ، وأن الإدارة الجديدة سوف تلتزم بالحدود العملية للقوة فى أواخر القرن العشرين“ . وفى العدد نفسه من هذه الصحيفة كتب ستيفن إرلانجر مقالاً يمتدح فيه الرئيس كارتر لأنه نجح فى نزع فتيل الأزمة ومن ثم فى أن جعل المناظرة أقدر على ”إيجاد المزيد من التعقل وتقليل الشحنة الانفعالية“ . أما صحيفة نيويورك بيسلوك فقد أنحت باللائمة من ناحيتها (٣١ يناير) على صحيفة ”الجلوب المتصالحة دوماً مع الواقع“ أو قل إنها قالت ، بعبارة أخرى ، إن أفضل سبل التعامل

مع إيران هو اعتبارها انحرافاً في مسيرة بناء القوة الأمريكية ومحاربة الشيوعية . بل إن هذا الاتجاه الهجومي في جوهره قد وجد من يرقى به إلى مصاف الأيديولوجية شبه الرسمية لأمريكا . إذ كتب روبرت و. تاكر مقالاً بعنوان "أغراض القوة الأمريكية" في مجلة فورين أفيرز (شتاء ١٩٨٠ - ١٩٨١) يقول فيه إنه يسير في خط جديد ، يقع ما بين دعاة "النهضة الأمريكية" ودعاة "الانعزالية" . أما فيما يتصل بالخليج العربي وأمريكا الوسطى فيقترح اعتماد سياسة التدخل الصريح ، لأن الولايات المتحدة لا تستطيع أن "تسمح" بأيّ تغيير في النظام الداخلي لكل من هاتين المنطقتين أو بانتشار النفوذ السوفييتي . وفي أي حال من هذين ، لا بد أن تتولى الولايات المتحدة بنفسها البت فيما كان التغيير مما يُسمح أو لا يسمح به . كما اقترح أحد الزملاء الذين يشاركونه نفس التفكير ، وهو الأستاذ ريتشارد بايس من جامعة هارفارد ، أن تقسم الولايات المتحدة العالم إلى معسكرين بسيطين : الأمم الموالية للشيوعية ، والأمم المعادية للشيوعية .

وإذا كانت العودة إلى الحرب الباردة تتضمن على أحد مستوياتها ، فيما يبدو ، الإلحاح الجديد على القوة الذاتية ، فلقد أدت أيضاً إلى تشجيع ما برز من خداع النفس . وأما الأعداء فيضمون أي شخص يسأل الغرب النظر في ماضيه ، لا بغرض الإحساس بالذنب بل من أجل الوعي بذاته ، وأمثال هؤلاء لا بد من تجاهلهم وحسب . وقد وقعت حادثة رمزية بالغة الدلالة على

ذلك أثناء المؤتمر الصحفي الذي عُقد في قاعدة 'وست بوينت' ،
 إذ قال أحد الحاضرين "إن حكومة الولايات المتحدة بلغت ذروة
 النفاق عندما تحدثت عن التعذيب" بعد أن سمحت وتغاضت عن
 تشويه أجسام الإيرانيين في ظل حكم الشاه السابق . وهنا قال
 بروس لينجن ، القائم بالأعمال في السفارة الأمريكية في طهران ،
 ويعتبر أعلى الدبلوماسيين الأمريكيين منصباً في إيران ، إنه لم
 يسمع السؤال ، بل زعم ذلك مرتين ، ثم انتقل بسرعة إلى
 الحديث عن الموضوع الأنسب والأقرب إلى قلبه وهو الوحشية
 الإيرانية والبراءة الأمريكية .

ولم يتساءل أحد ، لا من الخبراء أو الإعلاميين أو من
 المسؤولين الحكوميين ، عما كان عساه أن يحدث لو خصصوا ولو
 جانباً ضئيلاً من الوقت الذي أنفقوه في عزل وتضخيم وتغطية
 حادث الاستيلاء غير المشروع على السفارة وعودة المحتجزين ، في
 فضح ما شهدته عهد الشاه السابق من ظلم ومن وحشية . ألم
 يضع أحد حدوداً لاستخدام جهاز جمع المعلومات الشاسع في
 إعلام الجمهور الذي أصابه القلق ، وله ما يبرره فعلاً ، بما كان
 يجري في الحقيقة داخل إيران ؟ وهل انحصرت البدائل حتماً في
 إثارة المشاعر الوطنية أو زيادة إشعال ذلك اللون من الغضب
 الجماعي من جنون إيران ؟

ليست هذه أسئلة فارغة المضمون ، بعد أن انتهت أحداث
 هذه الواقعة التي بالغوا في تضخيمها مع الأسف . وسوف يكون

من المفيد ، ومن المطلوب من الناحية العملية للولايات المتحدة
بخاصة وللغرب بصفة عامة ، أن نتفهم التغيير في تجمعات القوى
في السياسة العالمية : هل يظل "الإسلام" محصوراً أو مقصوراً
على دور المورد الإرهابي للنفط ؟ هل تركز الصحف والتحقيقات
على "من أضاع علينا إيران" أم تناقش وتنطق وقتاً ما في تأملٍ
أجدي وأنفع لموضوعات أخرى أكثر ملاءمة للمجتمع الدولي
والتنمية السلمية ؟

ولقد وجدنا ما يدلنا على قدرة أجهزة الإعلام ، مثلاً ، على
تحمل مسؤوليتها وبذل طاقتها الهائلة في الإعلام الجماهيري حين
شهدنا البرنامج الخاص الذي بثته شبكة إيه . بي . سي . واستمر
ثلاث ساعات عن "المفاوضات السرية" يومي ٢٢ و ٢٨ يناير
١٩٨١ . ففي إطار الكشف عن شتى الأساليب التي استخدمت
لتحرير الرهائن ، أمار البرنامج اللثام عن قدر هائل من المعلومات
التي لم تكن نحيط بها ، وكان أشدها دلالة تلك اللحظات التي
أسقط البرنامج الضوء فيها ، فجأة ، على بعض المواقف العميقة
الراسخة في اللاوعي .

ومن بين هذه اللحظات اللحظة التي وصف فيها كريستيان
بورجيه مقابله في أواخر مارس ١٩٨٠ للرئيس جيمي كارتر
 واجتماعه به في البيت الأبيض . وكان بورجيه محامياً فرنسياً
يرتبط ببعض الروابط مع الإيرانيين ، وقد عمل من ثم وسيطاً بين
الولايات المتحدة وإيران .

وكان قد جاء إلى واشنطن لأن الشاه المخلوع رحل فجأة إلى مصر ، رغم اتخاذ الترتيبات اللازمة مع الحكومة الإيرانية للقبض عليه ، وهكذا عاد الجميع إلى نقطة الصفر . يقول بورجيه :

”مرت لحظة تحدث فيها كارترا عن الرهائن قائلاً : هؤلاء أمريكيون كما تعرف . وهم أبرياء . وقلت له : سيدى الرئيس : أفهم ما تقوله عن براءتهم لكننى أرى أن عليك أن تفهم أنهم ليسوا أبرياء فى نظر الإيرانيين . وحتى لو لم يكن أحد منهم قد ارتكب بنفسه فعلاً ما ، فليسوا أبرياء لأنهم دبلوماسيون ، يمثلون بلدًا فعلًا أشياء كثيرة فى إيران .

”يجب أن تفهم أن الاحتجاز ليس موجهاً إليهم بصفتهم الشخصية . تستطيع أن تدرك ذلك بطبيعة الحال . ولم يمسه أحد بأى أذى ، ولم يعتد عليهم أحد . ولم يحاول أحد قتلهم . يجب أن تفهم أن الاحتجاز رمز ، يجب أن نضع هذا الأمر على مستوى الرموز فى تفكيرنا .

نص الحديث المذاع قدمته مع الشكر فيرونيكا بولارد من شبكة إيه . بى . سى نيويورك

والواقع ، فيما يبدو ، أن كارترا كان ينظر إلى الاستيلاء على السفارة نظرتة إلى العمل الرمزي ، ولكنه كان يختلف عن المحامى الفرنسى فى الإطار الفكرى الذى يضعه فيه . إذ كان يرى أن

جميع الأمريكيين - تعريفاً - أبرياء وأنهم يعيشون ، من زاوية ما ، خارج التاريخ . وقد قال في مناسبة أخرى إن شكاوى إيران من الولايات المتحدة تعتبر تاريخاً عفى عليه الزمن ، ولا يهم الآن سوى أن الإيرانيين إرهابيون ، وربما كانوا على مر الدهر أمة إرهابية بالتيّة والمقصد إن لم يكن بالفعل ، وأضاف قائلاً إن كل من يكره أميركا ويحتجز رعاياها رجل خطر مريض ، تجاوز العقلانية ، وتجاوز الإنسانية ، وتجاوز دماء الخلق البسيطة .

لم يكن كارتر يستطيع أن يربط بين ما يقوله بعض الأجانب عن مساندة الولايات المتحدة التي طال أمدها للحكام المستبدين في بعض البلدان ، وبين ما يحدث للأمريكيين المحتجزين دون وجه حق في طهران ، وعجزه عن هذا الربط من الأعراض البارزة لما نتحدث عنه . فَمَهْمَا يبلغ من معارضتنا الشاملة لاحتجاز الرهائن ، وفرحتنا بإطلاق سراحهم وعودتهم ، فلا نستطيع تجاهل الدروس المفزعة المستفادة مما يبدو أنه اتجاه رسمي وقومى لتناسى بعض حقائق الواقع ، فنحن نعلم أن جميع العلاقات فيما بين الناس والأمم تضم طرفين ، وأنه لا يوجد على الإطلاق ما يوجب "علينا" أن نحب أو أن نوافق "عليهم" ، ولكن يجب علينا على الأقل أن نتبين (أ) "أنهم" موجودون ، و(ب) أن رؤيتهم لنا تجمع بين ما "نحن" عليه (من وجهة نظرهم) وبين سائر ما أضافته إلى صورتنا خبرتهم في التعامل معنا وما عرفوه عنا . وليست القضية إذن قضية براءة أو ذنب ، ولا هي مسألة وطنية وخيانة ، فلا يسيطر أحد الطرفين على الواقع سيطرة كاملة تسمح

له بتجاهل الطرف الآخر . هذا إلا إذا اعتقدنا ، بطبيعة الحال ، وباعتبارنا أمريكيين ، أنه إذا كان الطرف الآخر مُذنبًا بجوهر وجوده ، فلا بد أن نكون أبرياء .

ولننظر الآن في هذه الوثيقة المفيدة التي قدمتها أجهزة الإعلام، وهي البرقية السرية التي أرسلها بروس لينجن من طهران إلى سيروس فانس وزير الخارجية يوم ١٣ أغسطس ١٩٧٩ ، فهي وثيقة تتمشى تمامًا مع الموقف الذي اتخذته كارتر في أحاديثه مع بورجيه ، ونشرتها صحيفة نيويورك تايمز في صفحتين متقابلتين يوم ٢٧ يناير ١٩٨١ ، ربما للمساعدة في تركيز انتباه الأمة على طبيعة الإيرانيين الحققة ، وربما باعتبارها هامشًا أو حاشية ساخرة على الأزمة التي انفجرت قبل قليل . ولكن رسالة لينجن ليست وصفًا علميًا ”للفنسية الفارسية“ التي يناقشها ، رغم تظاهر المؤلف بالموضوعية الهادئة ومعرفته الفياضة بالثقافة ”الفارسية“ ، بل يُعتبر نصُّ البرقية بيانًا أيديولوجيًا يهدف ، في رأى ، إلى تحويل بلاد ”فارس“ إلى جوهر لازمني مثير للقلق الحاد ، ويغلى من ثمَّ من الشرعة الأخلاقية الفائقة والصحة النفسية القومية للطرف الأمريكي في المفاوضات . وهكذا فكل مقولة عن بلاد ”فارس“ تضيف أدلة إدانة إلى الصورة وتقدم الدرع اللازم لحماية أمريكا من أى فحص أو تحليل لموقفها .

ويتحقق هذا التعامى لغويًا بأسلوبين جديرين بأن ننعم النظر في كل منهما . الأول هو حذف التاريخ أو استبعاده من جانب

واحد أى من جانب أمريكا فإذا بالكاتب وقد أفلح عن الحديث عن "الآثار الناجمة عن الثورة الإيرانية" وأخذ يتحدث بدلاً من ذلك عن "الخصائص النفسية والثقافية . . . الثابتة نسبياً" والتي تتسم بها "النفسية الفارسية" . وهكذا تحولت إيران الحديثة إلى بلاد فارس غير المحددة بزمن . فإذا اتبعنا هذا المنهج غير العلمى أصبح الإيطالى يشار إليه بتعبير "داجو" (أى أسمر اللون) واليهودى بتعبير "يديش" (أى يهودى ألماني) والأسود بتعبير "زنجى" وهكذا . (وهى ألفاظ التحقير التى يستخدمها صبيان الشوارع فى مشاجراتهم ، فهل تراهم أشد صراحة من الدبلوماسى؟) والأسلوب الثانى هو أن لينجن لا يصور الشخصية القومية "الفارسية" إلا فى حدود ما يزعمه من توهم الإيرانيين للواقع (أى نتيجة للخيلاء المرضى) وهو جنون العظمة أو الاضطهاد) فهو لا يسلم بأن الإيرانيين قد شعروا فى الواقع بالخيانة والمعاناة ، بل ينكر عليهم ذلك ، كما ينكر عليهم الحق فى تكوين رأى خاص عن الولايات المتحدة استناداً إلى ما يرون أن الولايات المتحدة قد قامت به فعلاً فى إيران ، وليس معنى هذا فى رأيه أن الولايات المتحدة لم تفعل شيئاً على الإطلاق فى إيران، لكنه يعنى فحسب أن من حقها أن تفعل ما تشاء ، دون شكاوى أو ردود أفعال لا صلة لها بالقضية من جانب الإيرانيين، فإن لينجن لا يرى ما يُعتدُّ به فى إيران إلا "النفسية الفارسية" التى تلغى جميع الحقائق الأخرى .

ويتفق معظم قراء رسالة لينجن ، وهو نفسه بالتأكيد لا ينكر أننا يجب ألا نختزل غيرنا من الناس أو من المجتمعات ونحصرهم في مثل ذلك الجوهر البسيط النمطي الذي أتى به ، ونحن لا نسمح اليوم للناس في الحياة العامة بمعاملة السود أو اليهود بهذا الأسلوب مثلما قد نسخر بل ونضحك حقاً من التصوير الإيراني لأمريكا في صورة الشيطان الأكبر ، فهذا كله أشد إغراقاً مما ينبغي في التبسيط والأيديولوجية والعنصرية ، ولكن الاختزال يحقق الغاية المنشودة فيما يتعلق بهذا العدو تحديداً ، أى إيران التي يشير إليها باسم بلاد الفُرس ، تماماً مثلما فعل الكاتب مارتن بيريتز في صحيفة نيوريبيك إذ نشر صفحة كاملة من النثر الذي ينضح بالعنصرية الصريحة (٧ فبراير ١٩٨١) كتبها كاتب انجليزي في القرن السابع عشر عن ”الأتراك“ وقال مارتن بيريتز إنها قطعة ”كلاسيكية“ تفيد دارسى ثقافة الشرق الأوسط ، ثم أردف قائلاً إنها تدلنا على طرائق سلوك المسلمين . ونحن نتساءل ماذا يكون رد فعل بيريتز لو نشر أحدهم صفحة من نثر القرن السابع عشر عن ”اليهود“ وقال إنها مرشد يدلنا على طرائق السلوك ”اليهودي“ . والسؤال هو ما الهدف من نشر أمثال هذه الوثائق (رسالة لينجن أو ’صفحة‘ بيريتز) ما دامت لا تعيننا ، كما سوف أشرح ، على أن نحيط بأى شئ عن الإسلام أو إيران ، ولا تساعدنا - في سياق التوتر الناشئ بين الولايات المتحدة وإيران بعد الثورة - في تحديد ما يمكن للغرب أن يفعله هناك .

أما حجة لينجن فتقول إنه مهما يحدث "فالفرس مبالون" إلى مقاومة "المفهوم العقلاني نفسه {من وجهة النظر الغربية} لعملية التفاوض" أى إننا نستطيع أن نكون عقلانيين لكن الفرس لا يستطيعون . لماذا ؟ لأنهم فى رأيه يغلبون أنانيتهم على كل شىء ، والواقع فى نظرهم شر ، وعقلية "السوق الشرقية" (البازار) تفضل تحقيق المزية الحاضرة على الكسب فى الأجل الطويل ، والله القدير (سبحانه) عند المسلمين يجعل من المحال عليهم أن يفهموا قانون العلة والمعلول ، واللغة لديهم غير مرتبطة بالواقع . وباختصار - وبناءً على هذه الدروس الخمسة التى يستخلصها من تحليله - ينتهى لينجن إلى القول بأن "الفارسي" مفاوض لا يعتمد عليه ، لأنه لا يشعر بوجود "الطرف الآخر" ، ولا يتمتع بالقدرة على الوثوق به أو حسن الظن به لا بل ولا بقوة الشخصية اللازمة للوفاء بما وعد به بلسانه .

وترجع رشاقة هذه الفكرة المتواضعة وجاذبيتها إلى أن كل ما جاء بها منسوباً إلى "الفارسي" أو المسلم ، دون أية أدلة على الإطلاق ، يمكن تطبيقه بحذايره على "الأمريكي" ، ذلك المؤلف شبه الخيالي وغير المسمى والمستتر خلف الرسالة . ومن غير الأمريكي ينكر التاريخ والواقع عندما يزعم ، من طرف واحد ، أن هذين لا يعنيان أى شىء "للفارسي" ؟ ولتلعب الآن إذا أردت هذه اللعبة المنزلية : اذكر خصيصة رئيسية ثقافية واجتماعية فى

'اليهودية - المسيحية' مرادفة لإحدى الخصائص التي ينسبها لينجن إلى "الفارسي". الأناثية الغلابة؟ جان چاك روسو. تصوير الواقع في صورة الشرير؟ كافكا. الله القادر على كل شيء؟ العهد القديم والعهد الجديد. عدم سريان منطق العلة والمعلول؟ بيكيت. عقلية البازار؟ بورصة نيويورك. الخلط بين الألفاظ والواقع؟ الفيلسوفان أوستن وسيرل. ولكن يندر أن يقوم أحد بتكوين الصورة التي تمثل جوهر الغرب اقتصاراً على اقتباس ما قاله كريستوفر لاش عن النرجسية، أو كلمات واعظ مستمسك بحرفية العقيدة، أو محاورة كراتيلوس لأفلاطون، أو إعلان مسجوع منغم أو إعلانين، أو (إذا أراد تبيان عجز الغرب عن الإيمان بوجود واقع ثابت خير) كتاب مسخ الكائنات للشاعر أوفيد مع زركشته بآيات مختارة من سفر اللاويين في الكتاب المقدس.

إن رسالة لينجن تقوم بوظيفة معادلة لمثل هذه الصورة التي رسمناها، وكان من المحتمل ألا تزيد الرسالة لو وردت في سياق آخر عن صورة كاريكاتورية في أفضل الحالات، وأما في أسوأها فكان يمكن اعتبارها هجوماً فقطً محدود الضرر، بل وليست ذات تأثير يذكر باعتبارها جزءاً من الحرب النفسية، لأنها تكشف من نقاط ضعف الكاتب أكثر مما تكشف عنه من نقاط ضعف خصمه، إذ تُبين، على سبيل المثال، أن المؤلف يساوره قلق شديد إزاء

المقدمة ■

نظرائه ، وأنه لا يستطيع أن يرى الآخرين إلا مرايا تعكس له صورة ذاته . ترى أين ذهبت قدرته على تفهم وجهة النظر الإيرانية ، أو حتى الثورة الإسلامية نفسها وهي التي نفترض أنها ما اندلعت إلا نتيجة مباشرة للاستبداد الفارسي الذي لا يطاق ولضرورة الإطاحة به ؟

وأما عن حُسنِ الظَّن والثقة في عقلانية عملية التفاوض ، فحتى لو تناسينا أو أغفلنا ذكر أحداث عام ١٩٥٣ ، فلنا أن نقول الكثير عن محاولة الانقلاب التي قام بها الجيش لإجهاض الثورة ، والتي لقيت التشجيع المباشر من الجنرال الأمريكي هايزر في أواخر يناير ١٩٧٩ ، وكذلك عما فعلته مصارف أمريكية كثيرة (وهي التي عادةً ما كانت تطيع الحكومة فتتحايل على القواعد لإرضاء الشاه) فإذا بها تبدى استعدادها في عام ١٩٧٩ لإلغاء عقود القروض الإيرانية المبرمة عام ١٩٧٧ محتجة بأن إيران لم تدفع الفوائد في مواعيدها ، وإن كان محرر صحيفة لوموند الفرنسية إريك رولو قد ذكر في ٢٥ - ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ أنه شاهد بعينه الدليل على أن إيران قد دفعت الفوائد قبل حلول مواعيدها . ولا غرو إذن أن ينظر ”الفارسي“ إلى نظيره باعتباره غريباً ، فهو ولا شك غريب ، وغريم غير مطمئن لذاته ، فذلك ما يقوله لبنجن صراحة .

ولكن فلنقل إن القضية ليست قضية إنصاف بل قضية دقة :
 إن ممثل الولايات المتحدة في المنطقة يسدى المشورة إلى واشنطن ،
 فما الذى تراه يستند إليه ؟ حفنة من القوالب اللفظية المأثورة عن
 المستشرقين والتي كان يمكن أن تكون تكراراً حرفياً لما قاله السير
 ألفريد ليال في وصف العقل الشرقى ، أو من حديث اللورد
 كرومر عن تعامله مع أبناء البلد فى مصر . وإذا كان إبراهيم
 يازدى ، وزير خارجية إيران آنذاك ، يرفض فى رأى لينجن ،
 الإقرار بأن "تكون للسلوك الإيرانى عواقبه على صورة إيران فى
 الولايات المتحدة" فمن ذا الذى تراه على استعداد ، من بين
 صانعى القرار الأمريكىين ، للإقرار مقدماً بأن للسلوك الأمريكى
 عواقبه على صورة الولايات المتحدة فى إيران ؟ ولماذا إذن سمحنا
 للشاه بدخول أمريكا ؟ أم ترانا نشارك أبناء "بلاد فارس" ذلك
 النفور من تحمل الإنسان مسئوليته عما يفعل ؟

إن رسالة لينجن ثمرة من ثمار القوة الجاهلة الغبية ، وهى
 بالتأكيد لا تكاد تساهم بشئ يذكر فى تفهمنا للمجتمعات
 الأخرى . فإذا كانت الرسالة نموذجاً لسلوب مواجهتنا للعالم ،
 فإنها لا توحى بأية ثقة ، وأما إذا كانت صورة يرسمها الأمريكى
 لأمريكا فهى تسيء إلينا إساءة صريحة . ما فائدتها إذن ؟ إنها تبين
 لنا كيف يقوم ممثلو الولايات المتحدة ، ومعهم جانب كبير من
 المؤسسة الاستشرافية ، بخلق واقع وهمى لا يتفق مع عالمنا ، ولا

مع عالم إيران . أما إذا عَجَزَت الرسالة عن إيضاح حكمة التخلص إلى الأبد من هذه الصور الشائنة للغير ، فلسوف يواجه الأمريكيون المزيد من المتاعب الدولية ، ويعرضون براءتهم ، مع الأسف ، لتحمل إساءة جديدة دون نفع يرجى .

ولنُسلّم إذن بأن إيران والولايات المتحدة قد تعرضتا لمعاناة مريرة ، ولنُسلّم أيضاً بأن الاستيلاء على السفارة حادث يدل على وقوع الإيرانيين برمتهم في هوة الفوضى العقيم والرجعية . ولكننا مع ذلك لا نحتاج إلى استخلاص حكمة ناقصة من استقراء التاريخ القريب ، فالواقع يقول إن التغيير يجرى على قدم وساق في عالم ”الإسلام“ مثلما يجرى في الغرب ، فإذا اختلفت الأساليب وسرعة التغيير ، فإن التشابه قائم بين بعض الأخطار وبعض مصادر القلق هنا وهناك . وصيحات النداء التي تلتف حولها الجماهير المؤمنة بها ، مثل ”الإسلام“ هناك و”الغرب“ هنا (أو ”أمريكا“) مصدرُ حفزٍ للهمم أكثر مما تُعتبر دعوةٌ للتبصّر والتعمق ، وقد ينشأ عن تشويه صورة الحقائق الواقعة ردُّ فعلٍ مساوٍ له في المقدار ومضادُّ له في الاتجاه ، فإذا بمصطلحي ”الإسلام“ و”الغرب“ وقد أحالا التحليل إلى مسألة خلافية ، وأحالا الخبرة العملية إلى شطحات خيال . مطلبى هو الاحترام الواجب للتفاصيل الملموسة للخبرة البشرية ، والتفهم النابع من النظر إلى ”الآخر“ نظرة ود وتراحم ؛ والمعرفة التي تُكتسب وتُشر بأمانة أخلاقية وفكرية ؛ فهذه بالتأكيد أهدافٌ أفضل وإن لم

تكن أيسر تحقيقاً في الوقت الحاضر من المواجهة والعداء الذي يختزل الخصوم ويحقّرهم . وحبذا لو استطعنا في سبيل ذلك أن نتخلص نهائياً من رواسب الكراهية القديمة والعناوين العامة التي تؤذى بعُموميّتها الإحساس مثل ”المسلم“ أو ”الفارسي“ أو ”التركي“ أو ”العربي“ أو ”الغربي“ .

١٠٠٠س.

٩ فبراير ١٩٨١

نيويورك

الفصل

الأول

1

تصوير الإسلام

فى الأخبار

أولاً: الإسلام والغرب :

عندما أرادت شركة إديسون المتحدة بنيويورك (شركة كون إيد) أن تُقنّع الأمريكيين بضرورة توفير مصادر بديلة للطاقة ، أذاعت إعلاناً تليفزيونياً مثيراً فى صيف عام ١٩٨٠ ، يتضمن لقطات متحركة قديمة لبعض الشخصيات المعروفة فى منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) - مثل الدكتور أحمد زكى يمانى ، والعقيد معمر القذافى ، وبعض الشخصيات العربية التى تلبس الزى العربى وإن تكن أقل شهرة - ويمزج بينها ، بالتناوب ، وبين بعض اللقطات الثابتة الأخرى، إلى جانب لقطات لشخصيات أخرى ارتبطت أسماؤها بالنفط والإسلام مثل الخومينى ، وعرفات ، وحافظ الأسد . ولم يشر الإعلان إلى أى من هذه الشخصيات بأسمائها ، ولكن المذيع قال بصوت المنذر المحذّر إن

”هؤلاء الرجال“ يتحكمون فى مصادر النفط الأمريكية . وكان صوت المذيع القادم من الخلفية ذا نبرات وقورة ، ولم يفصح عن أسماء ”هؤلاء الرجال“ ولا عن البلدان التى ينتمون إليها ، بل ترك المشاهدين يشعرون بأن هذه الكوكبة من الأشرار الذكور قد أوقعوا الأمريكيين فى قبضة من يتلذذ بتعذيبهم دوغما ضابط أو رابط . وكان يكفى أن يظهر ”هؤلاء الرجال“ على النحو الذى ظهروا به فى الصحف والتلفزيون حتى يعتري الأمريكيين مزيج من مشاعر الغضب والاستياء والخوف . وكانت هذه المشاعر هى التى عمدت شركة ’كون إيد‘ إلى إثارتها واستغلالها فوراً لأسباب تجارية محلية ، تماماً كما حدث قبل عام واحد ، عندما ألح ستىوارت أيزنستات ، مستشار الرئيس كارتر للسياسات المحلية ، على الرئيس أن ”يتخذ خطوات قوية لحشد الأمة

والالتفاف حول أزمة حقيقية وتحديد عدو واضح لنا - منظمة أوبك“ .

ويتضمن إعلان شركة 'كون إيد' عنصرين يشكلان معاً موضوع هذا الكتاب . الأول هو ، بطبيعة الحال ، الإسلام ، أو بعبارة أخرى صورة الإسلام في الغرب بصفة عامة ، وفي الولايات المتحدة بصفة خاصة . والثاني هو استخدام هذه الصورة في الغرب وخصوصاً في الولايات المتحدة . وكما سوف نرى ، يرتبط العنصران بعضهما البعض ارتباطاً يكشف لنا في النهاية عن الكثير في الغرب وفي الولايات المتحدة ، مثلما يكشف لنا ، بوسائل أقل وضوحاً وطرافة ، عن بعض جوانب الإسلام . ولكن لننظر في تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب المسيحي قبل أن نتقل إلى فحص المرحلة الراهنة .

منذ أواخر القرن الثامن عشر ، على الأقل ، وحتى يومنا هذا ، وردود الأفعال الغربية الحديثة إزاء الإسلام يسيطر عليها نمط تفكير تعرض للتبسيط بصورة جذرية ما زلنا نستطيع أن نطلق عليها صفة التفكير الاستشراقي . والأساس العام للفكر الاستشراقي يقوم على هيكل جغرافي ينم عن خيال خصب وإن كان يتسم بالاستقطاب الجوهري ، إذ يقسم العالم إلى قسمين غير متساويين ، أما القسم الأكبر "المختلف" فاسمه الشرق ، وأما القسم الآخر ، الذي يُعرف أيضاً باسم "عالمنا" فهو الغرب^(١) . ودائماً ما تنشأ أمثال هذه التقسيمات عندما ينزع أحد المجتمعات

(أو إحدى الثقافات) إلى تأمل مجتمع آخر مختلف أو ثقافة أخرى مختلفة . لكن الطريف هنا هو أن الشرق ، حتى مع اعتباره وباستمرار أدنى مرتبة من الغرب ، دائماً ما تمتع بما أضفاه الغربيون عليه من تفوق على الغرب فى الحجم وفى القوة الهائلة الكامنة فيه (والتي عادةً ما توصف بأنها هدامة) . ولما كان الإسلام يتنمى فى نظرهم دائماً إلى الشرق ، أصبح مصيره الخاص داخل هيكل الاستشراق العام هو أن ينظروا إليه فى أول الأمر كما لو كان وحدة متجانسة جامدة ، ثم ينظروا إليه بعد ذلك بمشاعر بالغة الخصوصية من العداء والخوف معاً . ولا شك أن لذلك أسبابه الدينية والنفسية والسياسية الكثيرة ، ولكن كل هذه الأسباب ترجع إلى إحساس الغرب بأن الإسلام لا يقتصر على كونه منافساً قوياً بل يمثل كذلك تحدياً حديث العهد للمسيحية .

كان الغربيون يعتقدون فى معظم فترات العصور الوسطى وفى إبان مطلع عصر النهضة فى أوروبا أن الإسلام دينٌ شيطانيٌّ يتضمن الردّة والتجديف والغموض^(٢) ولم يكن يعنيه أن المسلمين يعتبرون محمداً نبياً لا إلهاً ، وأما الذى كان يعنى المسيحيين فهو أن يصفوا محمداً بأنه نبيٌّ كاذب ، رجل يبذر بذور الشقاق ، ويحب الملاذ الحسية ، ومنافق وعميل للشيطان . ولكن هذه النظرة إلى محمد لم تكن تقوم على أسس العقيدة ، إن شئنا الدقة فى التعبير ، فالأحداث الواقعية فى العالم الحقيقى من حولهم جعلت من الإسلام قوة سياسية جبارة ، إذ استمرت الجيوش

والأساطيل البحرية الإسلامية العظمى على مدى قرون طويلة تهدد أوروبا ، وتدمر مواقعها المتقدمة ، وتستعمر أملاكها . وبدا لهم كأنما برزت في الشرق صورة أخرى للمسيحية ، أكثر شباباً ورجولة وطاقة ، فتسلحت بعلوم اليونان القدماء ، وتدعمت بعقيدة حربية بسيطة لا تعرف للخوف سبيلاً فانثنت تبغى هدم المسيحية . واستمر الخوف مما أطلق الغربيون عليه اسم ”الديانة المحمدية“ حتى بعد أن تعرض عالم الإسلام لفترة من التدهور ، وبدأت أوروبا عصر الرقي والنهضة ، ولما كان العالم الإسلامي أقرب إلى أوروبا من أي دين غير مسيحي آخر ، فقد أدت مجاورته لأوروبا في ذاتها إلى إثارة ذكريات غزواته لأوروبا وتذكيرها دائماً بقدرته الكامنة على إزعاج الغرب ، المرة بعد المرة . أما حضارات الشرق الكبرى الأخرى - ومن بينها الهند والصين - فيمكن اعتبارها منهزمة ونائية ومن ثم فهي ليست مصدر قلق مستمر ، وبدا لهم أن الإسلام وحده هو الذي لم يستسلم تماماً في أي يوم للغرب ، وعندما بدا أن العالم الإسلامي يوشك أن يكرر انتصاراته القديمة من جديد في أعقاب الارتفاع الكبير في أسعار النفط في أوائل السبعينيات ، سرى في جسد الغرب كله ما يشبه رجفة الرعب .

ثم جاء عام ١٩٧٨ لتحتل إيران قلب مسرح الأحداث وتتسبب في إحساس الأمريكيين بمشاعر متزايدة من القلق والتوتر . ولم يسبق لبلدان كثيرة تبعد هذه المسافة وتختلف ذلك الاختلاف

عن الولايات المتحدة أن شغلت الأمريكيين بمثل هذا العمق ، ولم يحدث من قبل أن أحس الأمريكيون ، فيما يبدو ، بمثل هذا الشلل ، إذ بدا أنهم لا يستطيعون أن يحولوا دون تتابع وقوع تلك الأحداث الدرامية المتوالية ، بل ولم يتمكنوا في غمار ذلك كله من نسيان أو تناسي إيران ، إذ كان ذلك البلد يمدُّ يده بتحدٍّ سافرٍ ، فيما يبدو ، وعلى مستويات كثيرة ، ليؤثر في حياتهم . فلقد كانت إيران من كبار موردي النفط في فترةٍ شحَّت فيها موارد الطاقة . وهي تقع في منطقة شاع اعتبارها غير مستقرة وذات أهمية استراتيجية حيوية ، وكانت حليفاً مُهمّاً ، لكنها فقدت نظامها الامبراطوري ، وجيشها ، وقيمتها في الحسابات العالمية التي وضعتها أمريكا في غضون عام واحد من الاضطرابات الثورية الصاخبة التي لم يسبق لها مثيل تقريباً ، وعلى مثل هذا النطاق الهائل ، منذ أكتوبر ١٩١٧ ، وكان النظام الجديد الذي وصف نفسه بالنظام الإسلامي ، ويتمتع بشعبية ويتسم بعداً للإمبريالية ، فيما يبدو ، يكافح حتى يخرج إلى الحياة . واستولت صورة آية الله الخميني واستولى حضوره على أجهزة الإعلام التي لم تستطع إيضاح شيء عنه ، سوى وصفه بأنه عنيد وقوي وغاضب أشد الغضب من الولايات المتحدة . وأخيراً ، كان من نتيجة دخول الشاه السابق إلى الولايات المتحدة يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٩ أن قامت مجموعة من الطلاب الإيرانيين باحتلال سفارة الولايات المتحدة في طهران يوم ٤ نوفمبر ، واحتجاز عدد كبير من

الرهائن الأمريكيين . وقد كادت الأزمة أن تنفجر وأنا أكتب هذا الكتاب .

ولكن ردود الفعل على أحداث إيران لم تقع في فراغ ، فراء تخوم الوعي الثقافي للجمهور كان يكمن الموقف الذي طال أمده تجاه الإسلام ، والعرب ، والشرق بصفة عامة ، وهو الذي كنت ولا أزال أطلق عليه صفة الاستشراق . فسواء قرأت رواية حديثة هلّل لها النقاد مثل رواية ”منحنى في النهر“ التي كتبها ف. س. نايپول ، ومثل رواية الضربة الرابعة التي كتبها جون أيدايك ، أو كتب التاريخ المدرسية ، أو القصص المرسومة بالكاريكاتير ، أو مسلسلات التلفزيون ، أو الأفلام أو الرسوم الكاريكاتورية، فسوف تجد التصوير الذي لا يختلف أبداً للإسلام، وتحس وجوده دون تغيير في كل مكان ، وترى أنه يستمد مادته من نفس الصورة القديمة التي بُنيتْها الزمن للإسلام ، ومن هنا جاءت الصورة الكاريكاتورية المتواترة للمسلمين باعتبارهم موردين للنفط ، وإرهابيين ، وأخيراً باعتبارهم جماهير غوغائية متعطشة للدم . وعلى العكس ، لم تفسح الثقافة الأمريكية بصفة عامة ، ولم يفسح الحديث عن غير الغربيين بصفة خاصة ، مساحة تذكر للحديث أو للتفكير ، ناهيك برسم صورة الإسلام أو أي شيء إسلامي بتعاطف وودٍّ . ومن المحتمل أنك إذا سألت أحداً أن يذكر اسم كاتب إسلامي يعرفه ، أن تلتقى معظم الإجابات حول خليل جبران (الذي لم يكن إسلامياً) . وأما

الخبراء الأكاديميون المتخصصون في الإسلام فقد دأبوا على تناول هذا الدين وشتى ثقافته في إطار أيديولوجي اخترعوه أو حددت الثقافة صورته ، فامتلاً بالانفعال ، وبالتعصب المعهود في الدفاع النفسى ، وأحياناً بالنفور . وهذا الإطار هو الذى يجعل تفهّم الإسلام مهمة بالغة الصعوبة . فإذا استندنا فى أحكامنا إلى الدراسات المعمّقة والأحاديث التى زخرت بها أجهزة الإعلام عن الثورة الإيرانية فى ربيع عام ١٩٧٩ ، فسوف نلمح الإتجاه إلى عدم تقبل الثورة الإيرانية إلّا باعتبارها هزيمةً للولايات المتحدة (وهو ما كانته الثورة من زاوية معينة وحسب ، بطبيعة الحال) أو انتصاراً للظلام على النور .

وقد لعب ف. س. نايبول دوراً طريفاً فى مجال المساعدة على توضيح هذا العداء العام للإسلام ، فقد أشار فى مقابلة صحفية نشرتها فى الآونة الأخيرة مجلة نيوزويك انترناشونال (١٨ أغسطس ١٩٨٠) إلى كتاب يكتبه عن "الإسلام" ، ثم قال ، دون أن يسأله أحد رأيه ، إن "الأصولية الإسلامية تفتقر إلى أى جوهر فكري، ومن ثم فلا بد أن تنهار" . لكنه لم يحدد الأصولية الإسلامية التى يعنيها ، ولا الجوهر الفكرى الذى يشير إليه ، وإن كان يقصد إيران دون شك ، وأيضاً - وبنفس الدرجة من الغموض - موجة العداء للإمبريالية من جانب الإسلام فى العالم الثالث فى الفترة التى تلت الحرب العالمية الثانية ، فالمعروف أن نايبول يضمّر كراهية مريرة إلى أقصى حد لهذه الموجة . ففى آخر

روايتين له ، وهما رجال حرب العصابات ومنحنى فى النهر ، يُشكك المؤلف فى الإسلام ؛ وفى إطار إدانة نايبول العامة للعالم الثالث (وهى الإدانة التى يجلبها القراء الغربيون الليبراليون) نجده يجمع بين الفساد والشر الكامن فى عدد من الحكام الذين يرسم لهم صوراً بشعة مضحكة ، وبين نهاية الاستعمار الأوروبى ، وبين الجهود المبذولة بعد زوال الاستعمار فى بناء المجتمعات الوطنية المحلية ، باعتبار هذه الظواهر دليلاً على الفشل الفكرى الشامل فى إفريقيا وآسيا . ويقول نايبول إن ”الإسلام“ يلعب دوراً كبيراً ، سواء فى الأسماء الإسلامية العائلية التى يتسمى بها رجال حرب العصابات فى جزر الهند الغربية ، وهو يرسم لهم صورة من يُرثى لحاله ، أو فى الآثار الباقية من تجارة الرقيق الإفريقية . وهكذا يتحول ”الإسلام“ عند نايبول وقرائه إلى عنوان يشمل كل ما يرفضه الإنسان من موقف العقلانية المتحضرة والغربية^(٣) .

إننا نشعر كأنما يصبح من المحال التمييز بين العاطفة الدينية المشوبة وبين الكفاح فى سبيل قضية عادلة وبين الضعف البشرى العادى وبين المنافسة السياسية وبين تاريخ الرجال والنساء والمجتمعات ، عندما يتناول الروائيون والصحفيون ، وواضعو السياسات ، و”الخبراء“ موضوع ”الإسلام“ أو الإسلام الذى نشهده الآن فى إيران وغيرها من مناطق العالم الإسلامى ، فمصطلح ”الإسلام“ لديهم يشمل ، فيما يبدو ، جميع جوانب

العالم الإسلامى الشاسع المتنوع ، واختزالها جميعاً فى جوهر خاص يضمن الشر ولا يعرف التفكير . ولا يمكن أن نجنى من ذلك، بدلاً من التحليل والتفهم ، إلا أشد أشكال المواجهة سذاجة بيننا وبينهم ، أى صيغة ”نحن“ فى مقابل ”هم“ ! وإذن فمهما يُقْلُ الإيرانيون أو المسلمون عن مفهومهم الخاص للعدالة ، أو عن تاريخ الظلم الذى تعرضوا له ، أو عن رؤيتهم لمجتمعاتهم، فسوف يبدو ذلك لا صلة له بالموضوع ؛ وأما ما يعنى الولايات المتحدة ، بدلاً من ذلك ، فهو ما تفعله ”الثورة الإسلامية“ الآن، وعدد الأشخاص الذين أصدرت المحاكم الثورية الحكم بإعدامهم ، وعدد الفظائع الغريبة التى أمر آية الله المذكور بارتكابها باسم الإسلام . ولم يحاول أحد بطبيعة الحال أن يوازى بين أى من ذلك وبين مذبحة جونز تاون ، أو اللوثة الجماهيرية الهدامة فى الحفل الغنائى الذى قدمه فريق ”هُو“ فى سنسيناتى ، أو الخراب الذى أحدثته المسيحية فى الهند الصينية، أو الثقافة الغربية أو الأمريكية بوجه عام. فمثل هذا التوازى يقتصر على ما يسمونه ”الإسلام“.

لماذا شهدنا كثيراً إذن قيامهم بضغوط شتى الأحداث السياسية والثقافية والاجتماعية بل والاقتصادية ، على تنوعها الهائل ، واختزالها بذلك الأسلوب الباقلوغى فى مصطلح ”الإسلام“ ؟ ترى ما الذى يتميز به ”الإسلام“ حتى يحدث ذلك الرد التلقائى السريع المنفلت من كل عقل ؟ ترى ما أوجه اختلاف ”الإسلام“

والعالم الإسلامى عند الغربيين عن بقية العالم الثالث مثلاً وعن الاتحاد السوفييتى ؟ هذه أسئلة أبعد ما تكون عن البساطة ، ولذلك فلا بد من تجزئة الإجابة عليها ، وتبيان عناصرها ووصف كل على حدة والتمييز فى تمهل بينها .

تشتهر الأسماء العامة التى يُقصد بها الدلالة على شرائح بالغة الضخامة والتعقيد من دنيا الواقع بالغموض ، على كراهيتنا له ، وبأنها فى الوقت نفسه محتومة . فإذا كان صحيحاً أن مصطلح ”الإسلام“ اسم عام يفتقر إلى الدقة ، إلى جانب ما يحمله من الشحنة الأيديولوجية ، فمن الصحيح كذلك أن مصطلحي ” الغرب “ و ”المسيحية“ من المصطلحات المشككة كذلك . ومع ذلك فالسبيل غير ميسر لنا لتجنب هذه الأسماء العامة ، ما دام المسلمون يتكلمون عن الإسلام ، والمسيحيون عن المسيحية ، والغربيون عن الغرب ، وما دام كل طرف يتكلم عن الأطراف الأخرى جميعاً بأساليب تبدو مقنعة ودقيقة . وأظن أنه من الأجدى الآن علينا ألا نحاول أن نقترح وسائل التفاف حول هذه الأسماء العامة ، بل أن نعترف بدايةً بوجودها وبأنها ظلت تستعمل ردهاً طويلاً من الزمن باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الثقافى لا باعتبارها تصنيفات موضوعية . وسوف أعود فى هذا الفصل بعد قليل إلى الحديث عنها باعتبارها تفسيرات وضعتها لنفسها المجتمعات التى تأخذ بتفسيرات معينة ، وهى التسمية التى سأضعها لها . وهكذا فإن علينا أن نذكر أن مصطلحات ”الإسلام“ و ”الغرب“ بل و ”المسيحية“ تقوم كل منها بوظيفتين

مختلفتين ، ويدل كل منها على معنيين اثنين على الأقل فى كل مرة يستخدم فيها المصطلح . فهى أولاً تنهض بوظيفة التعريف البسيطة ، ومثال ذلك قولنا إن الخومينى مسلم أو إن البابا يوحنا پولس الثانى مسيحى . فأمثال هذه الأقوال تحمل الحد الأدنى من الدلالة على ماهية الشئ فى مقابل الأشياء الأخرى جميعاً . وعلى هذا المستوى نستطيع التمييز بين البرتقالة والتفاحة (مثلما نميز بين المسلم والمسيحى) وإن كان ذلك لا يتعدى حدود معرفتنا أنهما فاكهتان مختلفتان ، تنمو كل منهما على شجرة مختلفة ، وهلم جراً .

وأما الوظيفة الثانية لهذه الأسماء العامة المتعددة فهى الدلالة على معانٍ أشد تعقيداً . فالحديث عن ”الإسلام“ فى الغرب اليوم يعنى الإشارة إلى الكثير من المساوئ التى ذكرتها . أضف إلى ذلك أنه من المحتمل أن يدل مصطلح ”الإسلام“ على شئ يعرفه المرء معرفة مباشرة أو موضوعية . ويصدق هذا القول على استعمالنا لمصطلح ”الغرب“ . ترى كم عدد الذين يستعملون هذه المصطلحات بغضب أو بثقة وهم يحيطون إحاطة مُحكمةً بجميع جوانب التقاليد الغربية ، أو الفقه الذنونى الإسلامى ، أو اللغات المستعملة فعلاً فى العالم الإسلامى ؟ الواضح أن عددهم بالغ الضآلة ، ولكن ذلك لا يمنع الناس من وضع الصفات المميزة ”للإسلام“ أو ”للغرب“ ، أو من الاعتقاد بأنهم يعرفون على وجه الدقة ما يتحدثون عنه .

وهذا هو ما يدعونا إلى أن نأخذ الأسماء العامة مأخذ الجد .
 فالمسلم يتحدث عن "الغرب" ، والأمريكي يتحدث عن "الإسلام" ، وكل منهما يرى وراء هذه التعميمات الهائلة تاريخًا طويلًا يُعِينُهُ وَيَعَوِّقُهُ في الوقت نفسه ، فإن لها طابعًا أيديولوجيًا يزخر بمشاعر مشبوبة جارفة ، كما إنها نجحت في البقاء بعد المرور بتجارب وخبرات كثيرة واستطاعت التكيف مع كل جديد من الأحداث والمعلومات وحقائق الواقع . ولقد اكتسب كل من مصطلحي "الإسلام" و"الغرب" حاليًا وجودًا حاضراً مُلِحاً وقوياً في كل مكان ، وعلينا أن نشير فوراً هنا إلى أن الطرفين اللذين يجرى تحريض أحدهما على الآخر دائماً ، فيما يبدو ، هما الغرب والإسلام لا المسيحية والإسلام . وأما السبب فيمكن في افتراض أن "الغرب" أكبر من المسيحية وأنه تخطى مرحلة الدين المسيحي ، وهو الدين الأساسي في الغرب ، وأن عالم الإسلام - على الرغم من تنوع مجتمعاته وتواريخه ولغاته - لا يزال غارقاً في الدين ، وفي الحياة البدائية والتخلف . والافتراض يعني إذن أن الغرب حديث الطابع ، وأكبر من مجموع أجزائه ، وحافل بالمتناقضات الثرية المثيرة ، ومع ذلك فهو دائماً ذو هوية ثقافية "غربية" ، وأما عالم الإسلام ، فهو لا يتجاوز مصطلح "الإسلام" ، ويقبل الاختزال في عدد محدود من الخصائص الثابتة رغم ما يبدو فيه من تناقضات وخبرات التنوع التي تبدو على السطح بالكثرة التي يتميز الغرب بها .

وهاك مثالا قريب العهد على ما أعنيه ، وهو مقال منشور في باب "استعراض أنباء الأسبوع" من صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ١٤ سبتمبر ١٩٨٠ . والمقال كتبه جون كيفنر وهو مراسل الصحيفة الكفاء في بيروت ، وموضوع المقال هو مدى تغلغل الاتحاد السوفييتي في العالم الإسلامي . وأما الفكرة التي يطرحها كيفنر فيدل عنوان المقال عليها بوضوح كاف ، فالعنوان هو "لا يزال التنافر قائما بين ماركس والمسجد" ، ولكن الجدير بالإشارة أنه يستخدم مصطلح "الإسلام" في إقامة رابطة مباشرة ومطلقة ، وكان يمكن أن تكون مرفوضة في سياقات أخرى ، بين أحد المفهومات المجردة وبين حقائق الواقع البالغ التعقيد . وحتى إذا سلمنا بأن الإسلام يختلف عن سائر الأديان الأخرى في أنه دين جامع لا يفصل بين الكنيسة والدولة ، أو بين الدين والحياة اليومية ، فإن الفقرات التالية من مقال كيفنر تتضمن ما يعتبر دليلاً على الجهل وداعياً للتضليل بصورة فريدة ، وربما بصورة متعمدة ، وإن كان كلاماً تقليدياً لا جديد فيه :

إن سبب انحسار نفوذ موسكو يتسم ببساطة خادعة ، ألا وهو أن ماركس والمسجد لا يتفقان . أترى نفترض إذن أن ماركس أقرب إلى الاتفاق مع الكنيسة أو مع المعبد ؟ .

وفيما يتعلق بالذهن الغربي {وهذا هو بيت القصيد كما هو واضح} فلقد تكيف منذ حركة الإصلاح الديني مع التطورات التاريخية والفكرية التي عملت بانتظام على تقليل

الدور المنوط بالدين ، وهكذا فهو يواجه صعوبة في تفهم القوة التي يمارسها الإسلام [وإذن فالمفترض أنه لم يتكيف مع التطورات التاريخية أو الفكرية] ومع ذلك فلقد ظل الإسلام على امتداد قرون طويلة يمثل القوة الرئيسية في حياة هذه المنطقة ، ويبدو ، ولو مؤقتاً على الأقل ، أن قوته في ازدياد .

لا يفصل الإسلام بين الدين والدولة ، فهو نظام جامع لا يقتصر على العقيدة بل يشمل العمل كذلك ، وبه قواعد ثابتة تحكم الحياة اليومية ، ودافع روحي يدفع المسلم إلى مواجهة الكافر أو هدايته للإسلام . وفي نظر الماركسيين ، وبخاصة العلماء وفقهاء الدين منهم ، بل وفي نظر الجماهير أيضاً [أي لا استثناء لأحد] تبدو الماركسية ، بنظرتها الدنيوية المحضة للإنسان مذهباً غريباً بل ومذهباً تجديفياً كذلك .

أى إن كفنر لا يقتصر على تجاهل التاريخ وبعض التعقيدات الأخرى مثل سلسلة الموازنات التي يقيمها مكسيم رودنسون بين الماركسية والإسلام (ويدرسها في كتاب يحاول، إيضاح سبب نجاح الماركسية ، فيما يبدو ، في النفاذ إلى بعض المجتمعات الإسلامية على مر السنين)⁽⁴⁾ بل إن كفنر يقيم حجته على مقارنة خفية بين "الإسلام" و"الغرب" وهو الذى يتميز فى نظره بتنوع حستى ليصعب تحديد طابعه بالمقارنة بالإسلام الذى يوحى كفنر بأنه يتسم

بالبساطة والجمود والشمولية . والطريف، هو أن كفنر قادر على أن يقول ما يقوله دون المخاطرة بأن يبدو مخطئاً أو مغفلاً !

الإسلام في مقابل الغرب - هذا هو اللحن 'القرارى' الذى تصاحبه مجموعة من التنوعات ذات الخصوبة المذهلة ، ومن الأفكار الموسيقية التى تتضمنها هذه التنوعات فكرة أوروبا فى مقابل الإسلام ، وأمريكا فى مقابل الإسلام^(٥) . وإن كنا نلمح الدور المهم الذى تلعبه الخبرات العملية المختلفة مع الغرب أيضاً ، بصورة عامة ، إذ لابد من رصد وجه الاختلاف البالغ الأهمية بين الوعى الأمريكى والوعى الأوروبى بالإسلام . فحتى عهد قريب كانت فرنسا والمجترات ، مثلاً ، تمتلكان امبراطوريات إسلامية شاسعة ، وسوف نجد فى كل من هاتين الدولتين ، وإلى حد أقل فى إيطاليا وهولندا اللتين كانتا تحتلان مستعمرات إسلامية أيضاً ، تراثاً طويلاً متصلاً من الخبرة المباشرة بالعالم الإسلامى^(٦) . ويتجلى هذا فى المبحث الأكاديمى الأوروبى المتميز الذى نسميه الاستشراق، والذى ازدهر فى البلدان ذات المستعمرات وكذلك فى بعض البلدان الأخرى (مثل ألمانيا وإسبانيا وروسيا قبل الثورة) التى كانت تريد لنفسها مستعمرات أو كانت قرية من الأقاليم الإسلامية أو كانت هى نفسها دولاً إسلامية . ويعيش اليوم فى الاتحاد السوفييتى قرابة ٥٠ مليون مسلم ، كما قام فى أواخر عام ١٩٧٩ باحتلال دولة أفغانستان المسلمة . ولن نجد نظائر لآى من ذلك كله فى الولايات المتحدة ، وإن كنا سوف نجد عدداً هائلاً ، بل لم

يسبق له مثيل ، من الأمريكيين الذين كتبوا أو فكروا أو تحدثوا عن الإسلام .

وهكذا فإن عدم وجود الماضى الاستعماري أو الاهتمام الثقافي الطويل الأمد بالإسلام في أمريكا يزيد من غرابة انشغالها إلى حد الهوس حالياً به ، ويجعله أشد تجريداً ، وأقرب إلى أن يكون خبيرة نقلها عن الآخرين . إذ إن عدد الأمريكيين الذين يتمتعون بخبرة التعامل المباشر مع المسلمين بالغ الضآلة نسبياً ، فإن شئنا المقارنة وجدنا أن الدين الثاني في فرنسا ، من حيث عدد معتقيه ، هو الإسلام ، وقد لا يكون في هذا سبب لحبه ولكنه بالتأكيد يزيد المعرفة به . وكانت موجة الاهتمام الأوروبي في العصر الحديث بالإسلام تمثل أحد عناصر ما وصف بأنه ” النهضة الاستشراقية “ ، وهي الفترة التي تمتد من أواخر القرن الثامن عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر وقام فيها العلماء الفرنسيون والبريطانيون بإعادة اكتشاف ” الشرق “ - الهند والصين واليابان ومصر وبلاد ما بين النهرين ، والأراضي المقدسة . وسواء كان ذلك خيراً أم شراً ، فإنهم كانوا ينظرون إلى الإسلام باعتباره جزءاً من الشرق ، يشاركه غموضه وغرابته وفساده وقوته الكامنة . صحيح أن الإسلام ظل يشكل تهديداً عسكرياً مباشراً لأوروبا على امتداد قرون سابقة ، وصحيح أيضاً أن الإسلام كان يمثل مشكلة للمفكرين المسيحيين في العصور الوسطى ومطلع النهضة بعد أن استمروا على مدى مئات السنين ينظرون إليه وإلى نبي الإسلام

محمد ، على أنهما يمثلان أخطّ لون من ألوان الرّدة ، ولكنه كان على الأقل يمثل لكثير من الأوروبيين ضرباً من التحدى الشفافي الدينى الذى لم يمنع الإمبريالية الأوروبية من بناء مؤسساتها فى الأراضى الإسلامية . ومهما يكن العداء بين أوروبا والإسلام ، فلقد نشأت أيضاً خبرة مباشرة به ، كما أبدى كثير من الشعراء والروائيين والعلماء - مثل جيته ، وجيرار دى نيرفال ، وريتشارد بيرتون ، وفلوبير ، ولويس ماسينيون - افتتانهم به الذى تجلّى فى إبداعاتهم وأعمالهم المرفهة المستهلمة من الإسلام .

ومع ذلك ، وعلى الرغم من جهود هؤلاء والآخرين من أمثالهم ، لم يكن الإسلام فى يوم من الأيام موضع ترحيب فى أوروبا ، ولم يكن معظم فلاسفة التاريخ الكبار ، من هيجل إلى شبنجلر ، يبدون حماساً شديداً للإسلام . ولقد كتب ألبرت حوراني مقالاً يتميز بالوضوح والبعد عن الهوى بعنوان "الإسلام وفلسفة التاريخ" ناقش فيه الخطّ المستمر ، وإلى درجة مثيرة ، للإسلام باعتباره نظاماً من نظم العقيدة^(٧) . فإذا استثنينا بعض الاهتمامات العارضة بكتاب من متصوفة الإسلام أو بإمام من أئمة الصوفية ، وجدنا أن موجات الإقبال الشعبى فى أوروبا على ما يسمى "حكمة الشرق" نادراً ما كانت تتضمن الحكماء أو الشعراء المسلمين ، وتكاد معرفة الأوروبيين المحدثين بالشخصيات الإسلامية الشهيرة تقتصر على عمر الخيام ، وهارون الرشيد ، والسندباد ، وعلاء الدين ، وحاجى بابا ، وشهرزاد ، وصلاح

الدين ولم يستطع حتى كارلايل أن يأتي بالقبول على نطاق واسع للنبي محمد ، وأما جوهر العقيدة التي دعا إليها محمد ، فلقد بدت للأوروبيين ومنذ زمن بعيد غير مقبولة لأسباب مسيحية أساساً ، وإن كانت لم تخلُ من طرافة لهذه الأسباب ذاتها . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، ومع زيادة الوطنية الإسلامية في آسيا وإفريقيا ، شاع الرأي القائل بأن المستعمرات الإسلامية كُتِبَ عليها أن تبقى تحت الوصاية الأوروبية لسببين مجتمعيين : الأول أنها مريحة والثاني أنها متخلفة وتحتاج إلى الانضباط الغربي^(٨) . فإذا تغاضينا عن ذلك : وعن تواتر دلائل العنصرية وأحداث العدوان على العالم الإسلامي ، وجدنا أن الأوروبيين قد أفصحوا فعلاً عما كان الإسلام يعنيه لهم . ومن هنا تكاثرت صور الإسلام في شتى مجالات الثقافة الأوروبية - في الدراسة العلمية ، وفي الفن والأدب والموسيقى والأحاديث العامة - منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى يومنا الحالى .

ولن نجد في الخبرة الأمريكية بالإسلام شيئاً يذكر من هذه الظواهر الملموسة ، فلقد كانت صلات الأمريكيين بالمسلمين في القرن التاسع عشر محدودة إلى حد بعيد ، وقد نذكر بعض الرحالة العابرين مثل مارك توين أو هرمان ملثيل ، أو بعض رجال التبشير الدينى المتفرقين ، أو الحملات العسكرية التى لم تستمر طويلاً إلى شمالى إفريقيا . وأما فى المجال الثقافى فلم يكن الإسلام يشغل مكاناً متميزاً فى أمريكا قبل الحرب العالمية الثانية ،

إذ كان الخبراء الأكاديميون عادة ما يقومون بدراساتهم للإسلام في أركان هادئة في مدارس اللاهوت ، بعيداً عن الأضواء الباهرة للاستشراق وبعيداً عن صفحات المجلات الكبرى . واستمر على مدى المائة عام الأخيرة تقريباً ضرب من التكافل الحيوي (المدھش رغم هدوئه) بين أسر المبشرين الأمريكيين في البلدان الإسلامية وبين رجال وزارة الخارجية وشركات النفط . وكان هذا التكافل يلوح على السطح بين الفينة والفينة في صورة تعليقات معادية ”للمستعربين“ في وزارة الخارجية وشركات النفط، وقيل إنهم كانوا يضمرون حباً للإسلام يتميز بخبثه ومعاداته للمسيحية . ومن ناحية أخرى فإن جميع كبار الخبراء في الإسلام الذين ذاع صيتهم في الولايات المتحدة قد ولدوا في بلدان أجنبية، مثل اللبناني فيليب حتّي ، بجامعة برنستون ، والنمسوي جوستاف فون جرونيباوم ، في جامعة شيكاغو وجامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس، والبريطاني هـ. أ. ر. جيب ، في جامعة هارفارد ، والألماني جوزيف شاخ في جامعة كولمبيا . ومع ذلك فلم يكن أي من هؤلاء الرجال يتمتعون بالتفوق النسبي في المكانة الثقافية المهمة مثل چاك بيرك في فرنسا أو ألبرت حوراني في إنجلترا .

ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم - حتّي وجيب وفون جرونيباوم وشاخ - قد اختفوا من المسرح الأمريكي ، كما إنه من غير المحتمل أن يُعقب علماء مثل بيرك وحوراني خلفاء لهم في فرنسا وإنجلترا ، فلا يتمتع اليوم أحد بثقافتهم العريضة ولا باتساع

المجالات الى يعتبرون حجة فيها ، فالخبراء الأكاديميون الغربيون في الإسلام اليوم عادة ما يتخصصون في مدارس فقه القانون الإسلامي في القرن العاشر الميلادي في بغداد ، أو في أنماط المدن المغربية في القرن التاسع عشر ، دون أن يحيطوا مطلقاً (أو بصورة شبه مطلقة) بالحضارة الإسلامية كلها - بالأدب ، وبالقانون ، وبالسياسة ، وبالتاريخ ، وبعلم الاجتماع وهلم جرا. ولكن هذا لم يمنع الخبراء من إطلاق الأحكام العامة من حين إلى آخر على "العقلية الإسلامية" أو "الولوع الشيعي بالاستشهاد" ، وإن كانت مثل هذه الأقوال مقصورة على المجالات الجماهيرية وأجهزة الإعلام ، فهي التي كانت تطلب منهم أصلاً إبداء آرائهم. وما يزيد عن هذا في مغزاه هو أن فرص المناقشات العامة للإسلام ، من جانب الخبراء وغير الخبراء ، لا تأتي بها في معظم الأحيان إلا الأزمات السياسية ، ومن أندر النادر أن نجد مقالات توفر بعض المعلومات عن الثقافة الإسلامية في مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس (مجلة نيويورك لمراجعة الكتب) أو مجلة هاربر مثلاً . ولم يكد موضوع "الإسلام" يبدو جديراً بالتعليق العام إلا حين يتعرض استقرار المملكة العربية السعودية أو استقرار إيران لهزة ما .

علينا إذن أن نذكر أن الإسلام قد وجد سبيله إلى وعي معظم الأمريكيين - بل إلى وعي أساتذة الجامعات وأصحاب الثقافة العامة الذين يحيطون إحاطة وافية بأوروبا وأمريكا اللاتينية -

لسبب رئيسي ، وإن لم يكن السبب الأوحـد ، وهو ارتباط الإسلام بقضايا تشغل وكالات الأنباء مثل قضايا النفط ، وإيران وأفغانستان والإرهاب^(٩) . وما إن حلّ منتصف عام ١٩٧٩ حتى اكتسب ذلك كله صفة الثورة الإسلامية ، وأصبح يشار إليه باسم "أزمة الهلال" أو "قوس القلقة" أو "عودة الإسلام" . ومن الأمثلة ذات الدلالة الكبيرة في هذا السياق ما فعله الفريق العامل الخاص بالشرق الأوسط التابع لمجلس دول الأطلسي (وهو الفريق الذي كان يضم برينت سكوكروفت ، وجورج بول ، وريتشارد هلمز ، وليمان ليميتزر ، وولتر ليثي ، ويوجين روستر ، وكيرميت روزفلت ، وجوزيف سيسكو ، وغيرهم) ، فعندما أصدر الفريق تقريره في خريف ١٩٧٩ وضع له عنواناً خاصاً هو "النفط والبلبل : اختيارات الغرب في الشرق الأوسط"^(١٠) وعندما خصصت مجلة تايم موضوعها الرئيسي للإسلام بتاريخ ١٦ إبريل ١٩٧٩ زينت غلافها بلوحة للفنان الفرنسي جيروم تصور مؤذناً ملتحياً يقف على مئذنة ويدعو المؤمنين بوقار إلى الصلاة ، وكانت اللوحة تتميز بالتنميق الشديد والمبالغة الصارخة مثل جميع فنون الاستشراق التي شهدتها القرن التاسع عشر ، ومن دلائل التناقض الزمني أن تكون هذه اللوحة الوقورة مُزينة بكلمات لا علاقة لها بها وهي "إحياء الجهاد" ولم أجد أفضل من هذا الغلاف للدلالة على الفرق بين موقف أوروبا وموقف أمريكا تجاه موضوع الإسلام ، إذ حوّلت المجلة لوحة هادئة زخرفية ، كانت

تعتبر في أوروبا جزءاً من الثقافة العامة لا أكثر، إلى صورة قادرة - بفضل الكائنات المصنوعة - على الدلالة على ما يشغل العقل الأمريكي لحد الهوس .

لكنني ولا شك أباغ ؟ ألم يكن موضوع صورة الغلاف لمجلة تايم عن الإسلام نموذجاً وحسب للسوقية ، يتغنى إرضاء ما هو مفترض من نشدان الإثارة ؟ هل تراه يكشف حقاً عما هو أخطر من هذا ؟ ومنذ متى كانت لأجهزة الإعلام أهمية كبرى فيما يتعلق بالقضايا الخطيرة ، أو قضايا السياسات ، أو قضايا الثقافة ؟ ثم أليس صحيحاً أن الإسلام قد فرض نفسه على اهتمام العالم وشغل أنظاره ؟ وماذا جرى للخبراء المتخصصين في الإسلام ، ولماذا تتعرض إسهاماتهم للتجاهل التام أو للدفن تحت الصورة التي تناقشها وتنشرها أجهزة الإعلام ”للاسلام“ ؟

لا بأس أولاً من إيراد بعض الإيضاحات البسيطة . لم يحدث، كما سبق لى أن ذكرت أن تمتع أحد الخبراء الأمريكيين المتخصصين في العالم الإسلامي بجمهور عريض من القراء . وباستثناء كتاب مغامرات الإسلام الذي يقع في ثلاثة مجلدات وكتبه المرحوم مارشال هودجسون ونشر بعد وفاته عام ١٩٧٥ ، لم يحدث أن وجد جمهور المثقفين كتاباً عاماً عن الإسلام يعرضه عليهم بالأمانة المطلوبة^(١) . فإما أن الخبراء كانوا على درجة من التخصص لا تسمح لهم إلا بمخاطبة غيرهم من المتخصصين ، وإما أن عملهم لم يكن متميزاً فكرياً بما يكفي لاجتذاب الجمهور

الذى أقبل على الكتب المكتوبة عن اليابان أو أوروبا الغربية أو الهند . ولكن هذا الأمر يقابله أمر مضاد . فإذا كان صحيحاً أننا لا نستطيع ذكر اسم "مستشرق" أمريكى يتمتع بأى صيت خارج نطاق الاستشراق ، كشأن بيرك أو رودنسون فى فرنسا ، فمن الصحيح أيضاً أن دراسة الإسلام لا تتمتع بتشجيع حقيقى داخل الجامعات الأمريكية ، ولا نجد من يساندها فى مجال الشخصيات العامة التى تتمتع بذىوع الصيت والامتياز الذاتى الكفيلين بجعل خبرات هذه الشخصيات بالإسلام مهمة فى ذاتها^(١٢) ، من هم النظراء الأمريكيون للكُتّاب الأوروبيين من أمثال ريبكا وست ، وفريا ستارك ، وت. أ. لورنس ، وولفريد ثيسنجر ، وجرتروود بل ، وب. هـ. نيوبى ، وأخيراً جوناثان رابان ؟ إنهم ، فى أفضل الحالات ، من رجال المخابرات الأمريكية السابقين مثل مايلز كوبلاند أو كيرمت روزفلت ، ونادراً ما يكونون من الكُتّاب أو المفكرين المتميزين ثقافياً على الإطلاق .

والسبب الثانى لافتقار الساحة الأمريكية (وهو افتقار له حساسيته) إلى آراء الخبراء فى الإسلام هو هامشية الخبراء إزاء الأحداث الظاهرة فى عالم الإسلام عندما بدأت هذه الأحداث تشغل مكاناً فى نشرات الأنباء فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين . أما الحقائق المهمة بل التى لا جدال فى أهميتها فهى أن دول الخليج المنتجة للنفط بدت فجأة بالغة القوة ؛ واندلعت حرب أهلية شرسة بصورة رهيبة ولا تبدو لها نهاية فى لبنان ؛ واشتبكت

إثيوبيا مع الصومال فى حرب طويلة الأمد ؛ وأصبحت المشكلة الكردية مشكلة محورية من حيث لم نكن نتوقع ، ثم انحسرت وصفا الجو بعد ١٩٧٥ ، من حيث لم نكن نتوقع أيضاً؛ وخلعت إيران ملكها (الشاه) فى أعقاب ثورة ”إسلامية“ هائلة فاجأت الجميع ؛ وشهدت أفغانستان انقلاباً ماركسياً عام ١٩٧٨ ، ثم وقع الغزو السوفييتى فى أواخر عام ١٩٧٩ ؛ واشتبكت الجزائر مع المغرب فى صراع طويل الأجل حول قضية الصحراء الغربية (الجنوبية) ؛ وأعدمت باكستان رئيسها السابق وجاءت إلى الحكم دكتاتورية عسكرية ، كما وقعت أحداث أخرى كثيرة ، كان آخرها الحرب بين إيران والعراق ، ولكن الأحداث المذكورة تكفى . واعتقد بصفة عامة أنه من الإنصاف أن نقول إن كتابات خبراء الإسلام فى الغرب لم تستطع إيضاح الكثير من هذه الأحداث . إذ لم يقتصر الأمر على عجز الخبراء عن التنبؤ بهذه الأحداث أو عدم تهيئة قرائهم لها ، بل إنهم لجأوا بدلاً من ذلك إلى كتابة نصوص إذا قورنت بما يحدث بدت كأنما تتناول إقليمًا نائيًا من المحال الوصول إليه فى هذا العالم ، ولا علاقة له تقريبًا بالقلقل المستمرة وما تمثله من تهديد نشهده وهى تتفجر أمام أعيننا فى أجهزة الإعلام .

هذا موضوع أساسى ، وإن لم يحاول أحد مناقشته مناقشة عقلانية حتى الآن ، وإذن فعلينا أن نلتزم الحذر فى تناولنا له . فالخبراء الأكاديميون فى مجال الإسلام قبل القرن السابع عشر كانوا

يدرسون عالمًا ينتمى بصفة أساسية إلى مجال الآثار ، وإلى جانب هذا ، فإنهم مثل سائر المتخصصين ، كانوا يعملون في تخصصات باللغة الانفصال عن بعضها البعض ، فلم يكونوا يريدون أو يحاولون أن يشغلوا أنفسهم بما ترتب على التاريخ الإسلامى من آثار حاضرة في عالم اليوم . وكان عملهم مرتبطًا إلى حد ما بالأفكار الخاصة بالإسلام ”الكلاسيكى“ أو ما افترضوا أنه أنساق لا تتغير للحياة الإسلامية ، أو بعض المسائل القديمة في فقه اللغة . ولكنه كان من المحال ، على أية حال ، الانتفاع بما يدرسه في تفهم العالم الإسلامى الحديث ، وهو الذى يتطور في حقيقة الأمر بصورة بالغة الاختلاف عما توقعه الناس في القرون الأولى للإسلام (أى من القرن السابع إلى القرن التاسع) وإن تفاوت هذا التطور من منطقة إلى منطقة فيه .

وكان الخبراء الذين يعملون في مجال ”الإسلام“ الحديث - أو إن شئنا الدقة ، في مجال يضم المجتمعات والأشخاص والمؤسسات القائمة داخل العالم الإسلامى منذ القرن الثامن عشر - يعملون في حدود إطار متفق عليه للبحث العلمى ، وهو الإطار الذى تشكّل وفقًا لأفكار لا علاقة لها قطعًا بالعالم الإسلامى . ومهما كررنا وفصلنا القول في هذه الحقيقة ، على تعقيدها وتنوعها ، فلن نكون مبالغين . فلا شك في أن الباحث الذى يمارس بحثه في أوكسفورد أو في بوسطن ، يكتب ويجرى أبحاثه استنادًا بصفة أساسية إلى معايير وأعراف وتوقعات وضعها

أقرانه لا المسلمون الذين يدرسهم ، وإن لم يقتصر عليها . ربما كانت هذه بديهية ، ولكننا لا بد أن نؤكد على أية حال . فالدراسات الإسلامية الحديثة في الجامعات تنتمي إلى ما يسمى 'برامج المناطق' بصفة عامة - أي أوروبا الغربية ، والاتحاد السوفيتي ، وجنوب شرقى آسيا ، وهلم جرا . ومن ثم فهي ترتبط بالآليات التي تُرسم بها السياسة القومية . وهذا أمر مطروح لاختيار الباحثين كل على حدة . فإذا كان باحث في جامعة برنستون يقوم ببحثه في المدارس الإسلامية المعاصرة في أفغانستان ، فمن الواضح (خصوصاً في فترة كالتي نمر بها) أن مثل هذه الدراسة من المحتمل أن ترتب عليها فوائد للسياسات القومية ، وسواء شاء الباحث أم أبى فسوف يجد أنه قد ارتبط بخيوط تشده إلى الحكومة أو إلى الشركات أو السياسة الخارجية ، وهو ما تنسحب آثاره على التمويل ، ونوع الأشخاص الذين يقابلهم ، وبصفة عامة ، يجد أنه يواجه أنماطاً خاصة من الثمار لعمله والتفاعل مع ما حوله . وهكذا يتحول الباحث رغم أنه إلى "خبير بالمنطقة" .

والباحثون الذين ترتبط اهتماماتهم ارتباطاً مباشراً بقضايا السياسات (وهم أساساً المتخصصون في العلوم السياسية ، ولكن من بينهم أيضاً المتخصصين في التاريخ الحديث ، والاقتصاد وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا) يواجهون مسائل حساسة ، إن لم نقل خطيرة . فعلى سبيل المثال كيف يمكن التوفيق بين مكانة الباحث

العلمى والمطالب التى تفرضها الحكومة عليه ؟ وحالة إيران نموذج ينطبق عليه ذلك كل الانطباق . ففى إبان حكم الشاه ، كان المتخصصون فى إيران يتوافر لهم التمويل من المؤسسة البهلوية ، وكذلك أيضاً من المؤسسات الأمريكية ، بطبيعة الحال . وكانت هذه الأموال مخصصة للإنفاق على الدراسات القائمة على الوضع الراهن (وفى هذه الحالة وجود النظام البهلوى المرتبط عسكرياً واقتصادياً بالولايات المتحدة) ومن ثم أصبحت هذه الدراسات من زاوية معينة النموذج البحثى المتاح لمن يدرسون ذلك البلد . وفى مرحلة متأخرة من مراحل الأزمة أصدرت لجنة دائمة مختارة تابعة لمجلس النواب ومختصة بالعاملين فى الاستخبارات دراسة جاء فيها أن تقييم الولايات المتحدة للنظام يتأثر فى كل مرة بالسياسة القائمة ”ليس بصورة مباشرة عن طريق التستر عمداً على الأبناء غير المواتية ولكن بصورة غير مباشرة... فواضعو السياسات لم يتساءلوا عما إذا كان نظام حكم الشاه سوف يستمر إلى ما لا نهاية؟ وكانت السياسات توضع على أساس ذلك الافتراض“^(١٣) . وقد أدى هذا بدوره إلى ضآلة عدد الدراسات التى تتضمن التقييم الجاد لنظام حكم الشاه وتحديد مصادر لمعارضة الشعبية له . وفى حدود ما أعلم ، لم ينجح إلا باحث واحد ، هو حامد الجار ، من بيركلى ، فى وضع التقدير الصحيح للقوة السياسية المعاصرة للمشاعر الدينية الإيرانية ، وكان وحده هو الذى ذهب فى تقييمه إلى حد التنبؤ باحتمال قيام آية الله الخمينى بإسقاط النظام . وكان

هناك باحثون آخرون - من بينهم ريتشارد كوتام وإرفاند إبراهيميان - لم يلتزموا بالوضع الراهن فيما كتبوه ، ولكنهم كانوا يمثلون حفنة ضئيلة إلى أبعد حد^(١٤) . (ومن الإنصاف أن نذكر أن الباحثين اليساريين الأوروبيين ، الذين لم يكونوا يتسمون بالتفاؤل نفسه إزاء بقاء الشاه ، لم ينجحوا من جانبهم كذلك في تحديد المصادر الدينية للمعارضة الإيرانية^(١٥) .

وحتى لو نحينا إيران جانباً ، فسوف نجد نماذج كثيرة ومهمة للفشل الفكرى فى مناطق أخرى ، ولقد كانت جميعاً نتيجة الاعتماد دون تمييز على ما أملتة السياسة الحكومية والكليشيات ولنا أن نتعلم دروساً مهمة من لبنان وفلسطين ، إذ ظلت لبنان على امتداد سنوات طويلة نموذجاً لما ينبغى أن تكون عليه الثقافة التعددية أو المركبة . ومع ذلك فلقد بلغت النماذج البحثية المستخدمة فى دراسة لبنان درجة من الجمود والثبات تعذر معها توقع ما صاحب الحرب الأهلية من شراسة وعنف (وهى التى استمرت من ١٩٧٥ حتى ١٩٨٠ على الأقل) . ويبدو أن أعين الخبراء قد أصابها الشلل فى الماضى بدرجة غير معهودة أمام سحر صور "استقرار" لبنان ، فوجهوا دراستهم إلى الزعماء التقليديين، والنخب ، والأحزاب ، والشخصية القومية ، ونجاح جهود التحديث فى لبنان .

وحتى عندما وُصف نظام الحكم فى لبنان بالتأرجح ، وعندما قام الخبراء بتحليل عدم اكتمال "تحضره" ، كان الافتراض السائد

والموحد هو أن مشكلاته كانت بصفة عامة قابلة للحل ، وأنها أبعد ما تكون عن التسبب في فصم عرى الوحدة بصورة جذرية^(١٦) . وكان الخبراء يصورون لبنان في صورة البلد المستقر في الستينيات لأن النظام القائم بين البلدان العربية كان مستقرًا في نظر أحد الخبراء ، وما دامت تلك المعادلة قائمة في رأيه ، ظل لبنان في مأمن^(١٧) . ولم يفترض أحد على الإطلاق أن يسود الاستقرار ما بين البلدان العربية وينهدم الاستقرار رغم ذلك في لبنان ، والسبب الرئيسي هو - كما هو الحال في هذا المجال الذي يعاني من آفة 'اتفاق الآراء' - أن الحكمة التقليدية قررت بقاء "التعددية" واستمرار التوافق إلى الأبد في لبنان ، على الرغم من انقساماته الداخلية وانتفاء تأثير جيرانه العرب فيه ، كما قالت تلك الحكمة إن أى مشكلة للبنان لا بد أن يكون مصدرها المناخ العربى المحيط بلبنان ، ولا يمكن أبدًا أن يكون مصدرها إسرائيل أو الولايات المتحدة ، ولكل منهما أطماعه المحددة ، وإن لم يتناولها أحد بالتحليل ، فى لبنان . وإلى جانب ذلك فقد كان الخبراء مغرمين بصورة لبنان التى تجسّد أسطورة التحديث . وعندما نقرأ اليوم دراسة راسخة من هذا اللون الذى يتميز بحكمة النعامة ، يروينا كيف استمرت الأسطورة مطروحة حتى عام ١٩٧٣ ، وهو العام الذى بدأت فيه الحرب الأهلية فعليًا . قيل لنا إن لبنان يمكن أن تتعرض لتغيير ثورى ، ولكن ذلك احتمال "بعيد" الوقوع . أما الأرجح فهو "التحديث فى المستقبل الذى تشارك الجماهير فيه

لهذه كناية ساخرة محزنة عن الحرب الأهلية التي سال فيها من الدماء أكثر مما سال في التاريخ العربى الحديث كله في إطار الهيكل السياسى السائد^(١٩) أو كما قال عالم أنثروبولوجى مبرز "لا تزال 'لوحة الفسيفساء الجميلة' فى لبنان قائمة لم يمسهها سوء. بل إن لبنان لا يزال أنجح بلد تمكن من التحكم فى انقساماته الأزلية العميقة"^(٢٠).

وكان من نتائج هذا الاتجاه أن عجز الخبراء ، بدليل أحداث لبنان وغيرها ، عن أن يدركوا أن جانباً من الظواهر المهمة حقاً فى البلدان التى تحررت من الاستعمار لا يمكن بسهولة أن يجمع تحت عنوان "الاستقرار". أما فى لبنان فإن الذى مزق البلد هذا التمزيق الوحشى كان على وجه الدقة تلك القوى غير الثابتة ، وذات الحراك المدمر ، التى أغفل الخبراء تسجيلها أو هونوا من شأنها بانتظام ، ألا وهى قوى الانفصام الاجتماعى ، والانتقالات الديموغرافية ، والانتماءات الدينية ، والتيارات الأيديولوجية^(٢١).

وعلى غرار ذلك كانت الحكمة التقليدية على امتداد سنوات تقول بأن الفلسطينيين لا يزدون عن كونهم لاجئين من الممكن إعادة توطينهم ، لا اعتبارهم قوة سياسية ذات عواقب لا مناص من تقدير أبعادها فى أى تقييم يتميز بدرجة معقولة من الدقة للحالة فى الشرق الأدنى . ومع ذلك فلقد أصبح الفلسطينيون ، فى نحو منتصف السبعينيات إحدى المشكلات الكبرى المعترف بها فى سياسات الولايات المتحدة ، وما زال العالم ينتظر منها الاهتمام

العلمى والفكرى الذى تقتضيه أهميتهم^(٢٢) ؛ ولكن الاتجاه الذى لا يزال قائماً هو معاملتهم باعتبارهم يمثلون بعض الملحقات المرفقة بسياسة الولايات المتحدة تجاه مصر وإسرائيل ، بل وتجاهلهم تماماً فى الأحداث التى تفجرت فى لبنان . ولم تواجه هذه السياسة ثقلاً موازناً مُهمّاً فى دراسات الباحثين أو الخبراء ، ومن المحتمل إذن أن تواجه المصالح القومية الأمريكية عواقب وخيمة نتيجة لذلك ، خصوصاً لأن الحرب الإيرانية العراقية فيما يبدو قد فاجأت رجال المخابرات أو أخذتهم على غرة للمرة الثانية ، وأثبتت خطأهم الفادح فى التقديرات التى وضعوها للقدرات الحربية للدولتين .

وتضاف إلى هذا التوافق بين الدراسات المطيعة التى تسير بخطى السلفية وبين عدم الإدراك الحق لمصلحة الحكومة ، الحقيقة المؤسفة التى تقول إن عدداً أكبر مما ينبغى من الخبراء الذين كتبوا عن العالم الإسلامى لم يكونوا يحيطون بلغات البلدان التى تناولوها فاضطروا إلى الاعتماد على الصحافة أو غيرهم من الكتاب الغربيين فى الحصول على معلوماتهم . وهكذا ازداد اعتمادهم على الصورة الرسمية أو التقليدية للأمور ، بحيث أصبحت الفخ الذى وقعت فيه أجهزة الإعلام فى مجمل تغطيتها لأخبار إيران قبل اندلاع الثورة . فلقد ساد الاتجاه إلى دراسة نفس الشيء وإعادة دراسته ، والتركيز عليه المرة بعد المرة ، مثل دراسة النُخب الاجتماعية وبرامج التحديث ، والدور المنوط بالعسكريين،

والزعماء الذين يتمتعون ببروز خاص ، والاستراتيجية الجغرافية السياسية (من وجهة النظر الأمريكية) والتدخلات الشيوعية^(٢٣) . وربما كانت هذه المسائل تبدو فى ذلك الوقت مهمة للولايات المتحدة على المستوى القومى ، ولكن الواقع يقول إن الثورة قد اكتسحتها جميعاً فى أيام معدودة فى إيران ، إذ انهيار البلاط الإمبراطورى برمته ، وتشتت الجيش الذى أُغدقت عليه مليارات الدولارات وتوارت النُخبُ المزعومة وتكيفت مع النظام الجديد ، ولا يمكن القول فى أى من الحالين ، على نحو ما كان يقال قديماً، إنها هى التى تحدد السلوك السياسى الإيرانى . ولنسمع ما قاله أحد الخبراء ، الذى يرجع إليه الفضل فى التنبؤ بما يمكن أن تؤدى إليه "أزمة ١٩٧٨" ، وهو جيمس بل من جامعة تكساس الذى كان يقدم المشورة إلى واضعى السياسات الأمريكين فأشار عليهم فى ديسمبر ١٩٧٨ (وقد تأخر الوقت) بأنه ينبغي على حكومة الولايات المتحدة أن تشجع "الشاه . . على أن يبدأ فى الأخذ بالانفتاح فى نظام الحكم"^(٢٤) . وبعبارة أخرى كان صوت الخبير المذكور الذى يفترض فيه الانشقاق ما زال ملتزماً بالحفاظ على نظام كانت الملايين ، دون مبالغة ، قد هبت لمعارضته وخرجت تهتف ضده فى حركة تمرد من أكبر الحركات التى شهدتها التاريخ الحديث ، حتى فى اللحظة التى كان يسدى تلك المشورة فيها .

ومع ذلك فإن بل قد أبدى ملاحظات مهمة بشأن الجهل العام بإيران فى الولايات المتحدة ، فلقد أصاب حين قال إن تغطية

أجهزة الإعلام كانت سطحية ، وإن السياسة الإعلامية الرسمية كانت مُسَخَّرَة لتحقيق ما يريده الشاه ، وإن الولايات المتحدة لم تبذل الجهد اللازم سواء لاكتساب معرفة عميقة بالبلد أو للاتصال بالمعارضة . ولقد كانت مظاهر الإخفاق المذكورة من أعراض الموقف العام الذى اتخذته الولايات المتحدة وأوروبا إزاء العالم الإسلامى ، وأيضاً ، وعلى نحو ما سوف نرى ، إزاء معظم بلدان العالم الثالث ، وإن لم يصرح بذلك جيمس بِلْ ، بَلْ إن عدم ربطه بين ما كان يقوله مُحَقِّقاً عن إيران بسائر العالم الإسلامى يدخل فى إطار ذلك الموقف نفسه . فلم يتعرض أحد ، أولاً ، لإجابة الأسئلة المنهجية الرئيسية وهى : ما قيمة الحديث عن "الإسلام" و" النهضة الإسلامية" (إن كانت للحديث قيمة) ؟ وثانياً : ما هى ، أو كيف ينبغى أن تكون ، العلاقة بين سياسات الحكومة والبحث العلمى ؟ هل من المفترض أن يسمو الخبير على مستوى السياسة أو يصبح ملحقاً متصلاً بالحكومات ؟ وقال بِلْ المذكور ، ووليم بيمان ، من جامعة براون ، فى مناسبتين منفصلتين ، إن أحد الأسباب الرئيسية للأزمة الناشبة بين الولايات المتحدة وإيران فى ١٩٧٩ هو عدم استشارة الخبراء الأكاديميين الذين أنفقت على تعليمهم مبالغ طائلة لهدف محدد وهو اكتساب المزيد من المعرفة بالعالم الإسلامى^(٢٥) . أما الذى فات بِلْ وبيمان أن ينظروا فيه فهو ما يلى : ربما كان سعى الباحثين نفسه للنهوض بهذا الدور ، حتى وهم يطلقون على أنفسهم لقب الباحثين ، سبباً فى

أن يظهروا بمظهر من يفتقر إلى الوضوح والحسم فيفقدوا مصداقيتهم في عيون الحكومة وفئة المثقفين جميعاً^(٢٦) .

ولتساءل أيضاً ، إلى جانب ذلك ، عما إذا كان المفكر المستقل (وهو الذى لا بد أن يكونه كل باحث أكاديمي على أية حال) يستطيع أن يحافظ على استقلاله وهو يعمل في الوقت نفسه لحساب الدولة ؟ وما الصلة بين المشاركة السياسية الصريحة وبين البصيرة الصائبة ؟ هل تنفى إحداهما الأخرى ، أم أن ذلك لا يصدق إلا في بعض الحالات ؟ لماذا حُرِّم الباحثون في الإسلام جميعاً في أمريكا (على قلة عددهم) من مخاطبة جمهور أوسع ؟ لماذا حدث ذلك في الوقت الذى بدت فيه الولايات المتحدة في ميسس الحاجة إلى المشورة ؟ ومن المحال إجابة هذه الأسئلة جميعاً ، بطبيعة الحال ، إلا بالرجوع إلى الإطار الفعلي ، الذى يغلب عليه الطابع السياسى ، ويحكم العلاقات تاريخياً بين الغرب والعالم الإسلامى . فلننظر إذن إلى ذلك الإطار حتى نرى الدور المنوط بالخبير فيه .

لم أستطع أن أكتشف فترة في التاريخ الأوروبى أو التاريخ الأمريكى منذ العصور الوسطى ناقش أحد فيها الإسلام أو فكر فيه خارج إطار صاغته العاطفة المشبوبة ، والتعصب ، والمصالح السياسية . وقد لا يبدو ذلك اكتشافاً يدعو إلى الدهشة ، ولكنه يضم في ثناياه جميع ألوان المباحث العلمية والأكاديمية التى كانت منذ مطلع القرن الثامن عشر تطلق على نفسها اسماً كُلياً هو

مبحث الاستشراق أو كانت تحاول ، بانتظام ، دراسة الشرق . ولن يختلف أحد مع القول بأن أوائل الذين علّقوا على الإسلام ، مثل بطرس المجل ، وبارتليمي دريلو ، قد اتخذوا موقف المجادلة المسيحية المشبوبة فيما قالوه . ولكنّ أماننا افتراضاً لم ينظر أحد في صحته يقول إنه حين تقدمت أوروبا والغرب فاتخذت خطواتها في العصر العلمي الحديث ، وحررت نفسها من الخرافة والجهل ، كانت مسيرتها بالضرورة تتضمن الاستشراق . أليس صحيحاً أن سيلفستردى ساسى ، وإدوارد لين ، وإرنست رينان ، وهاملتون جب ، ولويس ماسينيون ، كانوا من الباحثين والعلماء الموضوعيين ، وأليس صحيحاً أن من آثار التقدم الذى شهده القرن العشرون بشتى ألوانه فى علم الاجتماع والأنثروبولوجيا واللغويات والتاريخ أن أصبح الباحثون الأمريكيون الذين يقومون بتدريس الشرق الأوسط والإسلام فى جامعات كبرى مثل برنستون وهارفارد وشيكاغو ، بالضرورة ، غير منحازين ولا يمارسون الدعوة إلى شىء فيما يفعلونه ؟ أما الإجابة عندى فهى بالنفى . وليس ذلك لأن الاستشراق أكثر تحيّزاً من العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى ؛ لكنه وحسب ، مثل غيره من المباحث المذكورة ، له سماته الأيديولوجية ويتأثر مثلها بالعالم من حوله . أما الفارق الأوحده فهو أن باحثى الاستشراق يبادرون باستخدام مواقفهم ، باعتبارهم خبراء ، فى إنكار (وأحياناً حتى فى إخفاء) مشاعرهم العميقة تجاه الإسلام بلغة الثقات التى تهدف إلى الشهادة ”بموضوعيتهم“ وكذلك ”بحيادهم العلمى“ .

هذه واحدة . أما الأخرى فهي ما يتميز به هذا النسق التاريخي المعين ، ولولاه لتساوت مظاهر الاستشراق جميعاً واستحال تمييز أحدها عن سواها . وأما هذا النسق فهو أنه كلما شعر الناس ، في العصور الحديثة ، بتوتر سياسيّ حادّ بين الغرب والشرق التابع له (أو بين الغرب وبين الإسلام التابع له) ظهر النزوع في الغرب إلى العزوف عن اللجوء إلى العنف مباشرة، بل اللجوء أولاً إلى رسم صورة الخصم بالأدوات والوسائل الهادئة التي تتمتع بالتجرد النسبي والتي يتميز بها كل رسم علميّ شبه موضوعي ، وهكذا يزداد وضوح صورة ” الإسلام ” ويظهر ”الطابع الحقيقي” لما يمثله من تهديد ، وهو ما يوحى ضمناً بالخطوات التي سوف تتخذ إزاءه . وفي مثل هذا السياق ، يبدو للكثير من المسلمين ، الذين يعيشون في ظل ظروف بالغة التنوع ، أن العلم والعنف المباشر شكلا من أشكال العدوان على الإسلام.

وفيما يلي مثالان بارزان يشهدان على صحة القضية التي أطرحها . فنحن حين نسترجع التاريخ القريب نرى أن فرنسا وإنجلترا سبقتا احتلالهما في القرن التاسع عشر لبعض أجزاء من الشرق الإسلاميّ بفترة تعرضت فيها شتى الأساليب العلمية المستخدمة في تحديد ملامح الشرق وتفهمه لقدر باهر من التحديث والتطور التقنيين^(٢٧) . فلقد جاء الاحتلال الفرنسي للجزائر عام ١٨٣٠ في أعقاب مرحلة امتدت قرابة عقدين أحال العلماء

الفرنسيون فيها دراسة الشرق من مجال الآثار إلى مبحث علمى حديث . وكان قد سبق هذا ، كما هو معروف ، قيام نابليون بوناپرت باحتلال مصر عام ١٧٩٨ ، ونحن نذكر أنه قد مهد حملته بأن جمع حشداً من العلماء النابيهين حتى يكفل لمشروعه النجاح . ولكن ما أقوله هو إن احتلال نابليون لمصر الذى لم يطل عهده كان بمثابة انتهاء فصل ، وأما الفصل الجديد فقد بدأ بالفترة الطويلة التى تولّى فيها سلفستردى ساسى رعاية المؤسسات الفرنسية للدراسات الشرقية ، فأصبحت فرنسا تتزعم العالم فى الاستشراق ؛ ثم وصل هذا إلى ذروته بعد قليل حين قامت الجيوش الفرنسية باحتلال الجزائر عام ١٨٣٠ .

ولا أريد على الإطلاق أن أوحى بوجود علاقة سببية بين شئ وآخر أو أن أتخذ الموقف المناقض للعقلانية الذى يقول إن المعارف العلمية تؤدى بالضرورة إلى العنف والمعاناة . فكل ما أريد قوله هو إن الامبراطوريات لا تولد فى التوّ واللحظة ، كما إنها لم تعتمد على الارتجال فى إدارتها فى العصر الحديث . فإذا كان تطور العلم يتضمن إعادة تعريف وإعادة تشكيل مجالات الخبرة البشرية على أيدي علماء يتسامون على المادة التى يدرسونها، فليس من قبيل الخروج عن موضوعي أن أرى التطور نفسه عند السياسيين الذين يعاد تحديد وتعريف نطاق سلطانتهم حتى يضم مناطق العالم ”الأدنى“ منزلة حيث يمكن اكتشاف مصالح ”قومية“ جديدة - وينتهى الرأى فى وقت لاحق إلى أنها تحتاج

إلى الإشراف الوثيق عليها^(٢٨) . وأشك كثيرًا فى أن انجلترا كان يمكن أن تحتل مصر تلك الفترة الطويلة احتلالاً قائماً على مؤسسات هائلة لولا استثمارها الثابت الطويل للدراسات الاستشراقية التى بذرت بذورها بعض الباحثين أول الأمر مثل إدوارد وليم لين ، ووليم جونز . فأما ما أثبتته المستشرقون بشأن الشرق فهو أنهم أتاحوا المعرفة به ، ويسر الوصول إليه ، وسهولة تصويره فى عيون الغرب. أى إن الشرق يمكن أن يُرى ، وأن يُدرس ، وأن يخضع للإدارة ، ومن ثم فلا حاجة بنا إلى أن نصبر على استمرار بُعد ذلك المكان الحافل بالأعاجيب والزاخر بما يستعصى على الفهم ، وهو المكان البالغ الثراء ! وإذن فمن الممكن لنا أن ننقله إلى ديارنا، أو بعبارة أبسط ، نستطيع أوروبا أن تجعله امتداداً لأوطانها، على نحو ما فعلت فى الواقع بعد ذلك !

أما المثال الثانى الذى أسوقه فهو معاصر . فالشرق الإسلامى اليوم ذو أهمية واضحة إما بسبب موارده أو بسبب موقعه الجغرافى، وإن كان كل من هذين السببين لا يتفق مع المصالح أو الحاجات أو الآمال الخاصة للشرقيين من أبناء تلك البلدان . ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية والولايات المتحدة تحتل مواقع السيطرة والهيمنة التى كانت تشغلها بريطانيا وفرنسا يوماً ما فى العالم الإسلامى . وقد صاحب الإبدال المذكور لنظام إمبريالى بنظام إمبريالى آخر بروز ظاهرتين ، الأولى هى تفتح براعم الاهتمام العلمى والأكاديمى بالإسلام ، وهو الاهتمام الموجه للتعامل مع

الأزمات ، والثانية هي الثورة الهائلة فى التقنيات المتاحة للصحافة التى يملكها القطاع الخاص بصفة رئيسية وصناعات الصحافة الإلكترونية . فلم يسبق فى التاريخ أن قامت أجهزة الإعلام بتغطية أنباء بقعة من بقاع التوتر مثل إيران بمثل هذه السرعة والانتظام حتى بدا كأن إيران قد دخلت حياة الأمريكين ، وإن كانت غريبة عليهم ، بعمق وتركيز غير مسبوق . وتضافرت هاتان الظاهرتان - وتأثير الثانية أكبر من الأولى - وهما اللتان جعلتا جانباً ضخماً من جهاز خبراء الجامعة والحكومة وقطاع الأعمال التجارية يتولى دراسة الإسلام والشرق الأوسط ، حتى أصبح الإسلام موضوعاً مألوفاً لكل 'مستهلك' للأنباء فى الغرب، أقول إنهما تضافرتا حتى جعلتا الإسلام نزيلاً فى منازل الغربيين، أو على الأقل جوانبه التى تعتبر جدية بتناقل أخبارها . ولم يقتصر الأمر على أن أصبح ذلك العالم موضوعاً لأعمق حالات التشبع الثقافى والاقتصادى الغربى فى التاريخ - إذ لا يوجد إقليم غير غربى يتعرض لسيطرة الولايات المتحدة اليوم مثل العالم العربى الإسلامى - بل إن ميزان المبادلات بين الإسلام والغرب (الذى تمثله الولايات المتحدة فى هذه الحالة) يميل ميلاً شديداً إلى جانب دون الآخر ، كما إنه يتسم كذلك بالانحراف الشديد عن ميزان المبادلات بين الغرب وسائر مناطق العالم الإسلامى التى لا تشغل نشرات الأنباء .

وقد لا أبالغ إلا مبالغة طفيفة إذا قلت إن المسلمين والعرب

يتعرضون للتغطية الإعلامية ، وللمناقشة ، وللخشية منهم بصفة أساسية إما باعتبارهم موردين للنفط أو بسبب احتمال مزاولتهم للإرهاب . ولم يتسرب إلا أقل القليل من تفاصيل الحياة العربية الإسلامية وكشافتها الإنسانية ومشاعرها المشبوبة إلى وعى أحد ، حتى أولئك الأشخاص الذين يحترفون نقل أنباء العالم الإسلامى ، وبدلاً من هذا لا نجد إلا سلسلة محدودة من الصور الكاريكاتورية العامة والفجة للعالم الإسلامى ، وهى تقدم بأسلوب يعرضه ، فيما يعرضه له ، للعدوان العسكرى^(٢٩) . ولا أعتقد أنه كان من قبيل المصادفة أن يكون الحديث الذى دار فى الآونة الأخيرة عن قيام الولايات المتحدة بالتدخل العسكرى فى الخليج العربى ، أو ما يسمى بمبدأ كارتر ، أو المناقشات التى دارت حول قوات الانتشار السريع ، قد سبقته فترة من التصوير العقلانى ”للإسلام“ من خلال البرامج التليفزيونية الهادئة ، ومن خلال دراسة المستشرقين ”الموضوعية“ (ومن المفارقات أنها كانت على أحد حالين : إما أنها ”لم تكن لها صلة“ بحقائق الواقع الحالى ، أو أنها حين اتخذت طابع الدعاية ”الموضوعية“ لم تنجح إلا فى تنفير الجمهور من ذلك ’العالم‘) : إن الوضع الحالى يتسم بعدة أوجه شبه مثيرة للرجعة مع الوضع الذى نشأ فى القرن التاسع عشر عندما قامت بريطانيا وفرنسا بغزو العالم العربى الإسلامى .

ولهذا أسباب سياسية وثقافية أخرى . ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، عندما نهضت الولايات المتحدة بالدور الامبريالى

الذى كانت تنهض به فرنسا وبريطانيا ، وضعت مجموعة من السياسات اللازمة للتعامل مع العالم الخارجى والتي كانت مناسبة لخصائص ومشكلات كل إقليم يؤثر ويتأثر بمصالح الولايات المتحدة ، فوضعت مشروعاً لنهضة أوروبا من كبوة الحرب ، واتخذت له الخطوات المناسبة ومن بينها خطة مارشال وغيرها من السياسات المماثلة . وبرز الاتحاد السوفييتى بطبيعة الحال باعتباره أقوى منافس للولايات المتحدة، وكما لا يحتاج أحد إلى التذكير ، أدت الحرب الباردة إلى وضع سياسات ودراسات بل وإلى نشأة منهج فى التفكير لا يزال يسيطر على العلاقة بين الدولتين العظميين . وكان من جراء ذلك ترك ما أصبح يسمى بالعالم الثالث ، فأصبح ساحة للتنافس لا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فقط بل أيضاً بين الولايات المتحدة وشتى الدول الوطنية بعيد حصولها على استقلالها من الاستعمار الأوروبى .

وكان واضعو السياسات الأمريكيون يعتبرون بلدان العالم الثالث ، وبلا استثناء تقريباً ، بلداناً ”متخلفة“ ، تسيطر عليها أساليب حياة ”تقليدية“ قديمة بالية ثابتة دونما داع ، ويرون أنها تتعرض لأخطار التخريب الشيوعى والركود الداخلى . وهكذا وضعت الولايات المتحدة ”تحديث“ العالم الثالث على قمة جدول أعماله ، إذ كانت ”نظرية التحديث“ ، كما يقول جيمس بك ، ”الإجابة الأيديولوجية اللازمة لعالم تزداد فيه القلاقل الثورية وتستمر فيه معارضة النُخب السياسية التقليدية“^(٣٠) . وهكذا

تدفقت مبالغ مالية هائلة إلى إفريقيا وآسيا بهدف وقف الشيوعية، وترويج التجارة الأمريكية، وقبل ذلك كله، بناء صفوف من الحلفاء المحليين وهم الذين يرمى وجودهم، فيما يبدو، وبصراحةٍ إلى تحويل البلدان المتخلفة إلى صور مصغرة من أمريكا. وبمرور الزمن تطلب الأمر استكمال الاستثمارات المبدئية بمبالغ إضافية وزيادة الدعم العسكرى حفاظًا عليهم، وقد أدى هذا بدوره إلى التدخل المتكرر في شتى بلدان آسيا وأمريكا اللاتينية، وهو الذي دمغ الولايات المتحدة بمعادة كل ضرب من ضروب القومية المحلية تقريباً.

ولن يتسنى لنا أن نفهم الفهم الكامل تاريخ جهود الولايات المتحدة في سبيل تحديث وتنمية العالم الثالث إلا إذا أدركنا ما أدت إليه تلك السياسات نفسها، فلقد نشأت عنها طرائق معينة في التفكير والنظر إلى العالم الثالث كان من شأنها زيادة الاستثمار السياسي والعاطفي والاستراتيجي في فكرة التحديث ذاتها، على نحو ما تمثله خير تمثيل حالة فيتنام. فما إن تقرر إنقاذ ذلك البلد من الشيوعية بل من ذاته، حتى نشأ "علمٌ جديد" خاص بتحديث فيتنام (ولقد عُرِفَت آخر مراحلها وأثقل المراحل تكلفة باسم "الفتنة"). ولم يقتصر المشاركون فيه على المتخصصين الحكوميين بل انضم إليهم خبراء الجامعات. وبمرور الوقت أصبح بقاء الأنظمة الموالية لأمريكا والمعادية للشيوعية شاغلاً يتمتع بالأولوية على كل ما عداه، حتى عندما اتضح أن غالبية كبيرة من

السكان تعتبر هذه الأنظمة غريبة وظالمة ، وحتى حين أدى الدخول في حروب فاشلة لحساب تلك الأنظمة إلى تخريب المنطقة بأسرها وفقدان ليندون جونسون رئاسته لأمريكا . ومع ذلك فلقد صدرت كتابات باللغة الكثرة عن فضائل ومحاسن تحديث المجتمع التقليدي حتى اكتسبت تلك الكتابات منزلة الحجة التي يستشهد بها اجتماعياً (وثقافياً بالتأكيد) في الولايات المتحدة ، بل لقد استمر ذلك حتى حين ربط تفكير الناس في كثير من مناطق العالم الثالث ما بين ” التحديث “ وبين سفه الإنفاق ، واقتناء أدوات حديثة وأسلحة لا لزوم لها ، والحكام الفاسدين ، والتدخل الوحشي من جانب الولايات المتحدة في شئون البلدان الصغيرة والضعيفة .

ومن بين الأوهام الكثيرة التي كتب لها البقاء في إطار نظرية التحديث وَهْمٌ يرتبط ارتباطاً خاصاً فيما يبدو بالعالم الإسلامي ، ألا وهو أن الإسلام كان يعيش ، قبل قدوم الولايات المتحدة ، في نوع من الطفولة اللازمية التي يتحصنُ فيها ضد التنمية الحقيقية بمجموعة بالية قديمة من الخرافات ، وأن له كَهَانًا ونُسَاخًا يتسمون بالغرابة ويحولون بينه وبين الانتقال من العصور الوسطى إلى العالم الحديث . وفي هذا يتفق الاستشراق اتفاقاً دقيقاً مع نظرية التحديث . فإذا صح ما قالت به دراسات المستشرقين على مر السنين من أن المسلمين لا يزيدون عن كونهم أطفالاً يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويتعرضون لطغيان تكوينهم العقلي نفسه ، وطغيان ”علمائهم“ وقادتهم السياسيين ذوى النظرات الوحشية ،

■ تصوير الإسلام في الأخبار ■

بحيث يقاومون الغرب والتقدم ، أفلا يستطيع كل من يجدر بالثقة فيه من المتخصصين في العلوم السياسية والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع أن يثبت أنه من الممكن الأخذ بأسلوب حياة شبيه بأسلوب الحياة الأمريكية في إطار الإسلام ، إذا سنحت فرصة معقولة ، عن طريق البضائع الاستهلاكية والدعاية المعادية للشيوعية والقادة ”الصالحين“ ؟ ولكن الصعوبة في حالة الإسلام ترجع إلى أن الغرب لم ينجح يوماً في استرضائه أو هزيمته ، بخلاف ما حدث في الهند أو في الصين ، فلقد استمر الإسلام (أو استمرت إحدى صوره) - ولأسباب يستعصى إدراكها ، فيما يبدو ، دائماً على الباحثين ، في السيطرة على المؤمنين به ، والذين تَرَدَّدَ القول بانتظام بأنهم عازفون عن تقبل الواقع ، أو على الأقل ذلك الجانب من الواقع الذي يمكن إثبات تفوق الغرب فيه .

وهكذا استمرت جهود التحديث على امتداد العقدين اللذين أعقبا الحرب العالمية الثانية وأصبحت إيران في الواقع قصة نجاح التحديث المثالية وأصبح حاكمها هو الزعيم الذي تفوق في ”التحديث“ . وأما عن سائر العالم الإسلامي ، سواء كان الأمر يعنى القوميين العرب ، أو جمال عبد الناصر في مصر ، أو سوكارنو في إندونيسيا ، أو الوطنيين الفلسطينيين ، أو جماعات المعارضة الإيرانية ، أو آلاف المجهولين من الدعاة الإسلاميين ، أو الجماعات الإسلامية ، أو أرباب المذاهب الإسلامية المختلفة ، فلقد كان مصيره جميعاً إما المعارضة أو التجاهل من جانب

الدارسين الغربيين الذين وجهوا استثمارات ثقيلة إلى نظرية التحديث والمصالح الاستراتيجية والاقتصادية الأمريكية في العالم الإسلامي .

ولقد قدم الإسلام في عقد السبعينيات المتفجر دليلاً جديداً على العناد المتأصل فيه ، فلقد شهد ذلك العقد ، مثلاً ، الثورة الإيرانية ، التي لم تكن موالية للشيوعية أو للتحديث ، وكان من المحال تفسير ما فعله من أسقطوا الشاه وفقاً للقواعد التي تفترضها سلفاً نظرية التحديث ، إذ لم يظهروا امتنانهم ، فيما يبدو ، للمزايا التي جاء بها التحديث للحياة اليومية (مثل السيارات ، والجهاز العسكري والأمنى الهائل ، والنظام المستقر) ولم يكثرثوا ، فيما يبدو ، لمداهنات الأفكار ”الغربية“ على الإطلاق^(٣١) . أما ما أفضّ مضجع الباحثين في موقف هؤلاء ، وخصوصاً في موقف الخوميني ، فهو رفضهم بضراوة تقبل أى أسلوب سياسى (أو حتى عقلانى) لم يضعوه بأنفسهم . وقبل كل شيء ، كان استمسكهم بالإسلام يتضمن قدراً محيراً من التحدى . ومن المفارقات أنه لم يفتن إلا قلة ممن تحدثوا في الغرب عن البدائية ”الإسلامية“ واعتماد الإسلام على طرائق المنطق السائدة في العصور الوسطى ، إلى أن إسرائيل التي يحكمها ييجين ، والتي تقع على مبعده أميال إلى الغرب من إيران ، تطبق نظاماً على استعداد كامل لإقامة أفعاله على أسس السلطة الدينية ووفقاً لمذهب لاهوتى بالغ الرجعية^(٣٢) . بل ولم يفتن إلا أقل من هذه القلة من المعلقين ، الذين كانوا ينعون الفورة الظاهرة للتدين عند المسلمين ، إلى

■ تصوير الإسلام في الأخبار ■

ارتباطها بفورة مماثلة في 'أديان التليفزيون' والتي اعتنقتها الملايين ، في الولايات المتحدة ، أو إلى أن اثنين من المرشحين الرئيسيين لرئاسة الجمهورية عام ١٩٨٠ أخذوا يعلنان أنهما ولدا من جديد في كنف المسيحية التي يخلصان لها أعمق إخلاص .

وهكذا لم تعد الحميّة الدينية تُنسب إلى أي دين سوى الإسلام، حتى بعد انتشار المشاعر الدينية الفياضة وبروزها في كل مكان : ويكفي أن نذكر كيف أسرفت الصحف ' المتحررة' في الحديث عن الشخصيات الدينية التي تقر بعدم 'تحررها' مثل سولجنتسين أو البابا يوحنا بولس الثاني حتى ندرك مدى الانحياز في الموقف العدائي تجاه الإسلام^(٣٣). وهكذا أيضًا تمكن الغربيون من تفسير سلوك معظم الدول الإسلامية قائلين إنه يمثل 'تقهقراً' للإحتماء بالإسلام ، من المملكة العربية السعودية التي رفضت المصادقة على اتفاقيات كامب دافيد فافترض المعلقون أنها لجأت في ذلك إلى تطبيق منطق إسلامي خاص، إلى باكستان وأفغانستان والجزائر . وهكذا نرى كيف أصبح العالم الإسلامي يختلف ، في العقل الغربي بصفة عامة وفي عقل الولايات المتحدة بصفة خاصة، عن سائر مناطق العالم التي يمكن تحليل مواقفها من زاوية الحرب الباردة. وعلى سبيل المثال بدا من المحال الحديث عن المملكة العربية السعودية والكويت باعتبار أنهما ينتميان "للعالم الحر" ، بل وحتى إيران إبان حكم الشاه ، وعلى الرغم من التزامها القاطع بمعاداة الشيوعية ، إذ كان من المحال أن نعتبرها تنتمي حقاً إلى "جانبنا" بالصورة التي تنتمي بها فرنسا وبريطانيا مثلاً . ومع ذلك

فقد دأب واضعو السياسات فى الولايات المتحدة على الحديث عن "فقدان" إيران ، مثلما كانوا يتحدثون فى العقود الثلاثة الأخيرة عن "فقدان" الصين وفيتنام وأنجولا . زد على ذلك أنه كان من سوء الحظ الشديد للبلدان الإسلامية فى منطقة الخليج العربى أن ينظر إليها الأمريكيون المتخصصون فى إدارة الأزمات باعتبارها أماكن جاهزة للتدخل العسكرى الأمريكى . وهكذا قال جورج بول فى مجلة نيويورك تايمز ماجازين بتاريخ ٢٨ يونيو ١٩٧٠ ، بلهجة التحذير ، إن "مأساة فيتنام" يمكن أن تؤدى إلى "الاسترضاء والعزلة" الداخلية ، ولكن للولايات المتحدة مصالح بالغة الأهمية فى الشرق الأوسط ، إلى الحد الذى يقتضى من الرئيس "تعليم" الأمريكيين ما يلزم بشأن إمكان التدخل العسكرى هناك^(٣٤) .

ولابد من ذكر أمر آخر هنا ، ألا وهو الدور المنوط بإسرائيل فى تمثيل رؤية الغرب ، وخصوصاً رؤية الولايات المتحدة للعالم الإسلامى منذ الحرب العالمية الثانية . ففى المقام الأول يندر أن تشير الصحافة الغربية إلى الطابع الدينى لإسرائيل ، وهو الطابع الذى تصرح به إسرائيل نفسها ، ولم نشهد إلا فى الآونة الأخيرة إشارات سافرة إلى التعصب الدينى الإسرائيلى . وكانت كلها خاصة بمحمّسى منظمة غوش إيمونيم الدينيين ، والذين كان نشاطهم الرئيسى ينحصر فى استخدام العنف لإنشاء مستوطنات غير مشروعة فى الضفة الغربية . ولكن معظم الإشارات إلى

غوش إيمونيم فى الغرب تتجاهل ببساطة حقيقة 'مزعجة' وهى أن حكومة حزب العمل "العلمانية" كانت أول من أقر إنشاء المستوطنات غير المشروعة فى الأراضى العربية المحتلة ، أى إن الأمر لا يقتصر على المتعصبين الدينيين الذين يثيرون القلاقل حالياً . وأعتقد أن هذا الإعلام المنحاز دليل على الأسلوب الذى استخدمه الغرب فى الإيحاء بأن إسرائيل - التى يقولون إنها "الديموقراطية الوحيدة" فى الشرق الأوسط ويؤكدون أنها "حليفنا الوثيق" - تمثل النموذج المقابل للإسلام^(٣٥) . وهكذا ظهرت إسرائيل بمظهر معقل الحضارة الغربية الذى أقيم (مع قدر كبير من التهليل له وتهنئة ذواتهم عليه) وسط البرية الإسلامية . وثانياً نجد أن عيون الغرب أصبحت ترى أن أمن إسرائيل يوازى صد غائلة الإسلام ، وهو ما يريح الغربيين ، وترسيخ الهيمنة الغربية إلى ما لا نهاية ، وتبيان فضائل التحديث ومزاياه . وهكذا نرى أن ثلاث مجموعات من الأوهام تدعم وتولد بعضها البعض فى سبيل تعزيز صورة الغرب لذاته ونشر سيطرة الغرب على الشرق ، وهى : صورة الإسلام، وأيديولوجية التحديث ، وتأكيد القيمة العامة لإسرائيل عند الغرب .

وبالإضافة إلى ذلك ، وحتى تصبح "مواقفنا" إزاء الإسلام فى غاية الوضوح ، نشأ جهاز كامل للإعلام ووضع السياسات فى الولايات المتحدة بحيث يعتمد على هذه الأوهام وينشرها على نطاق واسع . فإذا بشرائح عريضة من المثقفين المتحالفين مع رجال

الاستراتيجيات الجغرافية السياسية يشتركون فى الإدلاء بآراء مفصلة مُسَهبة عن الإسلام ، وعن النفط ، وعن مستقبل الحضارة الغربية، وعن الكفاح فى سبيل الديمقراطية ضد القلاقل والإرهاب . وللأسباب التى ناقشتها آنفاً ، يقوم المتخصصون فى الإسلام بتغذية هذا التيار الكبير ، على الرغم من الحقيقة التى لا يمكن إنكارها وهى أن جانباً مما يجرى فى الدراسات الإسلامية الأكاديمية قد أصابته عدوى الرؤى الثقافية والسياسية التى نجدتها فى الجغرافيا السياسية وأيديولوجيا الحرب الباردة . وتحت ذلك المستوى بقليل تأتى أجهزة الإعلام الجماهيرية ، وهى التى تأخذ من الوجدتين الآخرين من وحدات الجهاز ما يمكن ضغطه بأقصى سهولة ممكنة فى صور محددة، ومن هنا تأتى الصور الكاريكاتورية، والجماهير الغوغائية المخيفة ، والتركيز على الحدود (أى العقوبات) ”الإسلامية“ وهلمّ جرّاً . وتترأس هذا كله المؤسسات ذات النفوذ الجبار ، مثل شركات النفط ، والشركات العملاقة ، والشركات المتعددة الجنسيات ، وأجهزة الدفاع والاستخبارات ، والفرع التنفيذى للحكومة . وعندما قضى الرئيس كارتر عطلة رأس السنة الأولى بعد توليه منصب رئيس الجمهورية عام ١٩٧٨ مع شاه إيران ، وقال إن إيران ”جزيرة استقرار“ كان يتحدث بلسان القوة المحتشدة لهذا الجهاز الجبار ، وهو الذى يمثل مصالح الولايات المتحدة ويغطى الإسلام فى الوقت نفسه .

ثانياً: جماعات التفسير:

ومن الجدير بنا في هذا السياق أن ننظر في أساليب "انتفاع" واضعي الاستراتيجيات السياسية الجغرافية والمثقفين الليبراليين بصورة الإسلام في الولايات المتحدة ، فليس من قبيل المبالغة أن نقول إن ذكر "الإسلام" نادراً ما كان يرد في المجالات الثقافية أو الإعلامية قبل الارتفاع المفاجئ في أسعار النفط الذي أعلنته منظمة "أوبك" في أوائل عام ١٩٧٤ . كنا نشاهد ونسمع عن العرب والإيرانيين ، وعن الباكستانيين والأتراك ، لكنه كان من النادر أن يشير أحد إلى "المسلمين" . لكن الارتفاع الهائل في تكلفة النفط المستورد أصبح يرتبط في عقول الجماهير بمجموعة من الأمور الكريهة : اعتماد الأمريكيين على النفط المستورد (وهو ما كان يشار إليه عادة بعبارة "الوقوع تحت رحمة منتج النفط الأجانب") ؛ والخوف من أن ينتقل التشدد من الخليج العربي إلى الفرد الأمريكي ؛ وقبل هذا وذاك إشارة - كأنما هي صادرة من قوة جديدة لم نكن نعرف هويتها قبل الآن - تقول إن الطاقة لم تعد "ملكاً لنا" ما علينا إلا أن نمد أيدينا فتنالها . وسرعان ما أصبحت بعض الكلمات ، مثل "الاحتكار" و"الكارتيل" (أي اتفاق المنتجين) و"التكتل" ، شائعة بصورة مفاجئة وإن كان شيوعها مقصوراً على سياسات مختارة ، رغم أنه كان من أندر النادر أن يشير أحد إلى المجموعة الصغيرة من الشركات الأمريكية المتعددة الجنسيات باعتبارها "كارتيل" ، إذ اقتصر الكتاب

والمُتحدِّثون على إطلاق تلك التسمية على أعضاء منظمة "أوبك". ولكن أهم في الأمر هو أن تعرّض الاقتصاد لهذه الضغوط الجديدة قد أدى ، فيما يبدو ، إلى نشوء موقف ثقافي وسياسي لا يقل عن هذه الضغوط جدّةً . فبعد أن كانت الولايات المتحدة هي القوة المهيمنة في العالم أصبحت تتعرض لحصار مثير أعلن انتهاء فترة "ما بعد الحرب" على حد وصف فريتز ستيرن للموقف الحالي في مجلة "كومنتاري"^(٣٦) .

وكان من أهم الكتابات الأولى التي تحدثت عن التغيير الناشئ سلسلة المقالات التي نشرتها مجلة كومنتاري في النصف الأول من عام ١٩٧٥ . جاءت أولاً مقالة كتبها روبرت و. تاكر بعنوان "النفط : قضية التدخل الأمريكي" (يناير) ثم جاءت مقالة دانييل باتريك موينيهان بعنوان "الولايات المتحدة تواجه المعارضة" (مارس) وعنوان كل مقالة يفصح بوضوح قاطع عما تدعو إليه . ثم أصبح موينيهان مندوباً يمثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة حيث ألقى خطابات كثيرة يحذر فيها العالم قائلاً إن "الديمقراطيات الغربية" لا تملك أن تقف مكتوفة الأيدي إزاء ما تتعرض له من إذلال على أيدي مجموعة من الدول ذات النظم الاستبدادية ، وهي من المستعمرات السابقة ، ولا تمثل إلا أغلبية {في الجمعية العامة} . ولكن حدود القضية كان قد سبق للكاتبين وضعها في مقالتهما بمجلة "كومنتاري" .

ولم يشر أى من الرجلين إلى الإسلام على الإطلاق ، ومع ذلك فإن ”الإسلام“ ، بالصورة التى ظهر بها بعد ذلك بعام واحد ، بدأ يلعب الدور الذى رسمته له التغيرات المفاجئة وغير المقبولة التى وصفها تاكر وموينهان . وأدت هذه بدورها إلى رسم صورة ما كان الكثيرون من الأمريكيين يرون به فى الواقع ، ومعانى الألفاظ التى يعبرون بها عنه ، وبناء التركيب ’الدرامى‘ لعناصره . وهكذا بدا أن الولايات المتحدة ، ولأول مرة فى تاريخها ، تتعرض لتطبيق مبدأ المساواة عليها من الخارج ، بتعبير تاكر ، وإذ بنا نواجه بعض البلدان الأجنبية التى وصفها موينهان بأنها ، فى جوهرها ، كيانات أوجدتها الإمبريالية البريطانية ، وقد استعارت أفكارها وهويتها من الاشتراكية البريطانية ، كما إنها تقيم فلسفاتها على أساس نزع الملكية أو توزيع الثروة إذا لم يتيسر نزع ملكيتها ، ولا يهتمها سوى المساواة ، لا الإنتاج ، ولا الحرية فيما يبدو . وقال موينهان ”إننا حقا من حزب الحرية“ ثم أضاف بنبرة غطرسة عسكرية ”وقد ندهش لمدى الطاقات الهائلة التى نستطيع إطلاقها إذا رفعنا هذه الرايات“ (٣٧) . وقال تاكر إن هذه البلدان الجديدة ، ومن بينها الدول المنتجة للنفط ، تريد إزالة أوجه التفاوت ”بيننا“ و ”بينهم“ ، وذلك - فى رأى تاكر - من شأنه أن يأتى بما ينذر بالسوء من ”تكافل“ وحبذا لو أخذنا أهبتنا لمقاومته ، بغزو هذه الدول ، إذا دعت الضرورة (٣٨) .

ويجدر بنا الإشارة بصفة خاصة إلى عدد من ’الاستراتيجيات‘ المطبقة فى هاتين المقالتين ، إذ يتجاهل تاكر فى حديثه تحديد أى

دولة من الدول المنتجة للنفط ، مثلما يتجاهل موينيها في حديثه ذكر بلد بعينه من بلدان العالم الثالث الجديدة ، أى إنه يتجاهل أن لأى منها هوية ، وتاريخاً ، ومساراً وطنياً خاصاً بها . فالكاتبان يشيران إليها وحسب ، ويوجزان خصائصها باعتبارها وحدة جماعية ، ثم لا يعودان إلى ذكرها . ولا تزيد المستعمرات السابقة لديهما عن كونها مستعمرات سابقة ، والبلدان المنتجة للنفط تظل دائماً بلداناً منتجة للنفط . وفيما عدا هذين الوصفين ، تظهر هذه البلدان فى صورة البلدان المجهولة وذات العناد الغريب بل والذى ينذر بالخطر ، كما إن مجرد وجودها يبدو كأنما يمثل خطراً مضمراً أو ضمناً ”لنا“ . ونرى ثانياً أن هذه البلدان لا تزيد عند الكاتبين عن صور مجردة يضعان فى مقابلها صفاً من دول العالم التى سبق لها الرسوخ ، إذ يقول تاكر فى مقال لاحق عن النفط والقوة ”إننا نواجه فجأة احتمال قيام مجتمع دولى يستحيل فيه ضمان التوزيع المنظم لما اصطلاح على تسميته ’بالباتج العالمى‘ ، وذلك لأن الأطراف الرئيسية التى تتمتع بالقوة بين الدول المتقدمة والرأسمالية قد لا تصبح الأطراف الرئيسية التى تبتكر أصول النظام وترسى قواعده“^(٣٩) وما دامت هذه البلدان الجديدة لا تأتى بالنظام ولا ترسى قواعده ، فلا بد أن تكون عوامل زعزعة له . ونرى ثالثاً أنها عوامل زعزعة لأنها ، كمجموعة ، لا تمثل - ولا تستطيع أن تكون - سوى قوة معادلة عكسية ومضادة فى الاتجاه ”لنا“ .

وكان ما يقوله تاكر وموينيها يتبع إلى حد ما منطق التريمة ’المقدسة‘ للحالة النفسية فى الغرب ، من حيث الشعور بالحصار،

وهى التريمة التى تعاود الظهور من وقت إلى آخر فى التاريخ الحديث للغرب . فنحن نراها مثلاً فى كتاب هنرى ماسيس بعنوان الدفاع عن الغرب (١٩٢٧) وفى المقال الذى كتبه أنتونى هارتلى منذ عهد قريب بعنوان ”الرابطه الهمجية : عن ’العنصر المدمر‘ فى تاريخ الحضارة“^(٤٠) ولكن الذى يقف ضدّ الغرب عند تاكر وموينيهان ليس شيئاً معروفاً ”لنا“ ، على نحو ما يستطيع الإمبريالى الأوروبى أن يتحدث عن ”الشرقيين“ باعتبارهم ”أناساً نعرفهم“ وذلك ”لأننا“ كنا نحكمهم فى الواقع فى يوم من الأيام فعلاً . وأما أفضل ما يصف به موينيهان هذه الدول الجديدة فى العالم الثالث فهو أنها صور مقلّدة ، لا نعرفها إلا من خلال النموذج الذى تُقلّده ، لا بخصائص ذاتية تحدد هويتها المستقلة . ولا يبدو أن تاكر يشير إلى شىء محدد حين يتحدث عن ’المجتمع الدولى‘ الجديد إلا القول بأنه ينتهك النظام القديم . ولكن ترى من يكون هؤلاء الناس ، وما هى رغباتهم الفعلية ، وما أصولهم الجغرافية ، ولماذا يفعلون ما يفعلون ؟ هذه أسئلة لم تطرح ومن ثم فلا إجابة لها .

وفى الوقت نفسه على وجه التقريب كانت الولايات المتحدة آخذة فى التقهقر والخروج من الهند الصينية . وعلى كثرة ما كتب فى الآونة الأخيرة عما يسمى ”بالظواهر المرصّية لفترة ما بعد فيتنام“ فى السياسة الأمريكية ، فما أقل عدد الذين لاحظوا أن تطبيق المزايم القائلة بأن المصالح الأمريكية فى البقاع النائية القصية تحتاج إلى الدفاع العسكرى عنها قد انتقل برمته من فيتنام إلى

مكان أقرب ، وهو العالم الإسلامى . وصاحب ذلك تضعف ثقة الليبراليين تدريجياً بقضايا العالم الثالث بصفة عامة ، وخصوصاً تلك القضايا التى لم تحقق ، فيما يبدو ، ما انعقد عليها من رجاء . ويخطر على البال فى هذا الإطار مثلاً الكتاب الذى كتبه جيرارد شالياند بعنوان ثورة فى العالم الثالث ، الذى كان بمثابة صرخة ألم من قلب رجل شهير ، ساند حركات التحرير الفيتنامية ، والكوبية ، والأنجولية ، والجزائرية والفلسطينية . وقد اختتم هذا الكتاب الذى وضعه عام ١٩٧٧ بنتيجة مفادها أن معظم الجهود المناهضة للاستعمار قد أدت إلى نشوء دول غير متميزة ، تتوسل بالقمع ، ولا تكاد تستحق حماس أبناء الغرب لها^(١) . وقد يخطر على البال أيضاً ما نشرته مجلة 'ديسنت' (الانشقاق) فى عددها الصادر فى شتاء عام ١٩٧٨ ، ويتضمن الندوة التى دعت المجلة إلى عقدها ودارت حول السؤال التالى "هل تبرر الأحداث الأخيرة فى كمبوديا أى انتصار قوات الخميريين الحمر وما ورد من أنباء الفظائع التى تلتها إعادة النظر فى معارضتنا للحرب فى فيتنام ؟" وقد يدل السؤال نفسه ، وإن لم تدل الإجابة أيضاً ، على حالة التراجع عن الحماس الذى امتازت به الستينيات ، وما حل محله من ضيق يثير القلق إزاء الحقائق الدولية الجديدة ، وهى التى تنذر فى مجموعها بكارثة وشيكة الوقوع . وقد استند المعلقون ، مُحَقِّقِينَ ، فى إقامة هذه الحجة إلى الفشل العام للنظام الاقتصادى الدولى .

وباختصار ، كان الإحساس الذى راود من يسمعون الأنباء ويستعملون النفط إحساساً غير مسبوق بإمكان ضياع شيء ما وزعزعة شيء قائم ، دون أن يكون له وجه معروف أو هوية ظاهرة . فكل ما عرفناه هو أننا نوشك أن نفقد شيئاً لم نتساءل يوماً عن إمكان ضياعه . وإذن فلن نستطيع بعد الآن قيادة سياراتنا كما كنا نفعل؛ وأسعار النفط ارتفعت كثيراً ؛ ومن ثم فإن أسباب راحتنا وعاداتنا تتعرض ، فيما يبدو ، لتغير جذرى وثقيل الوطأة . بل إن النفط نفسه ، وهو موضوع القضية فى الواقع ، ظلت صورته غامضة بالمقارنة بخطر فقدانه ، فلم يكن أحد يعرف ، فيما يبدو، إذا ما كانت إمدادات النفط قد تناقصت فعلاً ، أو إذا ما كانت الصفوف الطويلة من السيارات فى محطات الوقود قد أتت بها الفزع ، أو إذا ما كانت هوامش الربح التى ترتفع ارتفاعاً باهظاً فى أيدي أصحاب شركات النفط لها صلة ما بالأزمة^(٤٢) . بل بدا أن الأزمة كانت تتصل اتصالاً أوثق بأشياء أخرى . فلقد بدأت صور العرب بأرديتهم التقليدية ، وأموالهم الخيالية ، وأسلحتهم الشاكية ، تقتحم العيون فى كل مكان فى الغرب . وعندها تيسر إرجاع التأكيد الجديد على الذات الإسلامية إلى ما أطلق عليه البعض حرب رمضان فى أكتوبر ١٩٧٣ ، ففى تلك الحرب تمكن الجيش المصرى من قهر وعبور خط بارليف المنيع الرهيب ، ولم يفر الجنود العرب على نحو ما حدث فى عام ١٩٦٧ ، بل أجادوا القتال بصورة أدهشت الجميع . ثم ظهرت منظمة التحرير الفلسطينية فى الأمم المتحدة فى عام ١٩٧٤ ،

وأصبح الشيخ يمانى شخصاً ذا مهابة وسلطان ، دون أن يُعرف لذلك سبب سوى أنه مسلم وأنه ينتمى إلى المملكة العربية السعودية ذات النفط الوفير . وأصبح شاه إيران أيضاً زعيماً عالمياً ، ولتنظر إلى إندونيسيا والفلبين ونيجيريا وباكستان وتركيا ، وبلدان مختلفة نى الخليج العربى ، والجزائر والمغرب ، ولتأمل كيف كانت قدرتها المفاجئة على 'تعكير صفو' الولايات المتحدة فى منتصف السبعينيات تتلازم بصورة تدعو إلى القلق مع ندرة المعلومات المتاحة عن ماضيها وهويتها . فإذا بأعداد كبيرة من الدول الإسلامية ، وشخصياتها البارزة ، وحضورها على المسرح الدولى ، تنتقل فى وعى الجماهير ، ودون أن يدرك ذلك أحد ، من مكانة من لا يكاد يدرك الناس وجوده إلى مكانة من يتصدر نشرات الأخبار .

ولكن الانتقال لم يحدث فى الواقع من مكانة إلى مكانة ، ولم تكن أى شريحة يُعتدُّ بها من السكان على استعداد لتفسير أو تحديد ما بدا فى صورة الظاهرة الجديدة ، باستثناء البعض - مثل موينيهان وتاكر - الذين استنبطوا نتائج تاريخية عالمية منها ، فى إطار يقتصر على ذكر الإسلام دون أن يأخذه حقا فى اعتباره . وكان من نتائج صورة الإسلام اليوم أن أصبحت ، فى كل مكان يصادفها المرء فيه ، صورة طليقة ومباشرة. فالافتراض الذى لا يذكر أحد هو أولاً أن اسم العلم "الإسلام" يدل على شيء بسيط يمكن للمرء أن يشير إليه مباشرة مثلما يشير إلى "الديموقراطية" ، أو إلى شخص من الأشخاص أو إلى مؤسسة

■ تصوير الإسلام فى الأخبار ■

مثل الكنيسة الكاثوليكية . ونحن نرى هذا الطابع المباشر مثلاً في قصة غلاف مجلة تايم التي أشرنا إليها آنفاً ، وإن كان يتجلى بصورة تدعو إلى قلق أشد في كل ما يظهر بصورة منتظمة عند الإشارة إلى الإسلام في المستويات العليا من المناقشات الثقافية العامة ، وذلك في معظم الأحوال باعتباره موضوعاً من الموضوعات التي تحظى بالتأمل الرزين الجاد في المجالات المهمة للعلوم الإنسانية ، والتي أصبحت لا تختلف كثيراً في هذا الصدد عن أجهزة الإعلام الجماهيرية بسبب التغيرات التي سبق لى وصفها في التفكير الثقافي والسياسي الجغرافي .

ومن المقالات الجديدة بالذكر المقال الذي كتبه مايكل وولتزر في مجلة نيو ريبليك ، العدد الصادر بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٧٩ ، بعنوان ”الانفجار الإسلامي“ ، ويناقش فيه باعتباره ’غير متخصص‘ ، على حد قوله ، عددًا هائلاً من أحداث القرن العشرين المهمة رغم أنها (كما يقول) تتسم بالعنف ويؤسف لها في معظمها - في الفلبين وفي إيران وفي فلسطين وغيرها - ويقول إننا نستطيع تفسيرها باعتبارها نماذج لشيء واحد وهو الإسلام . ويقول وولتزر إن جميع هذه الأحداث تشترك في أنها أولاً تكشف عن نسق دائم للقوة السياسية التي تتعدى على الغرب، وفي أنها جميعاً ، ثانياً ، من إفراز حمية معنوية مخيفة (إذ يؤكد وولتزر بنبرات قاطعة أن مقاومة الفلسطينيين للاستعمار الإسرائيلي ذات طابع ديني ، أي إنها غير سياسية أو مدنية أو إنسانية) ؛ وتشترك

هذه الأحداث ثالثاً في أنها "تخطم الواجهة الاستعمارية الهشة من الليبرالية أو العلمانية أو الاشتراكية أو الديمقراطية". ويضيف أن هذه الخصائص المشتركة الثلاثة تكشف عن شيء واحد هو "الإسلام"، فذلك "الإسلام" قوة تتجاوز المسافات الزمنية والمكانية وهي التي كان يمكن أن تفصل بين هذه الأحداث جميعاً. ولنا أن نلاحظ أيضاً أنك - حسبما يقول ولتزر - إذا أشرت إلى الإسلام فإنك تلغى، تلقائياً، كلاً من المكان والزمن، وتستبعد التعقيدات السياسية مثل الديمقراطية والاشتراكية والعلمانية، وتستبعد الضوابط الأخلاقية. وبنهاية المقال نجد أن ولتزر قد أفنec نفسه (على الأقل) أنه عندما يذكر كلمة "الإسلام" فإنه يشير إلى شيء حقيقى مادي يسمى الإسلام، أى إلى شيء له وجود حاضري إلى الحد الذي يجعل من اتخاذ أى وسيط أو وضع أى صفات مميزة بمثابة اهتمام بتوافه لا داعى لها. ويرتبط بافتراض هذا الطابع المباشر نزوع يمثل القرنين المحتوم، ألا وهو النزوع إلى الحديث عن الإسلام باعتباره شيئاً بلا تاريخ خاص به، وأما إذا سلم أحد بأن له تاريخاً، فسوف يبدو أن هذا التاريخ لا علاقة له بالموضوع. وهكذا تكتسب حجج المحافظين، مثل موينيهان وتاكر، ما يؤكدها ويغذيها على أيدي الليبراليين اليساريين.

ومن الجوانب الأخرى للصورة الجماهيرية للإسلام في الإطار الفكرى والجغرافى السياسى الجديد هو أنه دائماً ما يظهر في علاقة مواجهة مع كل ما يعتبر طبيعياً، غريباً، مألوفاً في الحياة اليومية،

ويتمى "إلينا". وهذا ولا شك هو الانطباع الذى نخرج به من قراءة ما يكتبه كُتاب مثل وولترز ، أو من قراءة ما كتبه الباحثون الذى يعتمد عليهم وولترز . بل إن مفهوم وجود عالم إسلامى - وهو الموضوع الذى تناولته فلورا لويس فى أربع مقالات متتابعة فى صحيفة نيويورك تايمز فى ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، و ٣١ ديسمبر ١٩٧٩ (والذى سوف أتحدث عنها فى الفصل الثانى) - هذا المفهوم نفسه يقوم ضمناً على عدائه لعالمنا "نحن". بل إن الدافع على كتابة المقالات نفسه كان وقوف الإسلام (أى أولئك الإيرانيين الذين يحتجزون الرهائن الأمريكيين) ضدنا "نحن" وتعمق هذا الإحساس عندما قامت فلورا لويس بتعدد انحرافات الإسلام الظاهرية عن المعايير "الطبيعية" مثل الخصائص التى تتميز بها اللغة العربية ، و"غرائب" معتقداته ، والشمولية المتزمتة التى يسيطر بها الإسلام على المؤمنين به ، وهلم جراً . فإذا كان الحضور المباشر للإسلام يجعله يبدو قريب التناول بصورة مباشرة، فإن انحرافه عن الواقع المألوف والمعايير المعهودة يجعله يقف ضدنا مباشرة ، وبصورة جذرية ، ويمثل تهديداً لنا . والنتيجة المجردة هو أن الإسلام قد اكتسب مكانة متعددة الأشكال لواقع ملموس يسهل التعرف عليه ويتيح لمن يريد أن يصدر الكثير من الأقوال بشأنه ويضع له استراتيجيات منطقية كثيرة (معظمها يضافى عليه صفات بشرية) وذلك دون قيود أو ضوابط .

وهكذا تستطيع بيسر فى رأى هؤلاء أن تعادل بين الإسلام

وبين أى مسلم، وأقرب مرشح لهذه المعادلة هو آية الله الخومينى . وبعد ذلك لك أن تمضى فى مقارنة الإسلام بكل شىء تنفر منه ، بغض النظر عما إذا كان قولك يتسم بالدقة الواقعية أم لا . والمثال على ذلك قيام دار نشر مانور بوكس بطبع نسخة شعبية من كتاب الحكومة الإسلامية الذى كتبه الخومينى ، ووضعت له عنواناً خاصاً هو ”كفاحى بقلم آية الله الخومينى“ ، والمعروف أن كفاحى هو عنوان الكتاب الذى وضعه أدولف هتلر عن حياته ، كما أرفق الناشر بالكتاب مقدمة كتبها رجل يدعى جورج كاربوتزى ، وهو من كبار الصحفيين فى نيويورك بوست ، وهو يزعم لأسباب لا يعرفها أحد سواه أن الخومينى عربى وأن الإسلام نزل فى القرن الخامس قبل الميلاد ، كما يبدأ تحليله بعبارات يحلو وقعها فى السمع على النحو التالى :

إن آية الله روح الله الخومينى ، مثل أدولف هتلر وإن اختلف الزمن ، طاغية يضمّر الكراهية ويبث الغواية ويمثل تهديداً للنظام والسلم فى العالم والفرق الرئيسى بين صاحب كفاحى ومؤلف هذا الكتاب الغث ، أى الحكومة الإسلامية ، هو أن الأول كان ملحدًا والثانى يتظاهر بأنه مؤمن بالله^(٤٣) .

وأمثال هذه الصور المرسومة للإسلام ما فتئت تشهد على الولع بتقسيم العالم إلى قسمين أحدهما يناصر أمريكا والثانى يناصبها العداء (أو بين من يعادون الشيوعية وبين من يناصرونها)

■ تصوير الإسلام فى الأخبار ■

وعلى العزوف عن الإشارة إلى التحولات السياسية ، وعلى فرض أنساق وقيم إما أنها تكشف عن تعصب عرقى وإما أنها لا صلة لها بالموضوع ، أو أنها تجمع بين هذا وذاك ، وعلى التشويه الخالص للمعلومات ، والتكرار ، وتحاشى الدخول فى التفاصيل ، والافتقار إلى المنظور الأصيل . ويمكن إرجاع هذا كله لا للإسلام بل إلى جوانب معينة فى المجتمع الغربى وإلى أجهزة الإعلام التى تتجلى فيها هذه الفكرة عن ”الإسلام“ مثلما تعمل هذه الأجهزة على نشرها . والنتيجة هى أننا أعدنا تقسيم العالم إلى شرق وغرب ، وهى الأطروحة الاستشراقية القديمة دون تغيير يذكر ، وهو ما يزيد من إحكام الغشاوة التى تمنعنا لا من رؤية العالم فقط بل من رؤية أنفسنا أيضاً وإدراك ما آلت إليه حقاً علاقتنا مع ما نسميه العالم الثالث .

وقد أدى ذلك إلى بعض العواقب التى تكتسب قدراً ما من الأهمية ، أولها أن الإسلام قد نشأت له صورة معينة ، لا تزيد عن كونها صورة . وثانيها هو أن معناها أو رسالتها قد استمرت ، بصفة عامة ، أبعادها المحدودة والنمطية ، وثالثها نشأة وضع سياسى يقوم على المواجهة ، إذ يضعنا ”نحن“ فى مواجهة ”الإسلام“ . ورابعها هو أن هذه الصورة المختزلة للإسلام كان لها آثارها التى نستطيع التحقق منها فى عالم المسلمين نفسه . وخامسها هو أن صورة الإسلام فى أجهزة الإعلام والموقف الثقافى إزاءه يستطيعان أن يكشفنا لنا عن الكثير ، لا عن ”الإسلام“ فحسب ،

بل أيضاً عن المؤسسات القائمة في إطارنا الثقافي ، والمناهج السياسية المتبعة في الإعلام والمعرفة والسياسات القومية .

ولكن رصدى لهذه الأشياء كلها عن الصورة العامة للإسلام التي تشيع اليوم ، لا يقصد به الإيحاء بوجود إسلام ” حقيقي “ في مكان ما في دنيا الواقع قامت أجهزة الإعلام بتشويهه مدفوعة بدوافع دنيئة . لا أقصد هذا على الإطلاق . فالإسلام يمثل للمسلمين ، مثلما يمثل لغير المسلمين ، حقيقة موضوعية وذاتية في الوقت نفسه ، فالتناس ينشئون هذه الحقيقة في عقيدتهم ، وفي مجتمعاتهم ، وتاريخهم ، وتقاليدهم ، وأما غير المسلمين من الأجانب فهم مضطرون إلى أن يثبتوا ، بمعنى من المعاني ، هوية ما يشعرون أنه يواجههم بصورة جماعية أو فردية ، وأن يجسدوه وأن يطبعوا هذه الهوية بطابع ما - ومعنى هذا أن صور الإسلام عند أجهزة الإعلام ، وعند الباحث الغربي ، وعند الصحفي الغربي ، وعند المسلم ، ثمرة فعل إرادي وتفسير معين ، وهما من الأفعال التي لا تحدث إلا في سياق تاريخي ، ولا يمكن لنا إلا أن ننظر إليها في هذا الإطار التاريخي باعتبارها من أفعال الإرادة والتفسير . ولست شخصياً متديناً ، كما إنني لا أتمنى إلى خلفية إسلامية ، ولكنني أعتقد أنني أستطيع أن أفهم من يعلن أنه مقتنع بعقيدة معينة . ولكنني ، في حدود رؤيتي لإمكان مناقشة العقيدة على الإطلاق ، أرى أن ذلك يقع في حدود تفسيرات العقيدة التي تتجلى في الأفعال البشرية التي لا تقع بدورها إلا في سياق

التاريخ البشرى والمجتمع البشرى . فإذا تصدينا مثلاً لمناقشة الثورة ” الإسلامية“ التي أسقطت نظام حكم الشاه فى إيران ، علينا أن نمسك عن القطع فيما إذا كان الثوار يمثلون العقيدة الإسلامية الحقيقية ؛ لكننا نستطيع أن نعرض لمفهومهم عن الإسلام ، وهو الذى جعلهم يواجهون مواجهة مريبة (أو مواجهة ”إسلامية“ إن صح التعبير) نظاماً رأوا أنه معادٍ للإسلام ، وظالم ، ومستبد . وعندها نستطيع أن نقارن تفسيرهم للإسلام بما قالته مجلة تايم أو صحيفة لوموند عن الإسلام وعن الثورة الإيرانية .

وبتعبير آخر فإن ما نعرض له هنا يعتبر ، بأوسع معنى من المعانى ، مجتمعات يعتمد كل منها تفسيراً معيناً ، يتناقض الكثير منها مع بعضه البعض ، وتبدى الاستعداد فى حالات كثيرة لمحاربة بعضها البعض ، وكل منها ينشئ نفسه ويفصح عن ذاته وعن تفسيره باعتباره من الركائز الأساسية لوجوده . لا يقيم أحد فى حياته صلة مباشرة مع الحقيقة أو الواقع ، فكل منا يعيش فى عالم صنعه البشر فى الواقع الفعلى ، ونحن نرى فيه أن ما يسمى ”الأمة“ ، أو ”المسيحية“ أو ”الإسلام“ من ثمار الأعراف المتفق عليها ، والتحويلات التاريخية ، وقبل ذلك كله من ثمار الجهد البشرى المبذول لوضع هوية نستطيع التعرف عليها لكل من هذه الأسماء . وليس معنى هذا أن الحقيقة والواقع لا يوجدان فعلاً ، بل هما موجودان ، ونحن نعرف ذلك حين نشاهد الأشجار والمنازل من حولنا ، أو عندما تنكسر إحدى العظام فى الجسم أو

حين نشعر بالحزن العميق لوفاة شخص نحبه . ولكننا بصفة عامة ننزع إلى أن نتناسى أو نهوّن من مدى اعتماد إدراكنا للواقع لا على التفسيرات والمعاني التي يشكلها كل فرد لنفسه فحسب ، بل أيضاً على التفسيرات والمعاني التي نلتقها من خارج ذاتنا . فهذه التفسيرات المتلقاة تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الحياة في مجتمع ما . وقد عبر س . رايت ميلز عن ذلك بوضوح قائلاً :

أولى القواعد اللازمة لفهم حال الإنسان هو أن الناس يعيشون في عوالم سبق لغيرهم ' استعمالها' ، ولذلك فهم يدركون مدركات أكثر كثيراً مما خبروه شخصياً . وخبراتهم الخاصة دائماً ما تكون غير مباشرة . ونوعية حياتهم تحددها المعاني التي تلقوها من الآخرين . وكل شخص يعيش في عالم من هذه المعاني . ولا يقف إنسان وحده في مواجهة مباشرة مع عالم من الحقيقة الصلبة ، إذ لا وجود لمثل ذلك العالم . وأما أشد اقتراب للإنسان منه فيكون في مرحلة الطفولة المبكرة أو عندما يصيبه الجنون ، فعندها ، في مشهد مرعب من الأحداث التي لا معنى لها والاختلاط المبهم ، كثيراً ما يستولى عليه الذعر إزاء افتقاره شبه التام للأمان . وأما في حياته اليومية فهو لا يخبرُ عالمًا من الحقائق الصلبة ، بل إن خبراته نفسها تختارها له معانٍ نمطية وتشكلها تفسيرات جاهزة . والصور التي تتكون لديه عن العالم

وعن ذاته يقدمها إليه حشود من الشهود الذين لم يسبق له أن قابلهم ولن يكتب له أن يقابلهم . ومع ذلك فإن هذه الصور التي يقدمها الأغراب والموتى تشكل أساس كل فرد باعتباره إنساناً .

إن وعى الإنسان لا يحدد وجوده المادى ، كما إن وجوده المادى لا يحدد وعيه ، إذ تقف بين الوعى والوجود معان وأشكال ورسائل خلفها أناس آخرون ، تتجلى أول الأمر فى لغة البشر نفسها ، ثم تتضح فى وقت لاحق فى الرموز المستعملة . وهذه التفسيرات المتلقاة والمتلاعب بها تؤثر تأثيراً حاسماً فى وعى الفرد بوجوده . فهى تقدم له مفاتيح فهم ما يرى ، وكيف يستجيب له ، ومشاعره إزاءه ، وكيف يستجيب لهذه المشاعر . فالرموز تقوم بتركيز الخبرات ، والمعانى تتولى تنظيم المعارف ، فتوجه مسيرة المدركات السطحية فى لحظة من اللحظات بنفس القوة التى توجه بها مسيرة طموحات عمره بأكمله .

لا شك أن كل إنسان يلاحظ الطبيعة ، والأحداث الاجتماعية ، وذاته نفسها ، ولكنه لا يلاحظ ، ولم يسبق له أن لاحظ مطلقاً ، معظم ما يفترض أنه حقيقى ، بشأن الطبيعة أو المجتمع أو الذات . وكل إنسان يفسر ما يلاحظه ، إلى جانب الكثير مما لم

يلاحظه ، ولكن المفاهيم التي يطبقها في التفسير لا تنتمي إليه ، فلم يقم بصياغتها بنفسه بل ولا باختبارها . وكل إنسان يتحدث عن الملاحظات والتفسيرات للآخرين ، ولكن اللغة التي يستخدمها في هذا الحديث ليست ، على الأرجح ، إلا العبارات والصور التي وضعها الآخرون فأخذها عنهم واعتبرها عباراته وصوره . وكل إنسان يعتمد اعتماداً متزايداً في معظم ما يسميه الحقائق الصلبة ، والتفسيرات السليمة أو الصحيحة ، وأشكال ' التمثيل ' المناسبة ، و' محطات الملاحظة ' ، ومراكز التفسير ، و' مستودعات التمثيل ' التي تنشئها في المجتمع المعاصر على ما سوف أطلق عليه تعبير الجهاز الثقافي^(٤٤) .

أما فرع الجهاز الثقافي الذي يقوم بنقل الإسلام إلى معظم الأمريكيين (ومعظم الأوروبيين بصفة عامة) فهو يعتمد بصفة رئيسية على شبكات التليفزيون والراديو ، والصحف اليومية ، والمجلات الإخبارية الواسعة الانتشار ، وتلعب الأفلام السينمائية دوراً هنا ، بطبيعة الحال ، وذلك في حدود ما يتأثر إدراكنا المرئي للتاريخ وللبقاع النائية بما تقدمه السينما في هذا المجال . ويمكننا أن نقول إن هذا التركيز القوي لأجهزة الإعلام الجماعية يشكل في مجموعه جوهرًا مشتركًا للتفسيرات التي تقدم صورة معينة للإسلام وتكشف أيضًا ، بطبيعة الحال ، عن المصالح القوية في المجتمع

■ تصوير الإسلام في الأخبار ■

التي تخدمها هذه الأجهزة الإعلامية . وهذه الصورة ، التي لا تقتصر على كونها صورة بل تمثل مجموعة المشاعر التي توحى بها الصورة ، يصاحبها ما نستطيع أن نطلق عليه تعبير السياق الشامل لها . وأنا أعنى بالسياق موقع الصورة ، ومكانها في دنيا الواقع ، والقيم المضمرة فيها ، وليس بأقل من ذلك أهمية 'نوع' الموقف الذي تدفع المشاهد إلى اتخاذ حيا لها . وهكذا فإذا دأب التلفزيون على تقديم الأزمة الإيرانية في صورة الجماهير 'الغوغائية' التي يعلو هتافها ، بمصاحبة تعليق يتحدث عن العداء لأمريكا ، فإن بُعد المسافة ، وعدم الألفة بما يحدث ، وما يكمن في المشهد من تهديد ، يجعل "الإسلام" قاصراً على هذه الخصائص ، وهذا يؤدي بدوره إلى الإحساس بأن شيئاً منكراً وسلبياً في جوهره يواجهنا . وما دام الإسلام فيما يبدو "ضدنا" وبعيداً عنا في "ذلك المكان" ، فلن يبقى مجال للشك في ضرورة اتخاذ موقف مواجهة للردّ عليه . وإذا شاهدنا وسمعنا معلقاً مثل والتر كرونكايت وهو يضع عبارة "هذا هو الواقع" إطاراً لبرنامج المسائي كل يوم ، فسوف نستنتج نحن أيضاً لا أن المشهد الذي نراه هو ما اختارت إحدى شركات التلفزيون أن تعرضه علينا بهذه الصورة ، بل أن هذا هو الواقع حقاً ، وأنه أمر طبيعي ، لا يتغير ، و"أجنبي" ومعارض "لنا". ولا غرو إذن أن يقول جان دانييل في صحيفة لوفيل أوبزرفاتور في عددها الصادر يوم ٢٦ نوفمبر ١٩٧٩ إن الولايات المتحدة تشعر أن الإسلام يحاصرها .

وعلى الرغم من شدة اعتمادنا على التلفزيون والصحف والراديو والمجلات ، فليست هذه هي مصدرنا الأوحـد لما ’نعرفه‘ عن الإسلام ، بل لدينا الكتب والمجلات المتخصصة والمحاضرين الذين يدلون بآراء أشد تعقيداً من المعلومات المشتتة فى جوهرها والأنباء المباشرة التى تنقلها وسائل الإعلام الجماهيرية^(٥٥) . ومن المهم أن نذكر أيضاً أن الصحف والراديو والتلفزيون أجهزة تزخر بالتنوع فيما نلاحظه من اتجاهات المحررين ، أو بين وجهات النظر المختلفة ، أو بين الصور البديلة أو المضادة للأعراف الثقافية أو الصور التقليدية . أى إننا ، بإيجاز ، لا نعيش تحت رحمة جهاز دعائى مركزى ، على الرغم من صدور كم كبير مما يعتبر فى حقيقته دعاية من أجهزة الإعلام وحتى من أقلام الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة . لكنه برغم التنوع والاختلافات ، ومهما زعمنا العكس ، فإن ما يصدر عن هذه الأجهزة ليس تلقائياً ولا هو يتمتع ”بحرية“ كاملة ، ولا يتصادف أن تأتى ”الأخبار“ بالصورة التى تأتى بها ، ولا يتصادف أن تنبع الصور والأفكار من دنيا الواقع لتصبّ فى أعيننا وأذهاننا ، ولا يتيسّر لنا أن نجد الحقيقة حيثما نطلبها ، وليس بين أيدينا ذلك التنوع المتوهم الذى لا يخضع لضابط أو رابط . فإن التلفزيون والراديو والصحف ، شأنها فى ذلك شأن جميع طرائق التواصل ، تراعى قواعد وأعرافاً معينة فى توصيل الأفكار فى صور مفهومة ، وكثيراً ما تلعب هذه القواعد والأعراف دوراً أكبر من دور الواقع الذى تنقله أجهزة

الإعلام فى تشكيل مادّتها. ولما كانت هذه القواعد المتفق عليها ضمناً تساعد بكفاءة على اختزال الواقع ، إذا اتسم بالتعقيد ، حتى يصبح ”أخباراً“ أو ”موضوعات صحفية“ ولما كانت أجهزة الإعلام تجتهد حتى تصل إلى نفس الجمهور الذى تعتقد أن لديه مجموعة من الأفكار والافتراضات الموحدة عن الواقع ، فمن المحتمل أن تصبح صورة الإسلام (وصورة أى شىء آخر ، فى هذا الصدد) موحدة إلى حد بعيد ، وتتسم باختزال بعض الجوانب ، وتكتسى لوناً واحداً . ومن البديهي أنه لما كانت أجهزة الإعلام شركات تسعى لتحقيق الربح ، فإنها تهتم بترويج صور معينة للواقع وتقديمها على غيرها ، وهذا مفهوم . وهى تفعل هذا فى سياق سياسى يكتسب حيويته وتأثيره من أيديولوجيات قائمة على مستوى اللاوعى ، وهى التى تنشرها أجهزة الإعلام دون تحفظات أو معارضة جادة .

ولابد لنا الآن من وضع بعض الحدود اللازمة لموضوعنا ، إذ لا يمكن الزعم بأن الدول الصناعية الغربية تنتهج سياسات قمعية أو تحكمها الدعاية . فذلك بطبيعة الحال زعم باطل . ففى الولايات المتحدة مثلاً ، نجد الفرصة متاحة للتعبير عن أى رأى ، مهما يكن ، تقريباً ، كما يتمتع المواطنون وتمتع أجهزة الإعلام بطاقة لا تبارى على تقبل وجهات النظر الجديدة وغير التقليدية وغير ’ الجماهيرية ‘ . كما إن التنوع الهائل فى الصحف والمجلات وبرامج التلفزيون والراديو المتاحة ، ناهيك بالكتب والكتيبات،

تنوعٌ يكاد يستعصى على الوصف أو تحديد طابعه ، فكيف نستطيع إذن أن نقول ، بأى درجة من درجات الإنصاف والدقة ، إنها جميعاً تُعبر عن وجهة نظر واحدة عامة ؟

لا نستطيع بالقطع ذلك بل ولن أقدم على مجرد المحاولة . ولكننى أعتقد أننا نستطيع أن نُلَمَحَ ، على الرغم من هذا التنوع الفذّ ، ميلاً كميّاً وكميّاً إلى تحييد آراء معينة وتفضيل صور معينة للواقع على غيرها . فلأقْدَمُ أولاً تلخيصاً سريعاً لبعض المسائل التى أثرتها قبل أن أبين كيف تتفق مع جوانب معينة فى أجهزة الإعلام : إننا لا نحيا فى عالم طبيعى ، فالصحف والأخبار والآراء ليست موجودة فى الطبيعة ؛ بل إنها مصنوعة أى إنها نتجت عن الإرادة البشرية ، والتاريخ البشرى ، والظروف الاجتماعية ، والمؤسسات وتقاليده المهنية التى يزاولها المرء . وأما الحديث عما ترمى إليه الصحافة من موضوعية واقتصار على الحقائق والتغطية الواقعية وتوخى الدقة ، فهو حديث عن مصطلحات نسبية إلى حد بعيد ، وربما كانت تعبر عن النوايا لا الأهداف القابلة للتحقيق . وعلينا ، قطعاً ، ألا نتصور أنها أمور عادية ، لمجرد أننا اعتدنا اعتبار صحفنا صحفاً تنشر الحقائق ويمكن الوثوق بها ، واعتبار صحف البلدان الشيوعية وغير الغربية صحفاً دعائية وأيديولوجية . أما الواقع فهو ، على نحو ما يثبته هيربرت جانز فى كتابه المهم البت فيما يعتبر خبراً ، أن الصحفيين ووكالات الأنباء وشبكات الأنباء هى التى تقرر واعية ما ينبغى

■ تصوير الإسلام فى الأخبار ■

تصويره ، والصورة التي يجب أن يتخذها وما إلى ذلك بسبيل^(٤٦) . ولنا أن نقول إذن ، بتعبير آخر ، إن الأخبار ليست ”معطيات“ ذات قصور ذاتي بل هي ثمرة نشاط معقد عادة ما يتضمن الاختيار المتعمد والتعبير المقصود .

لقد توافرت لنا الأدلة السابغة في الآونة الأخيرة على طرائق عمل الأجهزة الكبرى في مجالى جمع الأنباء ونشرها في الغرب ، إذ صدرت الكتب التي كتبها جاى تاليز وهاريسون سولزبرى عن النيويورك تايمز ، وكتاب دافيد هالبرستام بعنوان القوى التي تتشكل ، وكتاب توكنام بعنوان صناعة الأخبار ، وشتى الدراسات التي أجراها هيربرت شيلر عن صناعة وسائل الاتصال ، ومايكل شودسون بعنوان اكتشاف الأخبار ، وأخيراً كتاب أرماند ماتلارت بعنوان الشركات المتعددة الجنسية والتحكم فى الشفافة^(٤٧) وليست هذه سوى مجموعة محدودة من الدراسات التي أجريت من وجهات نظر مختلفة ، والتي تؤكد مدى الالتزام فى تشكيل الأنباء والرأى ، فى المجتمع بصفة عامة ، بقواعد معينة ، ومدى اتخاذه أطراً وتوسله بأعراف تمنح هذا العمل هوية شاملة واضحة كل الوضوح . فالصحفى ، شأنه فى ذلك شأن كل إنسان ، يفترض افتراضات معينة يراها عادية أو ’طبيعية‘ ؛ ولديه قيم تمثلها فى أعماقه حتى لم تعد تحتاج إلى اختبار صحتها فى كل حالة ، مثلما يعتبر المرء عادات مجتمعه من ’المسلّمات‘ ؛ والمرء لا ينسى تعليمه وجنسيته ودينه أثناء وصفه للمجتمعات والثقافات الأجنبية؛

والوعى بأخلاقيات المهنة وطرائق أدائها يلعب دوره فى تحديد ما يقوله المرء وأسلوب التعبير عنه والجمهور الذى يشعر أنه يوجه إليه هذا الكلام . ولقد وصف روبرت دارنتون هذه المسائل بطريقة بالغة الجاذبية فى مقال له بعنوان "كتابة الخبر وقص القصص" ، حتى جعلنا على وعى عميق لا بالواقع الحى لعمل الصحفى فقط بل أيضاً "بالتكافل والعداوات التى تنشأ وتنمو بين الصحفى ومصادره" ، وبالضغوط القائمة فى "التوحيد والتنميط" ، وبالساليب التى "يضيف بها الصحفى إلى الأحداث التى يغطيها أكثر مما يستقيه منها" (٤٨) .

وتختلف أجهزة الإعلام الأمريكية عن أجهزة الإعلام الفرنسية والبريطانية بسبب الاختلاف البالغ بين المجتمعات ، واختلاف الجمهور هنا وهناك ، واختلاف المؤسسات والمصالح . فعلى كل صحفى أمريكى أن يكون على وعى بأن بلده دولة عظمى ولديها ما تنفرد به بين الدول من مصالح وطرائق خاصة لتحقيق هذه المصالح . إن استقلال الصحافة شىء رائع ، عملياً ونظرياً ، ولكن كل صحفى أمريكى تقريباً يكتب عن العالم وفى أعماقه وعى بأن الدار الصحفية التى ينتمى إليها شريك فى القوة الأمريكية ، بحيث لو تعرضت هذه القوة للتهديد من الدول الأجنبية أصبح استقلال الصحافة أمراً ثانوياً بالمقارنة بما لا يزيد فى حالات كثيرة عن التعبير المضمهر عن الإخلاص والوطنية ، أو عن التعبير البسيط عن الهوية القومية . ولكن هذا لا يدعو للدهشة قطعاً ، أما ما

يدعو للدهشة فهو أن الناس في العادة لا يرون أن الصحافة المستقلة تشارك في السياسة الخارجية ، على الرغم من مشاركتها الفعالة وبأشكال كثيرة . فإذا تغاضينا عن استخدام وكالة الاستخبارات المركزية للصحفيين العاملين في الخارج ، فسوف نرى أن أجهزة الإعلام الأمريكية تقوم ، وهذا أمر محتوم ، بجمع معلوماتها عن العالم الخارجى داخل إطار تهيمن عليه السياسات الحكومية ، فإذا نشأ تضارب أو خلاف مع هذه السياسات ، على نحو ما حدث في حالة فيتنام ، قامت أجهزة الإعلام بتكوين آرائها المستقلة ، ولكنه حتى في هذه الحال لا بد من مراعاة قدرة هذه الآراء على التأثير في السياسات الحكومية وإن لم تغيرها فعلياً ، فهذه السياسات هي التي تهم الأمريكيين جميعاً ، ومن بينهم رجال الصحافة .

أما في الخارج فلإن الصحفي الأمريكى مضطر إلى الاعتماد على ما يعرفه خير معرفة ، وهذا أمر مفهوم ، وهذا يحدث دائماً عندما ينتقل أى إنسان من بيئته ليعيش في ظل ثقافة أجنبية ، وهو يصدق بصفة خاصة على الصحفي الذى يشعر أن عليه في الخارج أن يترجم ما يحدث حوله إلى لغة يفهمها مواطنوه داخل أمريكا (ومن بينهم واضعو السياسات) : إنه يسعى لمصاحبة الصحفيين الآخرين في الخارج ، ولكنه يظل على اتصال بسفارة بلده ، وبالأمريكيين الآخرين المقيمين في ذلك البلد ، وبالأشخاص الذين عرف عنهم الارتباط بعلاقات طيبة مع الأمريكيين . وعلينا ألا

نهون من أهمية أمر آخر ، وهو إحساس الصحفي في الخارج أنه يعتمد لا على ما يعرفه سلفاً أو يكتسب علماً به ، فحسب ، بل أيضاً على ما ينبغي لمثل أجهزة الإعلام الأمريكية في الخارج أن يعرفه ، ويكتسب علماً به ، ويقول . فمراسل صحيفة نيويورك تايمز يعرف حق المعرفة طبيعة صحيفته وصورتها لذاتها بين المؤسسات الصحفية . وهكذا سوف نرى بالقطع فارقاً بالغ الأهمية وربما يكون حاسماً بين الموضوع الصحفي الذي يبعث به مراسل التايمز في طهران لنشره في صحيفته ، وبين الموضوع الذي يرسله مراسل يعمل بالقطعة لنشره في صحيفة ذا نيشن (الامة) أو في إن ديس تايمز (في هذا العصر) ، وهو في طهران . واختلاف الجهاز الإعلامي نفسه يمارس ضغوطاً كبيرة ، فتغطية الحدث تغطية ميدانية مباشرة لبرنامج الأخبار المسائية في محطة إن . بي . سي . تتطلب من المراسل في القاهرة صياغة للخبر تختلف عن صياغة رئيس مكتب مجلة تايم لمقال يكتبه ويستغرق في كتابته وقتاً أطول . وتضاف إلى ذلك أيضاً أساليب إعادة الصياغة التي يقوم بها المحررون في الوطن للأخبار التي يرسلها المراسل من الخارج ، إذ تتدخل هنا مجموعة مختلفة من قيود السياسية والأيدولوجية ، ولو دون وعي من جانب هؤلاء المحررين .

وتغطية أجهزة الإعلام الأمريكية للبلدان الأجنبية تقوم بإثارة اهتمامات جديدة ، إلى جانب تعميق الاهتمامات القديمة ”لنا“ بتلك البلدان . فوجهات النظر في أجهزة الإعلام تؤكد أشياء

معينة للأمريكي وتؤكد غيرها للإيطالي أو الروسي . وتلتقى هذه كلها حول مركز مشترك ، أو اتفاق فى رأى ، وهو ما تشعر جميع المنظمات الإعلامية شعوراً شبه مؤكد بأنها تتولى إيضاحه وبلورته وتشكيله . وهذا بيت القصيد . فلأجهزة الإعلام أن تفعل شتى الأشياء ، وتمثل شتى وجهات النظر ، وتقدم أشياء كثيرة تتسم بالغرابة الشديدة أو الأصالة بصورة غير متوقعة ، أو حتى الانحراف ، ولكنها فى نهاية المطاف ، ولأنها شركات تخدم وتعزز هوية مشتركة - قل إنها "أمريكا" أو حتى "الغرب" - فهى تضع نصب أعينها هذا الاتفاق الأساسى نفسه ، وهذا ، على نحو ما سوف نرى بعد قليل فى حالة إيران ، هو الذى يشكل الأنباء ، ويبتُ فيما يصلح خبراً وكيف يصبح خبراً . ولكنه مع ذلك لا يُملَى أو يحدد الأنباء بصورة قسرية ، فليس نتيجة قوانين جبرية ، ولا نتيجة التآمر ولا الدكتاتورية . بل إنه من ثمار الثقافة ، والأفضل أن نقول إنه ثقافة معينة ، وهو ، فيما يتعلق بأجهزة الإعلام فى الولايات المتحدة ، عنصر مهم من عناصر التاريخ المعاصر . ولن يكون من المجدى تحليل وانتقاد هذه الظاهرة لو لم يكن صحيحاً أن أجهزة الإعلام تستجيب حقاً لما نحن عليه ولما نريد^(٤٩) .

والأفضل لنا أن نصف اتفاق الآراء المشار إليه بأنه قائم فى الواقع ، بدلاً من القول بأنه مقرر أو مجرد . وفيما يتصل بتغطية أجهزة الإعلام للإسلام وإيران ، سوف أدع اتفاق الآراء المذكور

يفصح عن ذاته حيثما يظهر فى سياق التحليل الذى سوف أقدمه فى الفصل التالى . أما الآن فلا أريد إلا تقديم تعليقين ختاميين على هذا الموضوع .

علينا أن نتذكر أولاً أنه لما كانت الولايات المتحدة مجتمعاً مركّباً يتكون من ثقافات فرعية متعددة ، وكثيراً ما لا يتمشى بعضها مع بعض ، لابد أن يستشعر الناس ، بقوة هائلة ، ضرورة تقديم ثقافة مشتركة وموحّدة إلى حدّ ما عن طريق أجهزة الإعلام . ولا ترتبط هذه الظاهرة بأجهزة الإعلام فى عصرنا فحسب ، بل إنها من السمات ذات الأصالة الخاصة ، وتمتد جذورها التاريخية إلى تأسيس الجمهورية الأمريكية . لقد بدأ الأمر بما كان البيوريتانيون يسمونه ”الانطلاق فى البرية“ ، وبُنيت على أساسه فى هذا البلد لغةٌ أيديولوجية راسخة للتعبير عن كل ما هو أمريكى قح ، فى الوعى والهوية والمصير والدور المنوط بأمريكا ، وكانت مهمة هذه اللغة هى أن تضم معاً أكبر قدر ممكن من العناصر المختلفة فى أمريكا (وفى العالم) وأن تعيد تشكيلها بأسلوب أمريكى فريد . وقد لقيت هذه اللغة ، ولقي وجودها الراسخ فى الحياة الأمريكية قدراً كبيراً من التحليل المُقنع على أيدى العديد من الباحثين ، كان من بينهم بيرى ميلر ، وآخرهم سكان بيركوفيتش^(٥٠) وكان من نتائج هذه اللغة أن ساد وهم اتفاق الآراء ، وإن لم يكن اتفاقاً فعلياً فى رأى فى جميع الأحوال ، وهكذا ، وفى إطار هذا الاتفاق الذى يكتسى صبغة قومية بصفة

■ تصوير الإسلام فى الأخبار ■

رئيسية ، تعتقد أجهزة الإعلام أنها تؤدي عملها باسم المجتمع الذي تخدمه ولصالحه .

وتتعلق المسألة الثانية بالتأثير الفعلى لاتفاق الآراء المذكور ، وأرى أن أبسط طريقة لتحديد هذا التأثير ، بل وأدق الطرائق فى اعتقادى ، هى أن نقول إنه وَضِعُ الحدود والمحافظة على استمرار الضغوط^(٥١) . فاتفاق الآراء لا يُملَى على أجهزة الإعلام ما تقوله ، كما إنه لا يمثل طبقة معينة أو المصالح الاقتصادية لفئة معينة . بل علينا أن نعتبر أنه العامل الذى يضع الخطوط الخفية التى تمثل الحدود التى لا يشعر الصحفيّ أو المعلق أنه يحتاج إلى تجاوزها . وهكذا نرى أن القول باحتمال استعمال القوة العسكرية الأمريكية لتحقيق أغراض خبيثة قول محالٌ نسبياً فى إطار اتفاق الآراء المذكور ، مثلما أصبح القول بأن أمريكا قوة تعمل فى سبيل الخير فى العالم قول معتاد و'طبيعى' . وعلى غرار ذلك نجد أن الأمريكيين يتعاطفون تعاطفاً وثيقاً مع المجتمعات أو الثقافات الأجنبية التى تظهر روح ريادة جديدة (مثل إسرائيل) فى انتزاع الأرض من أيدي مَنْ يسيئون استخدامها أو من أيدي الهمجيين^(٥٢) ، لكنهم كثيراً ما يتشككون ، ولا يبدون اهتماماً كبيراً بالثقافات التقليدية ، حتى ما يكابد منها عناء التجديد الثورى . ويفترض الأمريكيون أن الدعاية الشيوعية تخضع لقيود ثقافية وسياسية مماثلة ، وأما فى حالة أمريكا فإن أجهزة الإعلام تضع الحدود وتحافظ على الضغوط فى إطار لا يكاد يفصح عن الإقرار

بذلك أو الوعي به^(٥٣) . ويعتبر هذا في ذاته مظهرًا من مظاهر وضع الحدود . ولأضرب لذلك مثلاً آخر . فعندما احتجز الطلاب الإيرانيون الرهائن الأمريكيين في طهران ، بدأ اتفاق الآراء المذكور في ممارسة تأثيره فوراً ، فأصدر ما يشبه الأمر بأن الأحداث الخاصة بالرهائن هي وحدها ، تقريباً ، ما يهم الناس بصدد إيران، وأما ما عدا ذلك ، أى سائر أحوال إيران، من التحولات السياسية إلى الحياة اليومية والشخصيات العامة والملاحم الجغرافية والتاريخية، فهو جدير بالتجاهل إلى أبعد حد، أى إن تحديد صورة إيران والشعب الإيراني يقتصر على البت فيما إذا كانا يناصران الولايات المتحدة أو يعادياها .

وتكفى هذه التعليقات العامة حول ما يمكن اعتباره الجوانب التى تؤكدها أجهزة الإعلام من حيث 'الكيف' فى نقلها للأنباء ونشرها (أى ما يسمى - اصطلاحاً - بالتوزيع) وأما ما نحتاج إلى قوله عن الجوانب 'الكمية' للأنباء باعتبارها 'تفسيرات' للواقع، فنستطيع أن نقول بصورة مباشرة إن أوسع انتشار (أو توزيع) ، ومن ثم أقوى تأثير ، تستأثر به حفنة محدودة من المنظمات ، وكالتان أو ثلاث وكالات للأنباء ، وثلاث شبكات تليفزيونية ، ونصف دسنة من الصحف اليومية ، ومجلتان إخباريتان أسبوعيتان (أو ثلاث مجلات)^(٥٤) ولن نحتاج إلى أن نذكر أكثر من أسماء معدودة لإيضاح ما نقول : محطة كولمبيا برودكاستنج سيستم (محطة إذاعة كولمبيا) (سى بى اس) التليفزيونية ، ومجلة تايم ،

وصحيفة نيويورك تايمز ، ووكالة يونايتد برس إنترناشيونال . إذ تستطيع هذه مجتمعة أن تصل إلى عدد أكبر من أفراد الجمهور ، وإحداث تأثير أعمق ، ونشر أنواع معينة من الأنباء على نطاق أوسع مما تستطيعه أجهزة توزيع الأخبار الأصغر والأقل ثراءً . أما معنى هذا فيما يتعلق بالأنباء الخارجية فهو واضح : فأمثال هذه الشركات لديها أعداد أكبر من سواها من المراسلين الميدانيين ، ومن ثم فإن هؤلاء المراسلين هم الذين يضعون أسس المادة الصحفية التي تقوم الأجهزة المشاركة ، من صحف ومحطات تلفزيونية محلية ومحطات إذاعية ، بتوزيعه على عملائها مباشرة . ونلاحظ هنا أن الكم الهائل والكثافة الشديدة للأنباء الأجنبية التي تنقلها هذه الأجهزة الكبرى عادة ما يضاف إليها ثقة أكبر ، ومن ثم فإن الذين يستخدمون الأنباء يكثرون من الإشارة إليها ، وهكذا نجد أن النبا الذي تنشره نيويورك تايمز أو تذيعة محطة سى . بى . إس . ، يتمتع بالمصداقية بفضل مصدره ، وهيبة المؤسسة التي صدر عنها وذيوع صيتها ، وكذلك بفضل تواتر ترديده (يومياً أو كل ساعة إلخ) وبفضل ما يوحى به من خبرة ودُرْبة . فإذا نظرنا إلى مجموع الأجهزة الرئيسية الصغيرة لنقل الأنباء ، والأجهزة الأصغر التي تتسم بالتنوع الهائل والاستقلال ، وإن كانت تعتمد رغم ذلك من زوايا كثيرة على الأجهزة العملاقة ، وجدنا أنها تقدم مجتمعة صورة أمريكية للواقع تتميز بالتماسك الواضح لكل ذى عينين .

ومن العواقب البالغة الخطورة لهذا الوضع هو أن الأمريكيين لا تكاد تتاح لهم فرصة رؤية العالم الإسلامى إلا فى تلك الصورة المختزلة ، والمقتسرة ، والمعارضة . ومصدر المأساة هنا هو أن هذا قد أدى إلى تفريخ مجموعة من 'الاختزالات المضادة' لدينا وفى العالم الإسلامى نفسه ، إذ لم يعد مصطلح "الإسلام" يدل الآن إلا على أحد المعنيين العامّين التاليين ، وكلاهما مرفوض ويسلبه بعض ثرائه . ففى عيون الغربيين والأمريكيين يمثل "الإسلام" نزعة بدائية عادت للظهور ، ولا تقتصر على الإيحاء بالتهديد بالعودة إلى العصور الوسطى بل بخطر تدمير ما يشار إليه بانتظام بمصطلح النظام الديمقراطي للعالم الغربى . وفى مقابل ذلك نجد أن "الإسلام" يمثل لعدد كبير من المسلمين رد فعل مضاد لهذه الصورة الأولى للإسلام باعتباره تهديداً أو خطراً . وهكذا نجد أن أى شىء يقال عن "الإسلام" يتحول ، قسراً إلى حدّ ما ، إلى صيغة الدفاع عنه بتعدد أوجه إنسانية الإسلام ، وذكر عطائه للحضارة ، والتنمية ، والصالح الخلقى . وقد أدى هذا النوع من ردّ الفعل المضاد إلى ردّ مضادّ له ، فى بعض الأحيان ، وهى حماقة واضحة ، إذ حاول البعض معادلة "الإسلام" بالأوضاع الآنية القائمة فى أحد البلدان الإسلامية ، أو إحدى السلطات الإسلامية القائمة . ثم إذا بك ترى السادات وهو يصف الخومينى بأنه مجنون وعار على الإسلام ، وترى الخومينى وهو يرد "التحية" بأحسن منها ! وإذا بشتى الأشخاص فى الولايات

المتحدة يناقشون نصيب كل قضية منها من الصحة ! ماذا يستطيع المدافع عن الإسلام من هذا المنطلق أن يقول حين يقرأ يومياً عن أعداد الذين أعدمتهم اللجان الثورية الإيرانية ، أو عندما يعلن الخوميني ، على نحو ما نقلته وكالة رويتر في ١٩ سبتمبر ١٩٧٩ ، أنه سوف يقضى قضاءً مبرماً على أعداء الثورة الإسلامية؟ ما أرمى إليه هنا هو أن جميع هذه المعانى النسبية والاختزالية ”للإسلام“ تعتمد على بعضها البعض ، وعلينا أن نرفضها كلها لأنها تعمل على استمرار التعقيد القائم .

أما مدى العواقب الوخيمة لهذا التعقيد القائم فيتضح حين نرى كيف اتخذ الإيرانيون من مناصرة الولايات المتحدة للتحديث الذى أتى به الشاه نداءً لحشد الصفوف لمعارضته ، وكانت ترجمة هذا تتمثل فى تفسير للملكية باعتبارها سُبَّةً فى جبين الإسلام ؛ كما حددت الثورة الإسلامية بعض الأهداف ، وكان أحدها هو مقاومة الإمبريالية الأمريكية التى بدت ، بدورها ، فى صورة من يقاوم الثورة الإسلامية بإعادة تنصيب الشاه رمزياً فى نيويورك . وتوالى بعد ذلك أحداث المسرحية كأنما وفق برنامج استشراقى ، فالمستشرقون المزعومون يلعبون الدور الذى فرضته عليهم توقعات الغربيين ، والغربيون يؤكدون موقفهم فى عيون أبناء الشرق باعتبارهم شياطين^(٥٥) .

بل ولا يقتصر الأمر على هذا . فالبرامج التليفزيونية التى تنتجها الولايات المتحدة تشيع فى مناطق كثيرة من العالم

الإسلامي، كما يميل المسلمون ، شأنهم في هذا شأن جميع أبناء العالم الثالث الآخرين ، إلى الاعتماد على مجموعة ضئيلة من وكالات الأنباء التي تقوم بنقل الأخبار إلى العالم الثالث ، حتى في الحالات الكثيرة التي تكون فيها هذه الأخبار أخباراً عن العالم الثالث . وهكذا تحوّل العالم الثالثُ بصفة عامة والبلدان الإسلامية بصفة خاصة من مصادر للأنباء إلى جهاتٍ مستهلكة للأنباء . وهكذا ، ولأول مرة في التاريخ يجوز لنا أن نقول إن العالم الإسلامي يتلقى المعلومات عن نفسه عن طريق الصور والقصص والأخبار المصنّعة في الغرب (أو قل لأول مرة يحدث ذلك على هذا النطاق الهائل) . فإذا أضف المرء بعض الحقائق إلى هذا ، زادت دقة الصورة . وأولى هذه الحقائق هو أن الطلاب والباحثين في العالم الإسلامي ما زالوا يعتمدون على المكتبات والمؤسسات التعليمية في أمريكا وأوروبا فيما أصبح يسمى دراسات الشرق الأوسط (ولا تنسَ أن العالم الإسلامي برمته يخلو من مكتبة مركزية مكتملة حقاً للمصادر العلمية العربية) وثاني هذه الحقائق هو أن اللغة الانجليزية أقرب إلى العالمية من العربية والفارسية والتركية ، وثالثها أن بلداناً كثيرة من بلدان العالم الإسلامي التي يعتمد اقتصادها على النفط ، تعتمد في تكوين الصفوة فيها على إعداد طبقة إدارية من أبنائها تدين باقتصادياتها ومؤسساتها الدفاعية والكثير من فرصها السياسية إلى نظام سوق الاستهلاك العالمي الذي يتحكم فيه الغرب . أقول إن هذه الحقائق تزيد من دقة

الصورة ، على ما بها من دواعى الكتابة البالغة ، ألا وهى صورة ما فعلته ”بالإسلام“ تلك الثورة فى أجهزة الإعلام التى لا تخدم إلا شريحة صغيرة من المجتمعات التى أنتجتها^(٥٦) .

وليس معنى هذا أنه لا توجد فى الواقع نهضة إسلامية بعيداً عن ردود الأفعال التى أتحدث عنها . ولكنه من الأدق أن نقلل من اللجوء إلى التعميمات فى الحديث عنها . فأنا ، من ناحيتى ، يزداد اطمئناني إذا تجنبتُ استعمال كلمتى ”الإسلام“ و”الإسلامى“ ، إلا فى حدود صارمة ، ومع تمييز الكلمتين فى كل سياق تردان فيه ، وذلك ، على وجه الدقة ، لأن كلمة ”الإسلام“ قد أصبحت فى الكثير من مجتمعات المسلمين ودولهم (وفى الغرب أيضاً ، بطبيعة الحال) غطاءً سياسياً للكثير مما لا ينتمى على الإطلاق إلى الدين . كيف نستطيع إذن أن نبدأ مناقشتنا ، بروح المسؤولية ، لتفسيرات المسلمين للإسلام ، وللتطورات التى شهدتها ؟

يجب علينا أولاً ، مثلما فعل مكسيم رودنسون ، أن نرصد التعاليم الأساسية لدين المسلمين ، على نحو ما ورد فى القرآن الكريم ، كلام الله ، ونزلها منزلة الفريدة^(٥٧) . هذا هو الأساس الراسخ لهوية العقيدة الإسلامية ، وإن كانت صور تفسيرها وتطبيقها فى الحياة الواقعية قد تبعدنا عنها . ويضم المستوى الثانى شتى التفسيرات المتضاربة للقرآن الكريم التى نشأت عنها الطوائف الإسلامية المتعددة ، وشتى المدارس الفقهية ،

والأساليب التفسيرية ، والنظريات اللغوية ، وما شابه ذلك . وسوف نلمح اتجاهًا رئيسيًا داخل هذه الشبكة الهائلة من الآراء المستقاة من القرآن الكريم ، وهو الذى يطلق عليه رودنسون ”العودة إلى المنبع“ (وقد بنيت على معظم هذه الآراء مؤسسات كاملة ، بل ومجتمعات كاملة فى بعض الأحيان) . ومعنى هذا هو تلك النزعة التى يشبهها رودنسون ”بثورة دائمة“ داخل الإسلام. وإن كان لا يذكر أن جميع أديان التوحيد ، ومعظم الحركات الأيديولوجية ، تضم هذه النزعة فى ثناياها ، ومن أصعب الصعب أن نقول إن الإسلام أشد اتساقًا فى روحه الثورية من سواه فى هذا الصدد . وعلى أى حال فنحن نرى أن ”العودة إلى المنبع“ قد أدت إلى نشأة بعض الحركات (مثل الحركة الوهابية أو ، كما هو واضح ، العنصر الدينى فى الثورة الإيرانية) التى يختلف تأثيرها فى المجتمع الذى تنشأ فيه باختلاف المكان وباختلاف الزمان . فالمهدية باعتبارها من أيديولوجيات القرن التاسع عشر فى السودان تختلف عن المهدية القائمة الآن . وعلى غرار ذلك نرى أن جمعية الإخوان المسلمين فى مصر فى الفترة التى امتدت من أربعينيات القرن الماضى إلى منتصف خمسينياته كانت حركة تتمتع بقوة أيديولوجية أكبر كثيرًا مما تتمتع به الحركة اليوم ، وكلتا الحركتين تختلفان فى التنظيم والأهداف عما يسمى بالإخوان المسلمين فى سوريا اليوم .

لقد تحدثنا حتى الآن من وجهة نظر تعتبر الإسلام بصفة

أساسية ، وإن لم يكن ذلك بصفة حَصْرِيَّة ، مذهباً وعقيدة ، فوجدنا أننا قد دخلنا بالفعل مجالاً زاخراً بالتنوع والتضارب . ووجدنا ، باختصار ، أن مصطلحي ”الإسلام“ و ”الإسلامي“ لا بد لمن يستعملها أن يحدد بطريقة ما أى صورة للإسلام يقصدها (بل وأى فئة من فئاته) ويزداد الأمر تعقيداً حين نضيف مستوى ثالثاً لتحليلنا ، ومن جديد وفقاً لرودنسون . ولكن الأفضل هو اقتطاف أقواله كاملة :

يضم الإسلام مستوى ثالثاً ، لا مناص من التمييز بينه بالحرص الواجب وبين المستويين الآخرين ، وهو المستوى الذى يتضمن أساليب تطبيق الأيديولوجيات المختلفة فى حياة الناس ، والممارسات التى ارتبطت بها هذه الأيديولوجيات وأثرت فيها حتى وإن لم تستلهمها أصلاً . وكان كل نظام من النظم التى أدى إليها الإسلام فى العصور الوسطى يتخذ صورة مختلفة عن صاحبه فى الحياة الواقعية ، ويمر بتغييرات داخلية مختلفة عن غيره ، حتى عندما ظلت هذه النظم متطابقة من حيث الإحالات المرجعية لها والنصوص التى تستند إليها ، ومن المحال اختزال القضية هنا بحيث تنحصر فى مجرد التضاد بين المذاهب والنصوص الخاصة باتجاهات ”المارقين“ من ناحية ، والصورة ”الصحيحة“ للإسلام التى يعترف بها معظم المسلمين من ناحية أخرى . ففى

سياق الالتزام بالنص ، هنا أو فى أى مجال آخر ، كثيراً ما يحدث أن تكون إعادة تفسير عبارة وردت فى نص مقدس كافية لإحداث تغيير 'وجودى' واتخاذ موقف النقد أو موقف الثورة ، وقد يظل هذا الموقف فردياً وقد ينتشر بين الآخرين . وفى مقابل هذا ، كثيراً ما يحدث أنه ، مع مرور الزمن ، تتحول الانطلاقة الثورية أو التجديدية إلى اكتساب معنى المحافظة والالتزام والسلم . وبين أيدينا نماذج كثيرة على هذا التحول ، ولنا أن نطلق عليه حقاً قانون الأيديولوجيات العام . والمثال الساطع على ذلك هو تطور المذهب الإسماعيلى . ففى العصور الوسطى دعا الإسماعيليون إلى انقلاب ثورى فى النظام القائم . وأما اليوم فإن زعماءهم الأغاخانات ، أصحاب السطوة من المليونيرات ، الذين ينحصر همهم فى التمتع بأطياب الحياة فى صحبة نجوم السينما والمشاهير ، على نحو ما تنشره صحائف الفضائح عنهم دون كلل .

وأقول فى الختام إن النصوص المقدسة لا تتضمن أحكاماً صريحة . فالواقع هو أن التقاليد الثقافية بصفة عامة (سواء كان ذلك فى صيغها الصريحة ، أو فيما تعلنه على الملأ ، أو فى نصوصها المذهبية ، أو فى المواقف التى تستلهم هذه النصوص) تتضمن جوانب بالغة

التنوع، وتسمح للمرء أن يبرر الأطروحات التي تتميز
بأكبر قدر من التناقض فيما بينها^(٥٨).

هذا ، إذن ، هو النوع الثالث من التفسير ، ولكنه من المحال
له أن يقوم دون النوعين الآخرين . لابد للإسلام من وجود القرآن
الكريم ، وفي مقابل ذلك ، لابد للقرآن الكريم من مسلمين
يقرأونه ويفسرونه ويترجمونه إلى مؤسسات وحقائق اجتماعية .
وحتى حين يشتد الاتجاه إلى الأخذ بالتفسير الصحيح ، على نحو
ما نرى في الإسلام السني ، والسنة نفسها تعني الصحة القائمة
على الإجماع ، فما أيسر أن تنشأ القلاقل الثورية . فالصراع بين
حكومة السادات في مصر وبين ما يسمى بأحزاب المسلمين
الأصولية ، يجرى في ميدان ”الصحة“ المختلف عليها نفسها ،
فالسادات والسلطات المسلمة التابعة له تزعم أنها تمثل السنة ،
ومعارضوه يقدمون حججاً قوية على أنهم هم أتباع السنة
الحقيقيون .

فإذا أضفنا إلى هذه المستويات الثلاثة للإسلام أعداد المسلمين
الهائلة في الماضي والحاضر والمستقبل ، والامتداد التاريخي الهائل
”لانتشار الإسلام“ (من القرن السابع حتى الوقت الحاضر)
والظروف الجغرافية المذهلة للتنوع للمجتمعات الإسلامية (من
الصين إلى نيجيريا ، ومن إسبانيا إلى إندونيسيا ، ومن روسيا
وأفغانستان إلى تونس) فسوف نتفهم فيما أرى ، الدلالات
السياسية المترتبة على ما تفعله أجهزة الإعلام الغربية ، وكذلك

المحاولات الثقافية ، لإطلاق لفظ ”الإسلام“ على هذا جميعاً . وأرى أننا سوف ندرك أيضاً أن شتى المحاولات الإسلامية للرد أو الاستجابة إلى الظروف الإسلامية والغربية ، بكل ما تتسم به من تنوع وتناقض ، ذات طابع سياسى لا يقل عن طابع هذه الدلالات ، وأننا نستطيع أن نقوم بتحليلها هي الأخرى من حيث كونها صوراً للتحويل والكفاح واستراتيجيات للتفسير^(٥٩) . وسوف أحاول الآن أن أرسم الخطوط العريضة للصورة ، حتى أبين مدى التعقيد المذهل فيها ، وإن كان ينبغي لى فى البداية أن أقول إن أكبر مشكلة هي أن جانباً كبيراً مما يتصدى المرء لتقييمه يستعصى أساساً على التوثيق .

إننا أبعد ما نكون عن إمكان القطع فى أمر وجود شىء نسميه ”تاريخاً إسلامياً“ إلا باعتباره أسلوباً بدائياً للتمييز بين العالم الإسلامى وبين أوروبا ، مثلاً ، أو اليابان . وأما فيما عدا ذلك ، فالباحثون الإسلاميون والغربيون يختلفون حول ما إذا كان الإسلام قد ضرب جذوره فى بعض المناطق الجغرافية بسبب الظروف البيئية أو الهيكل الاقتصادى الاجتماعى ، أو العلاقة الخاصة بين أنساق الحياة المستقرة والبدوية . وأما عن فترات التاريخ الإسلامى ، فإنها على درجة من التعقيد لا تسمح بالصاق الطابع ”الإسلامى“ البسيط بها . فما هي أوجه التشابه بين الدول العلوية ، والعثمانية ، والصفوية ، والأوزبكية ، والمغولية (والتي تمثل النظم السياسية الكبرى فى التاريخ الإسلامى ، حتى القرن العشرين ، فى الهند

وتركيا والشرق الأدنى والشرق الأوسط) وبين الدول الإسلامية الحديثة ؟ كيف نستطيع تفسير الفرق بين (أو حتى أصول) ما يسمى بالشريعة الإيرانية التركية والشريعة التركية العربية في البقاع الإسلامية ؟ وباختصار ، كما يبين ألبرت حوراني ذلك بوضوح ، فإن مشكلات التعريف ، والتفسير ، وتحديد الطابع ، في إطار الإسلام نفسه ، مشكلات هائلة ترغم الباحثين الغربيين (ناهيك بغير الباحثين الغربيين) على التمهّل . وهاك ما يقوله :

الواضح إذن أن بعض الكلمات مثل 'التاريخ الإسلامي' لا تفيد المعنى نفسه في السياقات المختلفة ، وأنها لا تكفى في ذاتها لإيضاح كل ما هو موجود ، في أى سياق من السياقات . والواقع ، بتعبير آخر ، أن "الإسلام" والكلمات المشتقة من هذا اللفظ تمثل "أنماطاً" مثالية لا مناص من توخى الجرح في استعمالها ، إلى جانب عدد لا يحصى من التحفظات والتكييفات للمعنى ، ولابد من اقترانها بأنماط مثالية أخرى ، إذا كنا نريد لها أن تقوم بوظيفتها باعتبارها مبادئ للتفسير التاريخي . ويتغير مدى إمكان استعمالها تبعاً لنمط التاريخ الذى نكتبه . فهى أقل ما يصلح للتاريخ الاقتصادى ؛ وعلى نحو ما بين رودنسون فى كتابه الإسلام والرأسمالية لا يمكن تفسير الحياة الاقتصادية للمجتمعات التى يسود فيها الإسلام تفسيراً يقوم على

العقائد أو الشرائع الدينية فى المقام الأول . فعلى الرغم من تأثير الشريعة الإسلامية فى الأشكال التجارية ، نجد أن ألواناً أخرى من التفسير أقرب إلى الواقع ، وعلى نحو ما يقول كاهين وآخرون ، نجد أن بعض المفاهيم الأخرى ، مثل مفهوم مجتمع "الشرق الأدنى" أو مجتمعات "البحر المتوسط" أو "العصور الوسطى" أو "ما قبل العصر الصناعى" أكبر نفعاً من مفهوم المجتمع الإسلامى . فقد يستطيع الإسلام أن يقدم بعض التفسيرات للتاريخ السياسى الاجتماعى ، لكنه لا يقدم جميع التفسيرات المطلوبة ، إذ لا يمكن تفسير المؤسسات والسياسات القائمة حتى فى أشد الدول حماساً "للإسلام" دون أن نأخذ فى اعتبارنا الموقع الجغرافى ، والحاجات الاقتصادية ، ومصالح الأسر الحاكمة والحكام . بل إن تاريخ المؤسسات التى تقوم ، فيما يبدو ، على أساس الشريعة الإسلامية لا يمكن تفسيره من جميع جوانبه فى هذا الإطار وحده ، إذ إن مفهومًا مثل مفهوم "الرق" سوف يتلاشى إذا أنعم المرء النظر فيه ، وعلى نحو ما بين ميليوت فى فحصه لكتابات 'العمل' التراثية فى المغرب الأقصى ، دائماً ما توافرت الأساليب اللازمة لإدراج العادات المحلية فى الشريعة الإسلامية عند تطبيقها عملياً . ولا يمكننا أن نفسر إلا

بعض أنواع التاريخ الفكرى ، على الأقل فى الفترة التى سبقت العصر الحديث ، فى إطار المفاهيم الإسلامية أساساً ، باعتبارها عملية تحوّل ، إذ تسربت أفكار خارجية فاختلطت بالأفكار المولدة من رحم الإسلام نفسه ، فشكّلت نظاماً يحافظ على نفسه ويطور نفسه ؛ بل لابد من النظر إلى فلاسفة المسلمين لا باعتبارهم فلاسفة يونانيين يرتدون ملابس عربية ، بل باعتبارهم مسلمين يستخدمون مفاهيم الفلسفة اليونانية ومناهجها فى تقديم تفسيرهم الخاص للعقيدة الإسلامية^(٦٠) .

فإذا ضربنا فى شعاب أخرى لم نجد عند علماء الأجناس البشرية (الأنثروبولوجيا) إجابة لسؤالنا عما إذا كان قد وجد إنسان يتّمسّ علمياً إلى 'الجنس الإسلامى' ، أو إذا كان لمثل هذا النمط قيمة تحليلية أو معرفية على الإطلاق . إن معلوماتنا عن توزيع السلطة فى المجتمعات الإسلامية أقل كثيراً مما نحتاج إلى الإحاطة به ، بسبب كثرة هذه المجتمعات واختلافها الشديد على امتداد التاريخ والمواقع الجغرافية ، وهى القلة التى تمنعنا من البت فى أسلوب تقييم العلاقة ما بين المدونات الفقهية الإسلامية وبين تنفيذها فى الواقع ، أو بين مفاهيم الحكم وبين تطبيقها أو تحولاتها أو استمرارها . ولا نستطيع القطع بأى درجة من درجات اليقين ، مثلاً ، فيما إذا كانت بعض المجتمعات الإسلامية ، أو إذا كانت كلها أو كان أى منها قد غيّر أسس السلطة فيه فأحل مفاهيم

المذاهب القانونية محلّ المفاهيم المقدسة. ولننظر إلى عوامل اللغة، والهيكل الجمالية، وسوسيولوجيات الذوق، ومشكلات الشعائر، وعوامل الحيز المدني، والتحويلات السكانية، وثورات الأحاسيس والمشاعر: إنها جميعاً من العوامل المتصلة بالسياقات المختلفة والتي لم يشرع في دراستها عدد يُذكر من الباحثين المسلمين أو غير المسلمين. هل يوجد شيء حقاً يسمى السلوك السياسي الإسلامى؟ كيف تتكون الطبقات وتشكل في مجتمعات المسلمين، وكيف تختلف هذه عن نظائرها في أوروبا؟ وما هي المفاهيم وأدوات البحث والأطر التنظيمية والوثائق التي نستطيع بها رصد أفضل مؤشرات الحياة اليومية للمسلم بصفة عامة؟ وهل يفيدنا استعمال مصطلح "الإسلام" في نهاية المطاف باعتباره فكرة، أم تراه يخفى أكثر مما يقول في الواقع أو يشوّهه أو يحرفه أو يضيف عليه دلالات أيديولوجية أوسع؟ وقبل كل شيء، ما مدى تأثير موقع الشخص الذي يطرح أياً من هذه الأسئلة أو يطرحها كلها في الإجابات عليها؟ كيف يختلف موقف عالم الدين المسلم الذي يطرح هذه الأسئلة في إيران، وفي مصر، وفي المملكة العربية السعودية عن موقفه منذ عشر سنوات؟ وما العلاقة بين هذه الأقوال وبين الأسئلة التي يطرحها المستشرق السوفييتي، أو المتخصص في الدراسات العربية بوزارة الخارجية الفرنسية أو عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي في جامعة شيكاغو؟

وفي مجال السياسة نجد أن الاستجابة الإسلامية أو الرد

الإسلامى الموحد الذى ظهر أخيراً لا يقل فى " تشيئه" للأمر ، ولا يقل فى اعتلاله ، وفى كونه ستاراً يخفى العديد من العناصر التى تتسم بالتناقض المدمر ، عن استعمال مصطلح "الإسلام" فى الغرب . ففى كل حالة تقريباً نجد أن الدولة فى المنطقة الإسلامية الوسطى (التي تمتد من شمالى إفريقيا إلى جنوبى آسيا) تعبر عن ذاتها واعيةً بعبارات إسلامية . وهذه حقيقة سياسية مثلما هى حقيقة ثقافية، ولم يبدأ إدراكها فى الغرب إلا منذ عهد قريب^(٦١) . فالمملكة العربية السعودية ، مثلاً (على نحو ما يدل عليه اسمها) هى دولة البيت الملكى لآل سعود وهو الذى أدى انتصاره على القبائل الرئيسية فى المنطقة إلى نشأة الدولة . وما تقوله هذه الأسرة وما تفعله باسم الدولة وباسم الإسلام يعبر عن سلطان الأسرة ، بالإضافة إلى ما شهدته باعتبارها عضواً من أعضاء المجتمع الدولى، وما كسبته هى نفسها من سلطة وشرعية كبيرة فيما يتعلق بالشعب فيها . ويمكن ترديد أقوالٍ مماثلة عن الأردن ، وعن العراق ، وعن الكويت ، وعن سوريا ، وعن إيران قبل الثورة ، وعن باكستان ، باستثناء واحد وهو أن حكم الأقلية فى جميع هذه الحالات ليس فى يد أسرة واحدة . ولكن الصحيح أن أقلية نسبية - سواء كانت طائفة دينية ، أو حزباً واحداً ، أو أسرة ، أو تجمعاً إقليمياً - هى التى تهيمن على الآخرين جميعاً باسم الدولة وباسم الإسلام ، ويستثنى من ذلك لبنان وإسرائيل ، فكلاهما تنتمى إلى العالم الإسلامى جغرافياً ، ولكن الحكم فى

أيدى أقلية مسيحية فى إحداهما ، وفى أيدى أقلية يهودية فى الأخرى ، ومع ذلك فكل منهما تعبر عن جانب كبير من هيمنتها تعبيراً دينياً .

ولقد أحست جميع هذه الدول إلى حد كبير ، كل منها بأسلوبه الخاص ، بأنها ترد على تهديدات خارجية ، ولجأت من ثم إلى الدين أو التقاليد الوطنية ، على الترتيب ، فاتخذت بذلك صورة رد الفعل على هذه التهديدات . ولكن كل دولة منها - وهذا هو جوهر الموضوع - تواجه معضلة عسيرة الحل إلى حد مدهل . فمن ناحية معينة نرى أن هيكل الدولة لا يستجيب استجابة كاملة للتعددية فى القوميات والأديان والطوائف القائمة فى كل منها . وهكذا نجد فى المملكة السعودية أن قبائل أو عشائر مختلفة قد تشعر بالضيق لوجود دولة تقول إنها دولة العرب التابعة لعشيرة آل سعود . ونجد فى إيران كذلك ، وحتى يومنا هذا ، أن هيكل الدولة لا يتيح مكاناً لأبناء أذربيجان ، وبلوخستان ، وللاكراد وللعرب وللآخرين الذين يشعرون بأن هويتهم العرقية الخاصة معرضة للخطر نتيجة ذلك . ونرى التوتر نفسه ، وعلى جبهة أعرض ، وهو يتكرر فى سوريا ، والأردن ، والعراق ، ولبنان ، وإسرائيل . ومن ناحية أخرى نرى أن السلطة المهيمنة فى كل من هذه الدول قد استخدمت أيديولوجية وطنية أو دينية للإيحاء بمظهر الوحدة فى مواجهة ما ترى أنه يمثل تهديدات خارجية . وهذا ، بوضوح ، هو الحال فى المملكة العربية

السعودية ، حيث يمثل الإسلام التيار الأيديولوجي الذي يتميز بالسعة والمشروعية الكافية لضم صفوف الشعب تحت لوائه . وهكذا غدا ”الإسلام“ في المملكة العربية السعودية وفي إيران قبل الثورة معادلاً للأمن القومي . ولما كانت هذه الهياكل السياسية تتفق مع الأنماط الغربية للإسلام ، فقد أصبحت تتعرض للمزيد من الضغوط الخارجية والداخلية .

وهكذا فإن ”العودة إلى الإسلام“ أبعد ما تكون عن الحركة الموحدة أو حتى الحركة ذات المعنى المتسق ، بل إنها تجسيد لعدد من حقائق الواقع السياسية . فهي في عيني الولايات المتحدة صورة انفصام لا بد من مقاومته في بعض الأحيان وتشجيعه في أحيان أخرى . فنحن نتحدث عن المسلمين السُّنيِّين المعادين للشيوعية ، وعن المسلمين المتمردين البواسل في أفغانستان ، وعن المسلمين ”المعتدلين“ مثل السادات ، ومثل الأسرة السعودية الحاكمة ، ومثل ضياء الحق . ومع ذلك فنحن ننتقد المسلمين المناوئين من أتباع الخوميني ، والطريق الإسلامي ”الثالث“ الذي ينادى به القذافي ، كما ننزع في افتتاننا المريض بإقامة ”الحدود الإسلامية“ (أي العقوبات الشرعية) مثل الحدود التي أمر بإقامتها خلخال في إيران ، إلى تضخيم سطوتها كأنما يتخذها الحكام أداة لاستمرار سلطانهم . ولننظر إلى الإخوان المسلمين في مصر ، وإلى المناوئين الإسلاميين في المملكة العربية السعودية الذين استولوا على مسجد المدينة المنورة ، وإلى جمعيات الإخوان

المسلمين والطلائع الإسلامية التي تعارض حزب البعث الحاكم في سوريا ، وإلى المجاهدين في إيران ، وكذلك إلى الفدائيين ودعاة التحرير : إنهم يمثلون جميعاً جانباً صغيراً مما يمثل تياراً معارضاً يجرى في أرجاء الأمة ، وإن كنا لا نعلم إلا أقل القليل عنه . أضف إلى ذلك أن شتى القوميات التي ينتمى إليها المسلمون الذين حرموا من هوياتهم في شتى الدول التي تخلصت من الاستعمار ترفع أصواتها في طلب الإسلام الذي تدين به . وتحت هذا كله - في المدارس والمساجد والنوادي وجمعيات الإخوان والنقابات والأحزاب والجامعات والحركات والقرى والمراكز الحضرية في جميع أنحاء العالم الإسلامى - تعلو أمواج المزيد من أنواع النزعات الإسلامية ، والتي يزعم عدد كبير منها أنها تهدى أعضائها حتى يعودوا إلى "الإسلام الحقيقى" (٦٢) .

ولا يحيط أبناء الغرب الذين تطالبهم أجهزة الإعلام ويطالبهم المتحدثون بلسان الحكومات بالنظر في "الإسلام" إلا بقدر بالغ الضلالة من هذه الطاقات المتنوعة لدى المسلمين . وأما أخطر أنواع سوء التصوير فنراها حين يُطلب إلى الناس النظر في "عودة ظهور" الإسلام (٦٣) . فأما المستمسكون به فدائماً ما كانت صورته تتميز ، قطعاً ، في أذهانهم وقلوبهم ، بالانتعاش ، والحيوية ، والثراء الفكرى والشعورى والإنتاج الإنسانى . ودائماً ما كانت "الرؤية الإسلامية" (إذا استعرنا التعبير المفيد الذى أتى به الباحث و. مونتجومرى واط (٦٤)) تثير في تفكير المؤمنين معضلات خلاقة .

ما العدالة ؟ وما الشر ؟ متى ينبغي الاستناد إلى النقل طلباً للصحيح والمأثور ؟ ومتى يجوز الاجتهاد (الرأى الفردى) ؟ وتتكاثر الأسئلة ويقوم العاملون بعملهم - ومع ذلك فنحن لا نكاد نرى أو نسمع فى الغرب شيئاً عنه . والواقع أن جانباً كبيراً من الحياة الإسلامية غير مرتبط بالنصوص ولا مقصور على شخصيات بعينها أو على هياكل واضحة حتى لقد أصبح مصطلح "الإسلام" ، الذى زاد استعماله عما ينبغي ، دليلاً لا يعتمد عليه إلى ما نحاول أن نفهمه .

ومع ذلك فإن النزاع بين " الإسلام " و " الغرب " نزاعٌ جدُّ حقيقى . ونحن نتناسى أن كل حرب من الحروب يستخدم فيها صفّان متقابلان من الخنادق ، وصفّان من المتاريس ، وأكّتان من آلات الحرب . وعلى نحو ما أدت الحرب مع الإسلام ، فيما يبدو، إلى توحيد العرب حول معارضة قوة الإسلام ، أدت الحرب مع الغرب إلى توحيد الكثير من القطاعات فى العالم الإسلامى . فإذا كان الإسلام من العوامل الحديثة العهد نسبياً فى الولايات المتحدة ، فلقد بدا للكثير من المسلمين أن الولايات المتحدة جزء من الغرب ، وهو ما جعلها ، من ثم ، من الظواهر التى كثيراً ما نوقشت فى العديد من الدوائر الإسلامية على امتداد عقود طويلة . وأعتقد أن الكثير من الباحثين الغربيين فى الثقافة الإسلامية يميلون إلى تضخيم تأثير " الغرب " فى الفكر الإسلامى فى المائتى عام الأخيرة ، وهم يفترضون خطأً من " الغرب " و " التحديث "

يشغلان بؤرة الوعي الإسلامى منذ عهد بعيد ، من المحيط الأطلسى إلى الخليج العربى . ولكن هذا غير صحيح ، لأن المجتمعات الإسلامية ، شأنها فى ذلك شأن غيرها ، تركز على بعض الأشياء أحياناً ، وعلى سواها فى أحيان أخرى . ولكن من الصحيح أن ”الغرب“ كان موضوعاً شغل مئات الصفحات من المجادلات والدراسات والتفسيرات الأصيلية ، إلى جانب توفير شتى المشروعات والمهام للعديد من الشخصيات العامة والأحزاب والحركات فى العالم الإسلامى^(٦٥) ، ولكنه من الخطأ ومظاهر الغرور أن نتصور أن العالم الإسلامى كله لم يشغل إلا بهذا الذى لا يعدو أن يكون ، فى نهاية المطاف ، من الشئون الخارجية .

ومما له أهميته البالغة أيضاً أن نتذكر أن إحدى الخصائص العظمى للثقافة الإسلامية تتمثل فى ثراء طاقتها على التفسير وحذقها الشاسع فى هذا المجال . ربما يكون صحيحاً أن الإسلام قد خلف تراثاً بالغ الروعة والإبهار فى الفنون الجمالية البصرية ، ولكن الأهم من ذلك ، وما لا يقل عنه صحة ، هو أن الإسلام لا تكاد تجاربه حضارة أخرى فى تشجيع فنون التفسير اللفظى على مثل هذا النطاق الواسع . فلقد بُنيت مؤسسات كاملة ، وتقاليد قائمة برأسها ، ومدارس فكرية مستقلة ، من بعض مذاهب الشرح والتعليق ، والنظريات اللغوية ، والإبداعات التفسيرية . وليس معنى هذا أن التقاليد الدينية الأخرى تخلو من ذلك ، فهى لا تخلو منها ، ولكن علينا أن نتذكر أن الخبرات الشفاهية

واللفظية فى الإسلام قد نمت وتطورت دون منافسة تباريها أو تضارعها ، وامتد نطاقها ليصبح أشمل وأكثر تخصصاً من سواء . ولا غرو إذن أن يطلق الدستور الإيرانى الجديد على الفقيه صفة مرشد الأمة، فليس الفقيه هو الفيلسوف الملك الذى تتصوره أجهزة الإعلام ، فيما يبدو ، بل هو - حرفياً - أستاذ الفقه ، أى أستاذ علوم التفسير للشريعة الإسلامية ، أو هو ، بتعبير آخر ، قارئ عظيم .

ومما يدعو للأسى أن المجتمع الإسلامى القائم على ما أخذ به من تفسير ، والمجتمع الغربى أو الأمريكى الذى شكلته أجهزة الإعلام فى المقام الأول ، يراهنان بجانب كبير من طاقتهما على نقطة الخلاف الضيقة والمواجهة بينهما ، وفى غمار ذلك يتجاهلان كل ما يتصل بتلك المواجهة . ولما كنا على أتم استعداد لتصديق ما يقال عن المسلمين الذين يعارضون أمريكا "الشيطانية" ، فمن المجدى أن نلتفت إلى حقيقة ما حدث فى الواقع . فإذا كان من المؤكد أن السيطرة على "الأخبار" و"الصور" فى الغرب ليست فى أيدي المسلمين ، فمن المؤكد أيضاً أن تأخر المسلمين الشامل فى تفهم أسباب تبعيتهم هو الذى يمنعهم من اتخاذ إجراء ما بشأن ذلك . ولا تستطيع الدول الغنية بالنفط من جانبها أن تشكو نقص الموارد . إذ لا ينقص حقاً إلا بعض قرار سياسى متكاتف بدخول العالم دخولاً جاداً ، وهو النقص الذى يثبت أن الدول الإسلامية أبعد ما تكون عن تشكيل جبهة موحدة ، فهى لم تحتشد لذلك بل

ولم تتماسك سياسياً حتى الآن . فعليها أولاً تشجيع العديد من المواهب المتوافرة ، وليس أقلها شأننا طاقتها على رسم صورة واضحة قوية واعية لذاتها ، ولكن هذا معناه إجراء تقييم جاد للتقييم الإيجابية التي يمثلها المسلمون (أى عدم الاقتصار على الدفاع وردود الأفعال) . ولقد دارت ولا تزال تدور مناظرة كبرى حول هذا الموضوع فى العالم الإسلامى ، وهى عادة ما تتخذ صورة مناقشات للتراث (والمقصود هو التراث الإسلامى دون غيره)^(٦٦) : وقد آن أوان نقل ما انتهت إليه من نتائج وما بحثته من قضايا إلى سائر أقطار العالم . لم تعد أماننا ذريعة تبرر النحيب على عداء ” الغرب “ للعرب والإسلام ثم القعود عن العمل والإحساس بغضبة صاحب الحق المظلوم . فإذا أقدم المسلمون على تحليل أسباب هذا العداء ، دون خوف ، وكذلك تحليل تلك العوامل التي تشجعه فى ” الغرب “ ، فلسوف يتخذون خطوة مهمة على طريق تغيير الموقف ، ولكن الخطوة لا تشمل الطريق كله : إذ لا بد من إحلال شئ ما محله حتى لا تكون النتيجة موجة جديدة من الدعاية المعادية للإسلام . ولا شك أن المسلمين يواجهون اليوم خطراً بالغاً يتمثل فى فعل ما قد يثبت صحة الصورة السائدة المعادية للإسلام ، وإن كان ذلك حتى الآن مقصوراً على بعض المسلمين ، وبعض العرب ، وبعض السود من أبناء إفريقيا . ولكن هذه الأفعال التي تثبت صحة الصورة تؤكد أهمية ما لم يفعله المسلمون حتى الآن ، وما عليهم أن يفعلوه .

أعتقد أن عددًا كبيرًا من البلدان الإسلامية ، في غمرة اندفاعها نحو التصنيع والتحديث والتنمية ، قد استجابت ، وبدرجة أكبر مما ينبغي أحيانًا ، لإغراء التحول إلى أسواق استهلاكية . وأما دحض أساطير الاستشراق وصوره النمطية فيقتضى من أجهزة الإعلام ومن المسلمين أنفسهم أن يتيحوا الفرصة للعالم كله لرؤية المسلمين وأبناء الشرق وقد أصبحوا منتجين (لا مستهلكين فقط) . والأهم من ذلك أن ينشروا صورة مختلفة للتاريخ ، ونوعًا جديدًا من علم الاجتماع ، ووعيًا ثقافيًا جديدًا : وباختصار ، لابد للمسلمين أن يؤكدوا الهدف من أن يعيشوا في كنف شكل جديد للتاريخ ، باستكشاف ما يطلق عليه مارشال هودجسون "العالم الإسلامي المركب"^(٦٧) ومجتمعاته الكثيرة المتنوعة ، وأن يتسلحوا في سبيل ذلك بجديّة الغرض ، وبالعجلة والإلحاح اللازم لإبلاغ النتائج إلى خارج العالم الإسلامي . ولقد كان ذلك قطعًا ما قصد إليه على شريعتي في حديثه للمسلمين الإيرانيين عندما أضاف الطابع العالمي على هجرة النبي محمد ، ﷺ ، من مكة إلى المدينة ، فجعلها تنطبق على وضع الإنسان ذاته باعتباره "اختيارًا ، وكفاحًا ، وصيرورة متواصلة . إنه هجرة لا نهائية، هجرة داخل نفسه، من الصلصال إلى الإله ؛ إنه مهاجر داخل روحه نفسها"^(٦٨) .

كانت أمثال هذه الأفكار التي أتى بها شريعتي تغزو الثورة الإيرانية في مراحلها الأولى ، وهي التي وضعت نهاية حاسمة

للافتراض القديم الذى جمدت عليه أذهان البعض ، أى افتراض أن المسلمين عاجزون بصفة أساسية عن القيام بثورة حقيقية أو عن تحرير أنفسهم من أغلال الطغيان والظلم . وكان مما ازدادت أهميته حتى عن ذلك أن الثورة الإيرانية أثبتت فى مراحلها الأولى ، على نحو ما كان يقول به شريعتى دائماً ، أن على المسلم أن يجعل من الإسلام فى أعماقه تحدياً وجودياً يهبه القوة ، لا استسلاماً سلبياً للسلطة ، بشرية كانت أم إلهية . ففى الدنيا التى تفتقر إلى ”المعايير الثابتة“ ، ولا يصح فيها إلا الأمر الإلهى ”بالهجرة“ من الصلصال إلى الإله ، يكون على المسلم ، حسبما يقول به شريعتى ، أن يشق لنفسه طريقاً خاصاً به وحده . بل إن المجتمع البشرى نفسه هجره ، أو تأرجح ما بين ”قطب قابيل“ (الحاكم ، الملك ، الأرستوقراطية : أى السلطة المركزة فى يدى فرد واحد) وبين ”قطب هابيل“ (طبقة العوام أو ما يطلق عليه القرآن تعبير الناس : الديموقراطية ، الذاتية ، التواصل الاجتماعى)^(٦٩) . وكانت تعاليم الخومينى الأولى على نفس المستوى من القوة ، وإن كان يقل مرونة عن شريعتى فوصف محنة المسلم بأنه قد كتب عليه دوماً ، أن يواجه الاختيار بين الحلال والحرام (أو الخير والشر) . ومن ثم كانت دعوته إلى إقامة جمهورية ”إسلامية“ وكان يقصد بها ترسيخ أسس الخير وإنقاذ المستضعفين (أو المظلومين) مما يكابدونه .

ولقد أدت هذه الأفكار ، بطبيعة الحال ، إلى قلقلة رهية فى

إيران ، ولكن الثورة الإسلامية لم تجتذب فى الغرب أى تعاطف . بل لقد واجهت الأحداث الإيرانية ، حتى فى الأقطار الإسلامية ، الخوف من طاقتها ، ومن حماسها ، وتعصبها الدينى المؤدى إلى التمزق ، والذى يشبه تعصب المؤمنين بعودة العصر الذهبى . وهكذا نرى فى العالم الإسلامى اليوم انقسامًا عريضًا بين تيارين ، الأول يمثل الآراء ' الصحيحة ' الرسمية للحياة الإسلامية والثانى يعارضه ويتخذ أشكالاً كثيرة متفاوتة ، ولنقل إنه "إسلام ضد ثقافى" ، وكانت الثورة الإيرانية من صور التعبير الرائدة عنه^(٧٠) . والمفارقة هى أن الآراء الغربية فى الإسلام تفضل أن تربط بين "الإسلام" وبين ما يعارضه كثير من المسلمين أنفسهم فى الوقت الراهن ، ألا وهو الحدود ، والتسلط ، وأساليب المنطق القروسطى ، وحكم رجال الدين .

ثالثاً : حادثة الأميرة فى سياقها :

لا تزال صورة الإسلام فى أعيننا تتعرض لما يسلبها القوة ،
 حتماً ، وأقصد بذلك قدرتنا على تمثيل الإسلام فى الصورة التى
 تناسب أغراضنا ، وقد تقوم دولة أو حكومة أو جماعة بالاستجابة
 لنا فتختزل الإسلام حتى يتفق مع مناسبة من المناسبات ، وتقدم لنا
 صورة أبعد ما تكون عن الإسلام الحقيقى ، وهكذا نجد أن التلاقى
 بين الجانبين - ”نحن“ و”هم“ - لا يضيف الشرف السابغ على
 أيهما . والأهم من ذلك أن هذه الصورة تخفى فى تغطيتها
 الإعلامية أكثر مما تكشف عنه صراحة . وسوف أضرب المثال لما
 أعنيه بحادثة أتولى تحليلها بعد أن كثر فيها القيل والقال .

فى يوم ١٢ مايو ١٩٨٠ عرضت محطة ”هيئة الإذاعة
 العامة“ فيلمًا بعنوان ”موت أميرة“ أخرجه مخرج سينمائى
 بريطانى يدعى أنطونى توماس . وقبل ذلك بشهر ، كان الفيلم قد
 تسبب فى أزمة دبلوماسية بين المملكة المتحدة والمملكة العربية
 السعودية ، أدت إلى سحب السفير السعودى من لندن ، ومقاطعة
 السياح السعوديين لـ إنجلترا ، والتهديد بفرض المزيد من العقوبات .
 ولماذا ؟ لأن الفيلم فى نظر السعوديين يمثل إهانة للإسلام ، ويقدم
 صورة خاطئة للمجتمع العربى بصفة عامة وللعدالة السعودية بصفة
 خاصة . ويقوم الفيلم على حادثة ذائعة ، وهى حادثة إعدام
 إحدى الأميرات مع عاشق لها من أبناء الشعب ، ويتخذ شكل
 الدراما الوثائقية (التسجيلية) التى يبحث فيها أحد الصحفيين عن

الحقيقة . فالصحفي البريطاني يحاول أن يعرف ما حدث على وجه الدقة للعاشقين ، ويسافر في سبيل ذلك إلى بيروت حيث يتحدث مع اللبنانيين والفلسطينيين ، ثم يسافر إلى المملكة العربية السعودية حيث يتعرض ، بطبيعة الحال ، للمماطلة والمراوغة من جانب المسؤولين . وفي غمار ذلك لا يخرج إلا بنتيجة واحدة وهي أن الذين قابلهم وتحدث معهم يفسرون قصة الأميرة باعتبارها رمزاً لمعضلاتهم السياسية والأخلاقية . فالفلسطينيون يرون أن الأميرة، مثلهم ، منبوذة تسعى للحرية والتعبير عن نفسها سياسياً . ويرى بعض اللبنانيين فيها نموذجاً للصراع فيما بين العرب ، وهو الذي أدى إلى تمزيق لبنان . ويرى المسؤولون السعوديون أن القضية لا تخص أحداً سواهم ، ويقولون إن الغربيين لم يهتموا بها إلا لأنها تسئ إلى النظام الحاكم . وأخيراً تقول حفنة من المطلعين على الخبايا إن محتتها توجه الاتهام لنفاق ذلك النظام ، الذي يستغل ”الإسلام“ وقانون القصاص الإسلامي في التكتّم والتستر على فساد الأسرة المالكة . وأما نهاية الفيلم فهي نهاية مفتوحة ، فكل تفسير من هذه التفسيرات يتضمن قدرًا من الحقيقة ، ولكن أيًا منها لا يكفي في ذاته لإيضاح ما حدث في الواقع .

وفي الولايات المتحدة أعلنت الحكومة السعودية عن معارضتها لعرض الفيلم ، وقد أدى ذلك إلى بعض النتائج التي لم يقبلها الجمهور ، من بينها أن وارن كريستوفر ، من وزارة الخارجية الأمريكية ، لفت نظر المحطة التلفزيونية المذكورة علناً إلى استياء

المملكة العربية السعودية ، ومنها أن شركة إكس كون للنفط نشرت إعلانات في الصحف الكبرى تدعو المحطة فيها إلى ”مراجعة“ قرارها . وقد ألغت المحطة عرض الفيلم في عدة مدن، كما قامت، إقراراً منها بطبيعة الفيلم الخلافية ، بإذاعة مناقشة تحليلية استمرت ستين دقيقة عقب عرض الفيلم مباشرة ، شارك فيها ستة من المتحدثين إلى جانب رئيس الجلسة ، وكان أحدهم مندوب الجامعة العربية ، والثاني أستاذاً للقانون في جامعة هارفارد ، والثالث رجل من رجال الدين الإسلامي يقيم في منطقة بوسطن ، والرابع أمريكي شاب قيل إنه متخصص في الدراسات العربية (وكانت تلك تسمية غريبة ، نظراً لأنه لم يكن أكاديمياً ولا مسئولاً حكومياً) إلى جانب امرأة في مقتبل العمر تتمتع بخبرة في مجال التجارة والصحافة في الشرق ، وأخيراً صحفي بريطاني التزم بالأمانة في إبداء كراهيته لما يجري في المملكة العربية السعودية . واشترك هؤلاء الستة في تقديم ساعة كاملة من الكلام الذي كان يفتقر ، دون مبالغة ، إلى الترابط . فالذين كانوا يعرفون شيئاً عن المنطقة كانوا كثيراً ما يلتزمون بسبب مناصبهم بموقف الدفاع الرسمي الذي يلتزم به ”المسلمون“ . ولذين لا يعرفون إلا القليل، أثبتوا ذلك ، بطبيعة الحال ، والباقون كانوا، إلى حد ما، يقولون كلاماً لا صلة له بالموضوع .

وكانت الضغوط المبذولة لمنع عرض الفيلم تستند مُحَقَّةً إلى مسائل تتعلق بالتعديل الأول للدستور الأمريكي ، وأعتقد أنه كان

ينبغي عرضه . وأما أهم المسائل التي لم يفصح عنها أحد بشأن الفيلم (وهو في رأيي عمل تافه إذا قيس بمقاييس الفن السينمائي) فهي ما يلي : (أ) أن الذي صنع الفيلم ليس مسلماً ، و(ب) من الراجح أن يكون الفيلم الوحيد الذي يُحتمل أن يشاهده المتفرج العادي ، فإن لم يكن الوحيد فهو بالتأكيد أشد الأفلام تأثيراً ، و(ج) أن المناقشات التي دارت حول الفيلم ، سواء في البرنامج التحليلي الذي أعقبه أو في أي مناسبة أخرى ، كان من أندر النادر أن تتعرض لقضايا السياق ، والسلطة ، والتمثيل . فلقد تمتع عمل توماس ، كما هو واضح ، بقوة الجاذبية ”الجاهزة“ التي لا يتمتع بها فيلم عن اليمن ، مثلاً ، إذ إن الجنس ، والحدود الشرعية ”الإسلامية“ (وخصوصاً تلك التي تؤكد أسوأ ما نرتاب ”نحن“ فيه بشأن همجية المسلمين) إذا تَزَيَّتْ بأزياء الدراما الوثائقية (التسجيلية) قادرة على اجتذاب جمهور واسع من المشاهدين . وقالت مجلة ذا إيكونوميست في إبريل ١٩٨٠ : ” الشريعة الإسلامية لا تعنى عند معظم الغربيين إلا الحدود الشرعية الإسلامية ، وهذه أسطورة مبسطة قد يكون الفيلم قد دعمها“ . وازداد اتساع نطاق الجمهور عندما تسرب نبأ لجوء الحكومة السعودية إلى استخدام نفوذها في الكواليس لمنع عرضه (وكان من بين من استعانت به أيضاً شركة إكس كون) . وقد أدى ذلك كله إلى تأكيد أن فيلم ”موت أميرة“ ليس فيلماً من صنع المسلمين ، بل فيلم لم يكن للمسلمين ما يقولونه بشأنه إلا ما هو جد محدود، وكرهه نسبياً ، ولا تأثير له على الإطلاق .

ولابد أن منتجى الفيلم والمحطة التي عرضته كانوا يدركون ، شأنهم في ذلك شأن أى مسلم أو فرد من أفراد العالم الثالث ، أنه مهما يكن مضمون الفيلم ، فإن القدرة على إنتاجه أو صناعته ، أى مجرد عرض المشاهد المتوالية فى صور ، كان مزية ترجع إلى ما سبق لى أن أطلقت عليه القوة أو السلطة الثقافية ، وهى فى هذه الحال القوة أو السلطة الثقافية للغرب^(٧١) . كان امتلاك السعوديين للمزيد من المال ، ببساطة ، أمراً لا صلة له بالقضية : فإن إنتاج الأنباء والصور فعلياً وتوزيعها - عملياً - أقوى من المال لأنها تمثل القوة أو النظام الذى يُعتدُّ به فى الغرب أكثر من مجرد رأس المال . وفى مقابل هذا النظام ، كانت الاعتراضات السعودية على الفيلم باعتباره مهيناً للإسلام تمثل بدورها محاولة لحشد قوى نظام تمثلى أو رمزى أضعف ، أى صورة النظام الحاكم لنفسه باعتباره المدافع عن الإسلام ، ابتغاء "تحييد" ما يطلق عليه الصورة الغربية للإسلام (بمعنى إلغاء تأثيرها) .

وأحرز النظام الغربى انتصاراً آخر فى المناقشة التحليلية التى أذاعتها المحطة التليفزيونية المذكورة ، إذ استطاعت - من ناحية - أن تزعم صراحة أنها قد استجابت لاستياء السعوديين بإتاحتها إذاعة تلك المناقشة للقضايا المطروحة ، فأثبتت حساسيتها أو إدراكها للموقف ، ولكنها استطاعت ، من ناحية أخرى ، أن تتحكم فى المناقشة ، وذلك بأن ضمنت تحقيق "التوازن" بين الآراء المتباينة التى لم يحسن المتحدثون التعبير عنها ، وهم حفنة من الأفراد

المجهولين نسبياً والذين لا يمثلون حقاً أصحاب تلك القضايا ، وبذلك ضمنت أيضاً أن تسلب أى مناقشة عميقة أو مديدة قوتها أو حدتها . بل إن إذاعة المناقشة فى ذاتها كانت بمثابة البديل لأى تحليل دقيق . وكان من الأدلة على نجاح تلك الحادثة عدم قيام أحد بالتعليق على البناء غير المحكم للفيلم ، ولا على ”التوازن“ فى المناقشة التحليلية ، وهما العاملان اللذان انتهيا نهاية مفتوحة مضللة حالت دون الحكم الصائب على الموضوع الفعلى وهو أحوال أحد المجتمعات الإسلامية المعاصرة . فنحن لا نعرف حتى الآن (وربما لم يكن يهمنا أن نعرف حقاً) ما فعلته الأميرة فى الواقع ، مثلما سمعنا المشاركين فى المناقشة وهم يقولون ”إن الفيلم ردى“ أو ”إن الفيلم جيد وصادق“ . ولكن الحقيقة التى لم يعترف بها أحد ، والتى تكمن وراء الفيلم ووراء المناقشة ، هى أن مثل هذا الفيلم يمكن إنتاجه وعرضه فىأتى بعواقب أخطر من أية عواقب يمكن أن يأتى بها فيلم سعودى يعتبر مُسيئاً إلى المسيحية أو إلى الولايات المتحدة أو الرئيس كارتر .

والواقع أن النظام السعودى الحاكم حين بذل جهوده لمنع عرض الفيلم قد وجد نفسه فى موقف من ينكر وقوع شىء لا يستطيع حقاً إنكار وقوعه (الحادثة نفسها) ، وأيضاً موقف العاجز عن تقديم صورة للإسلام تناقض ما جاء فيه . وهكذا فإن التعقيد الشديد المصاحب لاختزال صورة الإسلام ، وهو ما سبق لى التحدث عنه ، قد سلب أى اعتراضات على الفيلم قدرتها

على التأثير ، إذ أصبح الاختيار محصوراً بين أمرين : إما أن يقول المشاهد ”لا ! ليست الأحوال حقاً على هذا النحو“ أو ”ذلك هو الحال حقاً“ ، وهذا يتطلب ، بطبيعة الحال ، توافر الفرصة لمن يقول بهذا أو ذاك فيحدث تأثيراً ما ، ووجود مكان يقول ذلك فيه . أما المتحدث الرسمي باسم المملكة العربية السعودية ، فلم يتوافر له هذا ولا ذاك ، ولم يجد سوى الأسلوب الذي تدينه ثقافتنا وهو محاولة منع عرض الفيلم على الإطلاق . وقد بذل المسئولون السعوديون بعض الجهود التي لا تفصح عن الحماس الكامل للإشارة إلى جوانب الإسلام ”الحسنة“ ولكن هذه الجهود لم تكن لها أصداؤها في المناظرة الجارية . والأسوأ من ذلك أنه لم يتوافر على الساحة الأمريكية عدد من المتحدثين الذين يتمتعون بالقوة الكافية والقدرة على تبيان الأسس الثقافية التي تثبت أن الفيلم تافه من الناحيتين الفنية والسياسية معاً ، بل أتفه من أن يستطيع أن يحمل أى رسالة مهمة . ولم نشهد ، لسوء الحظ ، ما هو أسوأ من أن يظهر معارضو الفيلم - فى أمريكا وفى إنجلترا - بمظهر عملاء للمصالح المالية السعودية (على نحو ما أشار إليه ، وبألفاظ لا تخفى احتقاره ، ج. ب. كيلي فى صحيفة ”نيو ريبليك“ بتاريخ ١٧ مايو ١٩٨٠) وفى النهاية ، فإن معارضى الفيلم لم تكن فى أيديهم أجهزة النشر والإذاعة اللازمة للطعن فى الفيلم على أسس نقدية . ولنا أن نتبين مدى سخافة الخلاف كله ، وبسرعة ، إذا نحن قارناه بالمناظرة التى دارت حول

فيلم ذكرى العدالة للمخرج مارسيل أوفلس ، أو حول فيلم المحرقة أو عند إعادة عرض الأفلام التي أخرجها لينى ريفستال .

ولقد مكنتنا عرض فيلم موت أميرة من ملاحظة ما هو أبعد من ذلك . لقد كانت أجهزة الإعلام الأمريكية ، والأوساط الفكرية والثقافية من حولها ، تعج - دون مبالغة - بالإهانات الموجهة للإسلام والعرب قبل أن يسمع أحد عن 'الأميرة' بوقت طويل . فلقد شهدنا فى مناسبتين سابقتين على الأقل كيف وجه عمدة مدينة نيويورك إهانة مباشرة إلى عاهل المملكة العربية السعودية ، حين رفض تحيته أو مجاملته بأبسط ألوان المجاملات وأكثرها شيوعاً . وأظهر البحث الجاد أنه لا يكاد يخلو برنامج تليفزيونى يعرض وقت الذروة من عدة قصص تتضمن صوراً هزلية للمسلمين وتتسم بالعنصرية السافرة والإهانات المباشرة ، ومن الاتجاه إلى تمثيل المسلمين جميعاً بصورة عامة قاطعة ودون تخصيص أو تحديد ، بحيث يظهر كل مسلم ممثلاً لجميع المسلمين وللإسلام بصفة عامة^(٧٢) . ولننظر إلى الكتب المقررة فى المدارس الثانوية ، وإلى الروايات والأفلام والإعلانات ، ولتساءل كم منها يتضمن حقاً معلومات عن الإسلام ، ناهيك بإظهاره فى صورة حسنة ؟ ما مدى انتشار المعرفة بالفرق بين الإسلام الشيعى والإسلام السننى ؟ لا يكاد يعرف الفرق أحد ! ولننظر فى العلوم الإنسانية التى تُدرّس فى جامعاتنا : إن معظمها ، إن لم نقل كلها ، تضع مقرراتها الدراسية بحيث توازى بين "العلوم الإنسانية"

وبين الروائع الأدبية التي تبدأ بالشاعر اليوناني هوميروس وكتّاب
المأساة اليونانيين وتنتهى بالروائي الروسي دوستويفسكى والشاعر
ت.س. إليوت، مروراً بالكتاب المقدس ، وشيكسبير ، ودانتى ،
وثيربانتيس . وما مكان الحضارة الإسلامية المجاورة لأوروبا
المسيحية وسط هذا المنهج الذى يتسم بالتركيز العرقى ؟ وإذا
استثنينا الكتب الحديثة إلى أبعد حد مثل الإسلام المحارب أو
خنجر الإسلام أو كتاب ”كفاحى بقلم آية الله الخومينى“ ، فما
هى الكتب العامة عن الحضارة الإسلامية التى يجرى توزيعها على
نطاق واسع ؟ أو يُرجع إليها ؟ أو يطلب قراءتها أحد ؟ هل من
الممكن أن نقول إن بين السكان قطاعاً محباً للإسلام مثلما نقول إن
بينهم من يحبون الإنجليز أو الفرنسيين مثلاً ؟

وبعد أن خفّت حدة النزاع حول الأميرة ، نسى السعوديون ،
لسوء الحظ ، أن يغضبوا من مجلة أميركان سبكتاتور التى نشرت
مقالة كتبها إريك هوفتر بعنوان ”كسل محمد“ ووضع لها عنواناً
فرعياً هو ”محمد ، رسول التثاقل“^(٧٣) . بل ولم يدرجوا فى
القائمة التى تضم نماذج لسوء إدراك الإسلام بعض ما يذكر الناس
بذلك ، مثل ما نعرفه من أن البلدان الثلاثة التى لا تزال محتلة فى
عالم اليوم وتحتلها قوات أحد حلفاء الولايات المتحدة بلدان
إسلامية . ولم يُقدم النظام السعودى الحاكم على التهديد بالعقاب
إلا حين تعرضت سمعة الأسرة المالكة للتطيط مباشرة . فكيف
تأتى أن يكون الإسلام قد أسئ إليه فى حالة واحدة دون الحالات

الأخرى ؟ لماذا لم يقيم السعوديون حتى هذه اللحظة إلا بجهد محدود نسبياً لتعزيز تفهم الإسلام ؟ وحتى الوقت الحاضر لا يزال إسهامهم الكبير في مجال التعليم مقتصرًا على برنامج دراسات الشرق الأوسط بجامعة جنوبي كاليفورنيا ، وهو الذي يديره موظف سابق في شركة أرامكو^(٧٤) .

ولكن السياق الكامل لحادثة فيلم موت أميرة أشد تعقيداً من ذلك . فلقد كان موضوع التدخل الأمريكي في الخليج موضوعاً شائعاً في المناقشات الدائرة لمدة لا تقل عن خمس سنوات . فمنذ أواخر عام ١٩٧٨ عندما أحجم السعوديون عن المشاركة في عملية كامب ديفيد السلمية ، والمقالات التي تبرز أخطاء النظام الحاكم المتعددة وعيوبه الكثيرة تنشر علينا بصورة منتظمة (وبعضها محشو بالأكاذيب التي تكتسى مظهر الحقائق الصادقة) . وقد اعترف المسؤولون في أواخر يوليو ١٩٨٠ أن وكالة الاستخبارات المركزية (سى آى إيه) كانت من وراء بعض تلك الموضوعات الصحفية : انظر التحقيق الذى نشره ديفيد لى بعنوان ”المعلومات التي تسربت من واشنطن فضلت الطريق : هفوة السى آى إيه التي هزت المملكة العربية السعودية“ (واشنطن بوست ، ٣٠ يوليو ١٩٨٠) . وفي الأعوام الستة عشر من عمر صحيفة نيويورك لمراجعة الكتب، كانت تتجاهل تقريباً شئون الخليج العربى ، ثم قامت فى السنة التالية مباشرة لكامب ديفيد بنشر عدة مقالات عن الخليج ، وكلها تؤكد هشاشة ’ترتيبات‘ الحكم السعودى الحالية . وفى

الوقت نفسه ، بدا أن الصحافة قد اكتشفت صعود نجم الإسلام ، والخصائص القروسطية للحدود الشرعية ، والفقه الإسلامى ، وصورة المرأة . ولم يشر أحد فى ذلك الوقت إلى أن الحاخامات اليهود يعربون عن آراء مماثلة إلى حد مذهل فى المرأة ، أو فى غير اليهود ، أو فى نظافة الجسم (الطهارة) وفى العقاب ، أو إلى أن مختلف رجال الدين المسيحى اللبنانيين يتسمون بنظرة لا تقل تعطشاً للدم وروح القرون الوسطى . وكان اختيار التركيز على النظام الإسلامى السعودى فيما يبدو يتميز بتوزيع الألحان المعزوفة على نغمتين هما ضعفه وغرابته ، ولم يؤد أى لحن منها إلى التقليل من ذلك الضعف وتلك الغرابة . ولكن المقصد من وراء ذلك كان ، فيما يبدو ، أن المملكة العربية السعودية قد تحدت الولايات المتحدة ، وعليها بسبب ذلك أن تكابد مزية الكتابة ”بأمانة“ عنها ، وكذلك أن تخضع لمطلب رفع التكتم على ما تفعله الرقابة السعودية (ولكن لم يشك أحد من الحقيقة المعروفة وهى أنه لا يخرج أى نبأ من إسرائيل دون أن يمر أولاً على الرقيب العسكرى) وانتشر التعبير عن مشاعر الغضب وانتظم ترديدها إزاء انعدام حرية الصحافة فى المملكة العربية السعودية (ترى كم عدد مشاعر الغضب التى عبر أصحابها عنها إزاء القيود التى فرضتها إسرائيل على الصحف والمدارس والجامعات العربية فى الضفة الغربية ؟) لقد أصبحت المملكة العربية السعودية ، فجأة ، حالة فريدة تعلق أصوات الليبراليين والصهيونيين فى الجوقة المشتركة التى

تُقرَّعُها ، وأصوات المادحين ، ومن يكادون يدللونها فى الجوقة المشتركة الأخرى التى تضم رجال المال المحافظين وكبار شخصيات المؤسسة الاجتماعية . وقد أدى ذلك إلى زيادة خفض منزلة المملكة العربية السعودية ، وزاد من النفور منها وظهورها بمظهر الشاذ فكرياً .

وكان من نتائج ذلك أنه ما إن وقعت حادثة فيلم الأميرة حتى ارتفعت أصواتنا ”نحن“ لتنعى ما يتسمون ”هم“ به من نفاق وفساد ، كما أنهم ، بدورهم ، أعربوا عن ضيقهم بما لدينا من قوة وما نفتقر إليه من الحساسية . وتدفقت فى تيار هذه المواجهة شتى جوانب الموازنة بيننا ”نحن“ وبين ”هم“ ، الأمر الذى جعل من المستبعد فعلياً إجراء مناقشة حقيقية ، وتحليل حقيقى ، وتبادل حقيقى . وهكذا فقد أخذ وعى المسلمين بهويتهم يزداد قوة وهم يخسرون المقابلات مع كتلة صلبة متحجرة ، تقدم نفسها باسم ”الحضارة الغربية“ ، وعندما أدرك ذلك مثيرو الدهماء فى الغرب شرعوا فى الانقضاض على التعصب القروسطى وقسوة الطغيان . ومن ثم يصبح مجرد تأكيد الهوية الإسلامية ، فى ذاته ، ولكل مسلم تقريباً ، بمثابة خطوة يعلن بها عن ضرب من التحدى الكونى ، بل وبمباشرة ضرورة من ضرورات البقاء . وتبدو الحرب فى هذا السياق هى النتيجة المنطقية إلى حد بعيد .

ومن النتائج الأخرى غير العسكرية ، وغير المنظورة هذه المرة ، أن بعض الناس هنا وفى العالم الإسلامى قد يكتشفون

الحدود المؤسفة التي تفرضها بطاقات العناوين القسرية مثل "الغرب" و"الإسلام". وربما نكون مبالغين إذا توقعنا أن يؤدي ذلك إلى أن تفقد هذه العناوين ، والأطر التي تدعمها ، قدرتها على تكبيل الناس بها ، ولكنه من المحتمل أن يؤدي ذلك الاكتشاف إلى ظهور "الإسلام" بمظهر أقلّ تصلّباً وبنّاءاً للخوف ، وأن يتضح أن 'العنوان' أقرب إلى أن يكون من عواقب التفسيرات التي تخدم أغراضنا السياسية المباشرة ومن ثمار بواعث قلقنا ، سواء كنا "نحن" مسلمين أو غير مسلمين . فإذا ما توصلنا آخر الأمر إلى إدراك مدى قوة التفسير وعناصره الذاتية ، وإذا أدركنا أن الكثير مما نعرفه (عن العالم) ينتمى إلينا من جوانب تزيد عما نقر به في العادة ، فلسوف نكون قد قطعنا مسافة كبيرة على طريق التخلص من بعض السدّاجة ، ومن قدر كبير من سوء النية ، ومن أساطير عديدة عن أنفسنا وعن العالم الذي نعيش فيه . وهكذا فإن تفهّم "الأنباء" نفسه قد يوازي ، من زاوية معينة ، تفهّم ما نحن عليه ، وكيف تجري الأمور في قطاع معين من المجتمع الذي نعيش فيه . ولابد لنا من تفهّم هذه الأمور أولاً قبل أن نتخذ الخطوة التالية لفهم "الإسلام" الذي تعرض صورته علينا ، والأشكال المختلفة من الإسلام القائمة لدى المسلمين .

فلنحاول القيام الآن بتحليلٍ تفصيليٍّ للحادثة التي تسببت في أكبر قدرٍ من تكدير الصفو ما بيننا "نحن" وبين "الإسلام" : أزمة الرهائن في إيران . فالحادثة تخفي الكثير الذي لابد لنا أن

ندركه ، وتثير من اختلاط الفكر من الناحية السياسية ما لابد لنا من إزالته ، لأنها تسببت في صدمة بالغة لنا ويكتنفها غموض شديد، وكذلك لأنها تقول لنا الكثير ، إذا نظرنا إليها بعين الناقد، عن التيارات الجارية حاليًا في عالم المسلمين . فإذا فرغنا من تناول مسألة إيران استطعنا أن نمضي على الطريق لمناقشة القضايا الأشمل التي تربط ما بين الإسلام والغرب في هذه المرحلة الأخيرة .



الفصل

الثاني

2

قصة

إيران

أولاً: الحرب المقدسة:

أثارت إيران مشاعر غضب لا تزال متأججة في صدور الأمريكيين ، أولاً بسبب الاستيلاء دون وجه حق على السفارة الأمريكية في طهران وبأسلوب مهين إلى حد بعيد ، وهي التي احتلها الطلاب الإيرانيون في ٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، وثانياً بسبب اهتمام أجهزة الإعلام بالحادثة وتركيزها الشديد عليها ووصف تفاصيلها بدرجة لا تكاد تصدق من الدقة . فمعرفة المرء أن الدبلوماسيين الذين يمثلون بلادهم محتجزون وأن الأمريكيين عاجزون عن تخليص أنفسهم ، أمر يختلف تماماً عن مشاهدة ذلك أثناء وقوعه ليلة بعد ليلة على شاشات التلفزيون في ساعة الذروة . ولكننا وصلنا إلى المرحلة التي نحتاج فيها ، في رأيي ، إلى وضع تقييم نقدي لمعنى ما يشار إليه الآن بتعبير "قصة إيران"

حتى نتفهم حضورها في الوعي الأمريكي ، بأسلوب عقلاني ودون انفعال ، خصوصاً لأن نسبة تبلغ نحو تسعين في المائة من الأمريكيين قد عرفت ما تعرفه عن إيران في الآونة الأخيرة عن طريق الراديو والتلفزيون والصحف . إننا لا نستطيع مهما نفعل تخفيف الإحساس بالغضب الشديد وبالجرح الذي أصابنا بسبب احتجاز الرهائن الأمريكيين ، ولا بالاضطراب الذي أدت إليه الصراعات الدائرة في العالم الإسلامي ، ولكنني أرى أن علينا أن نشعر بالامتنان لأن الولايات المتحدة لم تلجأ إلى استعمال القوة المسلحة إلا في مناسبة واحدة . وعلى أية حال، علينا أن نستعرض موقع إيران في عيون الأمريكيين ، في السياق العام لعلاقات الولايات المتحدة والبلدان الغربية بالعالم الإسلامي ، لنرى الصورة التي ظهرت وتظهر إيران بها ، وكيف قدمتها

————— ■ قصة إيران ■ —————

أجهزة الإعلام ، حرفيًا ، وأعادت تقديمها إلى الأمريكيين يومًا بعد يوم .

بدأت إيران تشغل جانبًا كبيرًا من نشرات الأنباء المسائية في الشبكات الإعلامية فور احتلال السفارة . وعلى امتداد شهور متعاقبة خصصت شركة إيه بي سي برنامجًا تلفزيونيًا يوميًا خاصًا يذاع في وقت متأخر من المساء بعنوان احتجاج أمريكا رهينة وقدم برنامج تقرير ماكنتيل / ليرار الذي تقدمه هيئة الإذاعة العامة (بي بي إس) عددًا من الحلقات لم يسبق لها مثيل عن الأزمة . وعلى امتداد شهور ظل وولتر كرونكايت يضيف إلى عبارته المميزة (‘هذا هو الواقع’) عبارة تذكر المشاهدين بعدد الأيام التي قضاها الرهائن في الحجز ، مثل ”اليوم السابع بعد المائتين“ وهلم جرا . وفي غضون أسبوعين تقريبًا أصبح هودنج كارتر ، المتحدث باسم وزارة الخارجية في تلك الأثناء ، يعامل معاملة النجوم ، ومن ناحية أخرى ، لم يكشر ظهور وزير الخارجية سايرس فانس ، ولا مستشار الأمن القومي زبيجنيو برزنسكي ، حتى وقعت المحاولة الفاشلة لإنقاذ الرهائن في أواخر إبريل ١٩٨٠ . وكانت إذاعة المقابلات التلفزيونية مع أبو الحسن بنى صدر ، ومع صادق قطب زاده ، ومع آباء الرهائن ، تعرض بالتناوب مع مشاهد المظاهرات الإيرانية ، والدروس التي لا تستغرق إلا ثلاث دقائق عن تاريخ الإسلام ، والنشرات الطبية الصادرة من مستشفى الشاه السابق ، وأوجه المعلقين والخبراء المتجهمين وهم يحللون ، ويتأملون الموقف،

ويتناظرون، ويخطبون ، ويقدمون النظريات ، ويقترحون الإجراءات اللازمة ، ويحدثون تفسيرات الأحداث في المستقبل ، والاتجاهات النفسية ، والخطوات السوفيتية ، وردود الفعل المتوقعة من المسلمين ، ومع ذلك ظل الأمريكيون الذين يربو عددهم على الخمسين في محبسهم .

واتضح خلال تلك الفترة أن الإيرانيين كانوا يستخدمون أجهزة الإعلام لما يرون أنه في صالحهم ، وهو الرأي الذي لم يفت قطعاً شبكات وكالات الأنباء . فكثيراً ما كان الطلاب في السفارة يحددون مواقيت ”الأحداث“ حتى تدرك آخر موعد لبثها بالأقمار الصناعية ، ويمكن إدراجها في نشرات الأنباء الليلية في الولايات المتحدة . وكان المسئولون الإيرانيون يشيرون من وقت لآخر إلى أنهم يعتزمون بذلك تحريض الشعب الأمريكي على معارضة سياسة حكومته . ولقد كان ذلك سوء تقدير خطير في البداية . ولكن هذا أتى في وقت لاحق بتأثير غريب ، ومرغوب فيه إلى حد ما ، وهو حث أجهزة الإعلام على اتخاذ موقف التحقيق الصادق في الأمر . ولكنني أريد أن أناقش هنا الصورة الذي ظهرت بها إيران للأمريكيين في شذ فترات الأزمة توتراً ، وأما الجانب الآخر للقصة فأضعه في المرتبة الثانوية لما اهتمت به هنا .

كان جانب كبير من الأخبار المثيرة التي حفل بها العقد المنصرم، على نحو ما ذكرت في الفصل الأول ، وهي الأخبار

التي لا تقتصر على إيران بل تشمل الصراع العربي الإسرائيلي ، والنفط ، وأفغانستان ، أخباراً عما يسمى "الإسلام" . ولم يبرز ذلك بصورة أوضح من الصورة التي برز بها في أثناء الأزمة الإيرانية الجديدة ، إذ قدمت أجهزة الإعلام إلى الأمريكيين الذين يتابعون الأنباء غذاء متواصلًا من المعلومات عن شعب معين ، وثقافة معينة ، ودين معين - وإن لم تزد تلك 'المعلومات' عن تجريدات ساء تعريفها وساء فهمها إلى حد بعيد - فصورته دائماً ، في حالة إيران ، في صورة المناوئ الخطر المعادى لأمريكا .

أما ما جعل الأزمة الإيرانية مناسبة ممتازة لفحص أداء أجهزة الإعلام فهو ، على وجه الدقة ما جعلها مصدر هذه الآلام التي لها ما يبررها للكثير من الأمريكيين ، وأقصد طولها وأن ما أصبحت إيران ترمز له أصبح يمثل العلاقات الأمريكية بعالم المسلمين . ومع ذلك ، فأعتقد أن علينا أن نفحص بدقة ما ظهر واتضح ، في الفترة الأولى التي امتدت شهرين أو ثلاثاً ، في مواقف أجهزة الإعلام ، وفي قيامها بأعمال من شأنها ترسيخ هذه المواقف ، على الرغم من التحديات الجديدة ، والتغيرات والأزمات السياسية غير المسبوقة التي لابد للغرب أن يواجهها من الآن فصاعداً . ومع ذلك ، ومع مرور الوقت ، بدأنا نلمح تغييرات معينة في معالجة أجهزة الإعلام للأنباء ، وهي تغييرات تبعث بصفة عامة على التفاؤل أكثر مما شهدناه في البداية .

لابد لمن يفحص الكم الهائل من المادة 'الإعلامية' التي أفرزتها أزمة الاستيلاء على السفارة الأمريكية في طهران ، وعلى الأرجح أن قد تكون قد انفرجت عندما يظهر هذا الكتاب في الأسواق ، أن تستوقفه عدة أمور مهمة ، أولها أن موقفنا "نحن" كان ، فيما يبدو ، موقف المحاصر ومعنا نظام الحياة السوية الديمقراطية العقلانية . وبعيداً عنا ، في مكان ما ، يوجد "الإسلام" بصفة عامة ، وقد استولى على أصحابه جنون نابع من ذواتهم يدفعهم إلى التلوى هياجاً ، وهو ما يتجلى في هذه اللحظة في إيران المصابة باضطراب الأعصاب بصورة تدعو للقلق . فقد نشرت مجلة 'تايم' في برواز خاص كلمة موجزة عن الإسلام الشيعي في إيران بعنوان "أيدولوجية الاستشهاد" ، في عددها الصادر في ٢٦ نوفمبر ، وفي اليوم نفسه نشرت مجلة نيوزويك صفحة كاملة عنوانها "عقدة الاستشهاد عند إيران" فكأنما كانت تنقل ما تقول من المصدر نفسه .

ويبدو أن الأدلة على ذلك كانت متوافرة بكثرة . ففي يوم ٧ نوفمبر نشرت صحيفة سانت لويس بوست ديسباتش محضر حلقة العمل التي عقدت في مدينة سانت لويس حول إيران والخليج العربي ، جاء فيه أن أحد الخبراء قال "إن ضياع إيران ، بقيام شكل من أشكال الحكومة الإسلامية ، يعتبر أكبر نكسة واجهتها الولايات المتحدة في الأعوام الأخيرة" . وبتعبير آخر ، يعتبر الإسلام، تعريضاً ، معادياً لمصالح الولايات المتحدة . ونشرت

————— ■ قصة إيران ■ —————

صحيفة وول ستريت جورنال في ٢٠ نوفمبر مقالاً افتتاحياً تقول فيه إن "انحسار الحضارة" يرجع "بدايةً إلى تدهور القرى الغربية التي كانت تنشر هذه المثل العليا للحضارة"، فكأنما كان عدم الانتماء إلى الغرب - وهو مصير معظم سكان العالم ، ومن بينهم المسلمون - معناه الانتماء إلى أية مثل عليا للحضارة . وعندما سأل أحد المذيعين محطة إيه بي سي ، يوم ٢١ نوفمبر ، الأستاذ ج. سي. هوريفيتس ، من جامعة كولومبيا ، إذا ما كان اعتناق الإسلام الشيعي يعني "العداء لأمريكا" رد الأستاذ عليه بالإيجاب القاطع

وكان جميع كبار معلقى التلفزيون ، ومن أهمهم ويلتر كره نكايت (محطة إذاعة كولومبيا) وفرانك رينولدز (محطة إيه بي سي) ، يتحدثون بانتظام عن "كراهية المسلمين لهذا البلد" أو ، بالفاظ أكثر شاعرية ، عن "هلال الأزمة ، ذلك الإعصار الدوار فوق المروج" (رينولدز إيه بي سي ، ٢١ نوفمبر) . وفي مناسبة أخرى جاء صوت رينولدز المصاحب لصورة مظاهرة تهتف "الله أكبر" وهو يقول ما يفترض أنه المقصد الحقيقي للجمهور "كراهية أمريكا" . وجاء في البرنامج بعد ذلك من يخبرنا أن النبي محمد، عليه الصلاة والسلام ، "هو الذي قال إنه نبي" ، (ألم يقل كل نبي قبله إنه نبي ؟) ويذكرنا بعد ذلك بأن تعبير "آية الله" "لقب من ابتداع صاحبه في القرن العشرين" وأن معناه هو "صورة الله" (وينتقر هذا وذاك ، للأسف ، إلى الدقة الكاملة) .

أما الدرس القصير في الإسلام (ثلاث دقائق) فقدّمته حطة إيه بي سي ، وقا قدمته في موقع أصحابه الذين لا يكادون يستحقون الظهور في الصورة ، وقد أفتى كل منهم بالفتوى البغيضة نفسها وهي أن رد الفعل الصحيح على ” الإسلام ” هو الاستياء والاسترابة والاحتقار ، وينطبق ذلك على ” الديانة المحمدية ” ، ومكة ، والحجاب ، والشادور ، والسّتي والشيعة (وكادت الشور المصاحبة للدرس تصور بعض الشبان الذين يدقون صدورهم) والملاً وآية الله الخميني ، وإيران . وتحولت عدسة البرنامج بعد هذه الصور مباشرة إلى مدينة جيمزفل : بولاية ويسكونسن ، حيث يقوم بعض التلاميذ الصغار العقلاء والذين يدعون إلى الإعجاب - فليس بينهم محجبات أو من يدق الصدر أو فقهاء - بتنظيم احتفال وطني للتعبير عن ” الوحدة ” .

” الإسلام المجاهد : الإعمار التاريخي ” - هذا ما أعلنته مجلة الأحد المصاحبة لصحيفة نيويورك تايمز يوم ٦ يناير ١٩٨٠ ، وأما مايكل وولترز فكتب مقالاً بعنوان ” الانفجار الإسلامي ” في صحيفة نيويورك بيلك يوم ٨ ديسمبر . وقد حاول المقالان ، شأنهما في ذلك شأن غيرهما ، إثبات أمور لا تقتصر على أن الإسلام كيان لا يتغير وأنا نستطيع أن نفهمه ، علاوة على التنوع الشديد في التاريخ والجغرافيا والهيكل الاجتماعي والثقافة الخاصة بأربعين أمة إسلامية وما يقرب من ٨٠٠٠٠٠٠٠٠ مسلم يعيشون في آسيا وإفريقيا وأوروبا وأمريكا الشمالية (بالإضافة إلى ملايين كثيرة

فى الاتحاد السوفىيتى والصين) ، بل تتعدى ذلك إلى ”الكشف“ - بتعبير وولتزر - عن أنه حيثما ارتكب القتل ، ونشبت الحرب ، واندلع الصراع المديد الذى يجبرنا إلى بشاعات رهيبة ”فالواضح أن الإسلام قد لعب فى ذلك دوراً مهماً“ . ولم يكتفِ أحد ، فيما يبدو ، لتجاهل قواعد الأدلة المعمول بها عادة ، أو بأن الكاتب لا يعرف اللغات ولا المجتمعات التى يتحدث عنها ، أو بأن المنطق السليم ينسحب خارجاً دون جلبه كلما حانت مناقشة ”الإسلام“ .

وأما مقالة نيوريبيلك الافتتاحية فقد اختزلت إيران فى صورة ”العاطفة الدينية المكبوتة التى انطلقت فى هياج“ وإلى صورة ”الإسلام المستقل“ وقدمت كلاماً يوحى بالعلم والمعرفة عما تقوله الشريعة الإسلامية بشأن التجسس ، وحق المرور الآمن (فى أرض الغير) وما شابه ذلك . وقد دعم ذلك كله الحجة الرئيسية وهى أنه إذا كان الإسلام فى حرب معنا فالأفضل لنا أن ننزل الحلبة وعلوننا مفتوحة .

وقد لجأت جهات أخرى إلى وسائل أشد دهاءً وخفاءً لإلصاق الجرائم ”بالإسلام“ مما لجأت إليه نيوريبيلك ، ويتمثل أحدها فى إحضار خبير لمواجهة الجمهور وجعله يقول إن الخومينى قد لا يكون فى الحقيقة ”مثلاً لرجال الدين الإسلامى“ . (وكان هذا الخبير هو ل. دين براون ، السفير الأمريكى السابق فى الأردن والمبعوث الأمريكى الخاص إلى لبنان ، والذى يعمل الآن رئيساً لمعهد الشرق الأوسط ، وكان يتحدث إلى برنامج تقرير ماكنيل /

ليوم ١٦ نوفمبر) ثم يضيف بعد ذلك أن المَلَأَ "المنزَع" يمثل تكوُّباً إلى عصر إسلامي أقدم (والواضح أنه يتميز بأصالة أكبر) وأن الجماهير الغوغائية في طهران ذكَّرت براون بأحداث نورمبرج (المعادية لليهود) تماماً مثلما كانت المظاهرات في الطرقات أدلة على "أن السيرك هو وسيلة التسلية الرئيسية" التي يقدمها الحكام المستبدون في العادة .

ومن الوسائل الأخرى الإيحاء بأن ثمة خيوطاً خفية تربط ما بين شتى الجوانب الأخرى للحياة في الشرق الأوسط وبين الإسلام الإيراني ، ثم إدانة هذا وذاك جميعاً ، وقد يكون ذلك ضمناً أو صراحةً وفقاً لكل حالة على حدة . فعندما قام عضو مجلس الشيوخ السابق جيمز أبو رزق بزيارة طهران ، صاحب الإعلان عن الزيارة في محطتي إيه بي سي وإذاعة كولمبيا التذكير بأن أبو رزق ينحدر "من أصول لبنانية" . ولكن أحداً لم يشير مطلقاً إلى الخلفية الدائرية لعضو مجلس النواب جورج هانسن ، أو إلى أن أسلاف رمزي كلارك من أصول أنجلوسكسونية بروتستانتية . ولكن رجال الإعلام رأوا أهمية ما في الإيحاء بوصمة إسلامية غامضة تشوب ماضي أبو رزق ، على الرغم من أصوله المسيحية اللبنانية . ويتصل بهذا استخدام صور زائفة لبعض ' الشيوخ ' العرب للتمويه في قضية أسكام) .

وأما أشد ضروب استخدام الإيحاء صفاقةً فقد بدأت بمقال قصير نشرته صحيفة أتلانتا كونستيتيوشن في صفحتها الأولى

■ قصة إيران ■

(بتاريخ ٨ نوفمبر) ويزعم فيه دانييل ب. دروز أن منظمة التحرير الفلسطينية كانت من وراء الاستيلاء على السفارة . وأما مصادره فكانت ، كما يقول ، سلطات ”الاستخبارات الدبلوماسية والأوروبية“ . وقال جورج بول ، بلهجة من ينطق بالحكم والأمثال ، في مجلة واشنطن بوست يوم ٩ ديسمبر ”إن ثمة أساساً للاعتقاد بأن بعض الماركسيين الذين أجيد تدريبهم هم الذين ينظمون هذه العملية كلها“ وفي ١٠ ديسمبر أذاعت محطة إن بي سي في برنامج يسمى ”توداي شو“ مقابلة مع عاموس بيرليموتر ، وهاسي كارميل ، وقالت إن الأول ”أستاذ في جامعة أمريكية“ والثاني ”مراسل مجلة الاكسبريس الأسبوعية الباريسية“ (بصفة أساسية) والحقيقة أن الرجلين إسرائيليان . وسألتهما روبرت أيرنيثي عما زعماه بشأن ”تلاقى مصالح“ الاتحاد السوفييتي ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، و”الأصوليين“ المسلمين في إيران . وكان سؤاله هو : هل صحيح أن هذه القوى الثلاث شاركت فعلياً في عملية احتلال السفارة ؟ وأجابا بالنفي بعد تردد طفيف ثم عادا إلى الإشارة إلى توافق المصالح وتلقيها . وعندما قال أيرنيثي بأسلوبه المهدب إن ما يقولانه يوحي بأنه محاولات إسرائيلية ”لتلطيخ سمعة منظمة التحرير الفلسطينية“ اعترض الأستاذ بيرليموتر بغضب ، قائلاً إن رائده فيما يصدر عنه هو ”الأمانة الفكرية“ الجليلة !

وأبت محطة إذاعة كولمبيا أن يتفوق عليها أحد في هذه

المزايدات فقدمت في نشرة أنبائها الأخيرة (واسمها نايتلى نيوز) يوم ١٢ ديسمبر مسئولاً من وزارة الخارجية الأمريكية يدعى مارفن كولب ، فإذا به يستشهد (دون تحديد أسماء) بنفس المصادر "الدبلوماسية والاستخبارية" التي كان دروز قد أشار إليها قبل شهر كامل ، وإذا به يؤكد من جديد أن منظمة التحرير الفلسطينية، والأصوليين الإسلاميين، والاتحاد السوفيتي قد تعاونوا في العملية . وقال كولب إن رجال منظمة التحرير الفلسطينية هم الذين وضعوا الألغام في المجمع، ثم واصل حديثه ، قائلاً بلهجة الحكيم الحصيف ، إن هذا قد تأكد بفضل "أصوات اللغة العربية" التي سمعت داخل السفارة . (ونشرت صحيفة لوس أنجلوس تايمز في اليوم التالي موجزاً "لل قصة" التي رواها كولب). ولم يبق إلا أن تأتي شخصية بارزة ، أي كونستانتين منجيز ، الخبير بمعهد هرسون ، لترديد هذه الأطروحة نفسها ، أولاً في عدد ١٥ مارس ١٩٧٩ من نيو ريبلك ، وبعد ذلك ، مرتين في برنامج تقرير ماكينيل/ ليرار . ولم تزد الأدلة عن ذلك ، إلا بطبيعة الحال ، تكرار الإشارة إلى الشيوعية الجهنمية المتحالفة بصورة طبيعية مع 'شياطين' منظمة التحرير الفلسطينية و'أبالسة المسلمين' . (ونحن ندهش لامتناع ماكينيل وليرار عن دعوة منجيز للعودة حتى يعلق على غزو الاتحاد السوفيتي لأفغانستان أو على الانتقاد الإيراني الرسمي لهذا الغزو) .

"حيثما وجدت الشيعة وجدت المتاعب" - هذا ما أفتى به

■ قصة إيران ■

دانييل ب. دروز في صحيفة أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن، يوم ٢٩ نوفمبر، وهو يشبه ما قالت به نيويورك تايمز، وتحت عنوان أصغر، وبألفاظ أشد تعقلاً، يوم ١٨ نوفمبر، "كان الاستيلاء على السفارة يرتبط بعاملين: موافقة الشيعة على السلطة وغضبهم لمسألة الشاه". ولم يمض أسبوع على احتلال السفارة يوم ٤ نوفمبر حتى انتشرت صور الخوميني المتجهم، والتي لا تُغيّر مطلقاً ما يُفترض أن تقوله لمن يطلع عليها، مثلما انتشرت الصور لا تنتهي للجماهير الإيرانية الغوغائية. وأصبح قيام الأمريكيين الغاضبين بإحراق الأعلام الإيرانية (وبيعها) من وسائل التسلية المعتادة، وتولت الصحف بإخلاص نقل أنباء هذا اللون من ألوان الوطنية. كما تواترت أنباء لها طرافتها تدل على الخلط في أذهان الجماهير بين العرب والإيرانيين، مثل النبأ الذي نشرته صحيفة بوسطن جلوب يوم ١٠ نوفمبر عن مظاهرة غاضبة في مدينة سبرنجفيلد تردد هتافات تقول "عودوا إلى أوطانكم أيها العرب". وانتشرت التحقيقات الصحفية الخاصة في كل مكان عن الإسلام الشيعي، وإن كان من المدهش ألا تتعرض إلا مقالات محدودة نسبياً لتاريخ إيران الحديث، أو تشير إلى المقاومة السياسية ذات الأهمية الفريدة التي أبداهـا رجال الدين الإيرانيون للتدخل الأجنبي وللحكم الملكي منذ أواخر القرن الثامن عشر، أو تبحث قدرة الخوميني على إسقاط الشاه والانتصار على جيش لم يهزم في حرب من قبل، وكان أهم ما توسل به الخوميني في ذلك الأشرطة الإذاعية وجماهير الشعب العزلاء إلى حد كبير.

وربما وجدنا دلالة رمزية ما لعجز وولتر كرونكايت عن النطق الصحيح بالأسماء فلقد كان اسم قطب زاده يتغير في كل مرة يُنطق فيها تقريباً ، وعادة ما كان يقرب من ”جايوزاداي“ (وفي ٢٨ نوفمبر أطلقت محطة إذاعة كولمبيا على بهشتي اسم ”بشاتي“ ، وأرادت محطة إيه بي سي الانضمام إلى الركب فغيرت - في ٨ ديسمبر - اسم منتصري إلى ”منتسوري“). وكانت كل ”كبسولة“ تاريخية عن الإسلام ، تقريباً ، تتسم بدرجة من الخلط تهبط بها إلى مستوى الهراء ، أو تقتقر إلى الدقة إلى الحد الذي يجعلها تثير الرعب . خذ مثلاً ما جاء في الحديث عن الإسلام الذي ورد في برنامج محطة إذاعة كولومبيا ”نايتلي نيوز“ يوم ٢ نوفمبر ، إذ جاء في حديث راندي دانييلز عن شهر المحرم أنه الفترة التي يحتفل فيها المسلمون الشيعة ”بتحدي محمد لزعماء العالم“ ، وهو قول يهبط الخطأ به إلى مستوى السخف والسفه ، فشهر المحرم من الشهور الهجرية ، والمسلمون الشيعة يحيون ذكرى استشهاد الحسين بن علي عليه السلام في العشرة الأوائل من هذا الشهر . وقيل لنا بعد ذلك إن الشيعة يعانون من عقدة الاضطهاد، ولذلك ”فلا غرو أن يخرج من بينهم خوميني“ ، وكان مما يبعث على الاطمئنان ، وإن كان لا يقل تضليلاً ، أن يقال لنا إنه لا يمثل الإسلام كله . وقد أجرى البرنامج نفسه معى مقابلة للإفادة من ’حكمتي‘ وأخطأ المذيع في تعريف الجمهور بي إذ وصفني بأنني أستاذ للدراسات الإسلامية . وفي ٢٧ نوفمبر قال أحد مراسلي

المحنة إن إيران كلها تعاني من "صداع خمر الثورة" فكأنما كانت إيران هي السكير الأول .

ولكن القوة التي "تحتجز أمريكا رهينة" لم نبسرز كتابتها الحقيقية إلا حين تصدرت صحيفة نيويورك تايمز للحدث عن الإسلام ، فمارست أقصى سلطان لها باعتبارها صحيفة النخبة المثقفة . ولكن الصورة التي رسمتها تلك الصحيفة للإسلام ترجع في كثير من جوانبها إلى طابع الصحيفة نفسها . فلا يقتصر الأمر على كونها أولى وأهم الصحف الأمريكية ، إذ إننا إذا جمعنا بين الشمول الذي تتحلى به ، ومستوى الخبرة الرفيع في نقل الأنباء ، والإحساس بالمسؤولية ، وأهم من ذلك كله قدرتها على الكتابة بمصداقية من وجهة نظر الأمن القومي ، وجدنا أنها تتميز بقوة ذات ثقل فريد . وبعبارة أخرى ، تستطيع الصحيفة أن تكون موضع ثقة إذا تحدثت في موضوع ما ، وأن تجعله يهم الأمة كلها في الوقت نفسه : وهي تفعل ذلك عامدة ، وتنجح ، فيما يبدو ، في أدائه . وهكذا يقول هاريسون سولزبرى في مذكراته إن الرئيس كيندي قال في ربيع ١٩٦١ للصحفي تيرنر كتليديج ، المحرر في التايمز ، إن الصحيفة لو نشرت المزيد من التفاصيل عن الغزو الوشيك لخليج الخنازير في كوبا (وهي التفاصيل التي جمعتها الصحيفة بنفسها) "لأنقذتنا من ارتكاب خطأ فاحش" ^(١) . ويقول سولزبرى إنه لم يدرك أحد ، بعد حادثة خليج الخنازير ، لا في الصحيفة ولا في العالم ، أن ما كتبه تاد زولك عن الحادثة لم

يكن يمثل عملاً استثنائياً ، بل وأن إنجاز الصحيفة كله لم يكن خارجاً عن المألوف هو الآخر ، بل لقد كان أمراً معتاداً في الواقع . كانت التايمز قد أصبحت مؤسسة ذات قوة فذة ، وأصبحت تمارس عملها بسلطانٍ عمره يقارب عمر الأمة نفسها . وهاك ما يقوله سولزيري :

كانت التايمز قد وصلت آنذاك إلى مستوى الكتلة الحرجة ، بلغة الفيزياء ، لا من حيث عدد القراء والمعلنين ، وإن كان هذا وثيق الصلة بذلك ، بل من حيث مستوى العمل الصحفي والخبرة . فلقد كانت تقوم فعليا بالتغطية الإعلامية للعالم ، وتغطية واشنطن ، والأمة ، والمدينة ، بالعاملين فيها من رجال ونساء ، ولم يكن عملهم يقتصر على المشاوير الصحفية ، بل كانوا أفضل المراسلين والمحربين الذين يمكن العثور عليهم . وقد تجمعوا في التايمز لا من أجل المكافأة المالية فقط ، فجدول الأجور في التايمز لا بأس به . لكنه لم يكن بالغ الجاذبية في يوم من الأيام . ولكنهم تجمعوا لأن التايمز كانت تمثل مجالاً فريداً لممارسة الإبداع في نقل الأخبار وتحريرها . ولم يكن يضارع الصحيفة جهازٌ إعلامي آخر في مستوى الأداء المهني والاحتراف وكانت الكتلة الحرجة من الصحفيين قد وصلت آنذاك إلى بعد حادثة خليج الخنازير إلى مستوى رفيع ، من

حيث الكم والكيف ، حتى إنها كانت تمارس عملها دون الوعي بأى توجيه . كان رجال التاييز يتشرون فى أرجاء العالم كله ، وقرون الاستشعار الإخبارية حساسة مشرعة ، يبحثون وينقبون ويطرحون الأسئلة^(٢) .

وهكذا ، جاء الوقت الذى أصبحت فيه ممارسة السلطة الحاسمة تمثل المهمة الجماعية للصحيفة ، وكان المراسلون يؤدون عملهم الصحفى بما تمليه العادة عليهم ، على نحو ما ، ”دون الوعي بأى توجيه“ . وفى عام ١٩٧١ ، عندما بدأت التاييز تنشر أوراق البتاجون (وزارة الدفاع الأمريكية) كانت قد مرت مائة عام على نجاحها فى الإطاحة بعصابة ’الرئيس تويد’ (وليام مارسى تويد ١٨٢٣ - ١٨٧٨) فى تامانى هول (المقر المحلى للحزب الديمقراطى) بنشرها الوثائق الحكومية ذات الصلة بالقضية . وها هى تعود الآن ، حسبما يقول سولزبرى ، لتجاوز القانون بما تتحلى به من بصيرة معنوية نفاذة أصبحت مضرب الأمثال ، فى سبيل المصلحة القومية^(٣) ، وتبين للجميع قدرتها على أن تكشف الحقيقة وتدفع الحكومات إلى العمل . صحيح أن نجاحها المالى ، فى ظل مدير تحريرها الأخير أ. م. روزنتال ، جاء نتيجة إضافة أبواب جديدة مثل باب ”المنزل“ وباب ”المعيشة“ إلى الطبعة اليومية ، ولكن الدخل الإضافى مكنها من التوسع فى نقل الأنباء الخارجية أيضاً :

أتاحت الأبواب الجديدة للصحيفة بعض الموارد المالية التى هيات لها موقعاً منيعاً ، تقريباً ، فى الوقت الذى كانت فيه صحيفتا نيوز وبوست تتعثران . وهكذا وبخلاف أى صحيفة أخرى فى البلد ، كانت التايمز تستطيع أن تنفق ٣٠٠٠٠ دولار فى الشهر ، وربما ٥٠٠٠٠ دولار فى الشهر ، إلى جانب الرواتب والموظفين ، على التغطية الإعلامية لسقوط إيران : كانت النقود جاهزة ، دون التسبب فى ضائقة مالية^(٤) .

وفى آخر العام الذى ” سقطت “ فيه إيران ، بدأت التايمز تلقت أخيراً إلى الإسلام . وفى ١١ ديسمبر خصصت الصحيفة صفحتين كاملتين لنشر ندوة عنوانها ” الانفجار فى عالم المسلمين “ . وكان من بين المشاركين السبعة ، ثلاثة باحثين من العالم الإسلامى ، يقيمون ويعملون فى الولايات المتحدة ، وكان الأربعة الآخرون من الخبراء البارزين فى التاريخ الحديث للعالم الإسلامى وثقافته ومجتمعاته ، وكانت جميع المسائل التى طُلب إليهم أن يناقشوها مسائل سياسية ، وكانت جميعاً تتعرض لتهديد الإسلام للمصالح الأمريكية . وكان الخبراء يحاولون هنا وهناك أن يناقشوا العالم الإسلامى كما لو كان الماضى فيه يختلف من بقعة إلى بقعة ، شأنه شأن التحولات السياسية وضروب المسلمين أنفسهم ، ولكن هذه المحاولات كانت تتلاشى أمام قوة بعض الأسئلة ، مثل السؤال التالى : ” إذا كنا اكتسبنا هذه الصورة

الشیطانية فی أعین الكثيرین من المسلمین فی هذه اللحظة ، فكیف ینبغي لنا التعامل مع من نحس بالتآلف معه من القوى والزعماء والحکومات ؟ یأتی بازرجان ویصافح برزنسکی فیتهمی ویمضی . وبنی صدر یقول إنه یرید أن یأتی إلى نیویورک فتکون فی هذا نهائیه . هل نستطیع أن نتعلم درساً ما فی التعامل مع النظم الأخری ؟ هل فی هذا درس فی ضبط النفس أم ماذا ؟" والواضح أن التایمز أحست أنها تتجه بذلك إلى المنبع ، فإذا کان المسلمون یخضعون "لحكم" الإسلام ، فعلیک أن تستجوب الإسلام وجهاً لوجه . والطریف هنا هو أن الخبراء کانوا یحاولون تقسیم "الإسلام" إلى أهم العناصر التي یتکون منها ، والتایمز تعید تجميع هذه العناصر وبناءها فی قوى عامة ، إما أن تكون "معادية" لمصالح الولايات المتحدة أو "صديقة" لها . وكانت النتيجة التي خلص إليها الحوار فی الندوة هی السخط والانزعاج ، إذ إن آخر مجموعة من المسائل التي طرحتها التایمز قد أوحث بوضوح بأن الاقناع والمنطق لن یکتب لهما النجاح ، ومن ثم فقد یلزم استخدام القوة باعتبارها الملاذ الأخير .

وقد انقشعت الشکوک التي تکتنف ما عسانا "نحن" أن نراه فی الإسلام عندما نشرت "التایمز" فی الأيام الأربعة الأخيرة من عام ١٩٧٩ سلسلة من أربع مقالات طويلة بقلم فلورا لويس ، تحاول فیها جميعاً أن تعالج موضوع "أزمة الإسلام" ("فورة الإسلام" - ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ديسمبر) . وتتسم مقالاتها

ببعض السمات الممتازة ، مثل نجاحها في تصوير مدى التعقيد والتنوع في عالم الإسلام ، ولكنها تتضمن نقاداً شجعاً حليمة أيضاً ، يكمن معظمها في جوهر النظرة المفترضة إلى الإسلام اليوم: إذ لم تقتصر فلورا لويس على الحديث عن الإسلام وحده ودون غير: في الشرق الأوسط (فهو لا تكاد تذكر "الثورة" المناهضة في اليهودية ، أو في المسيحية في مصر ولبنان) بل تنطلق إلى إصدار بعض الأحكام ، خصوصاً في المقالة الثالثة ، عن اللغة العربية (مستشهدة بأراء الخبراء التي تقول إن الشعر العربي "طنان وخطابي" ، وليس حميم النبوة فردى المشاعر) وعن الدين الإسلامي (قائلة إنه يعجز عن "الاندراج في التفكير") وهذه من الأحكام التي قد تعتبر عنصرية أو من قبيل الهراء إذا أطلقت على أى لغة أخرى ، أو على أى دين آخر ، أو على جماعة عرقية أخرى . وهي تكثر من الاستشهاد بأقوال لبعض المستشرقين الذين سبق لهم الإفصاح عن آرائهم العامة . فقد اقتطعت بعض أقوال إيلي قدوري الذي نشر في أواخر ١٩٧٩ دراسة عن الثورة الإسلامية يحاول أن يبين فيها أنها معادلة للماركسية اللينينية^(٥) ، واستشهدت بقوله إن "الفوضى في شرق عميقة ومستوطنة" واقتطعت أقوال برنارد لويس (وهو ليس من أقربائها) الذي كان قد أعلن "نهاية حرية التأمل والبحث" في العالم الإسلامي ، ومن المرجح أن يكون ذلك نتيجة لعلم التوحيد الإسلامي "الجامد" والقائم في رأيه على "النظرة الجبرية ، والعرضية ، والسلطوية".

ومن المحال أن يخرج أحد بنظرة متسقة للإسلام من قراءة مقالات فلورا لويس ، فإن هرولتها ما بين المصادر وعدم إلمامها بالموضوع يوحيان للقراء بطائر جارج يحاول اصطياد صيد متفرق مشتب : إذ كيف يلم المرء بأحوال عدة مئات من الملايين الذين ينطقون بكلمات ”أقرب إلى التعبير عن الأمانى منها إلى تبيان الحقائق“ ؟ (قارن بهذا ما نشرته صحيفة أتلانتا كونستيتيوشن يوم ١٩ نوفمبر عن ”الطابع المراءوغ للغة الفارسية واستعصاء دلالاتها الدقيقة“). ولكن الكاتبة قد حققت مقصدها من الحديث عن الإسلام على أى حال ، فحتى لو لم يكن ”الإسلام“ واضحاً على الإطلاق ، فلا شك فى وضوح مواقفنا ”نحن“ إزاءه (أو قل ما لنا الحق كل الحق فى مساندته من المواقف) .

وقد نشرت مجلة إسكواير فى عدد مايو ١٩٨٠ مقابلة مع فلورا لويس ، تكشف فيها ، ربما دون قصد ، عن الافتراضات التى كانت لديها وما دفعتها عليه من أعمال أثمرت تلك المقالات عن الإسلام . وأما ’الترقيع‘ الذى اتسم به نقلها الأنباء ، وطابع العجلة والسرعة فيه ، فيوحيان بأن صحيفة التايمز تستطيع أن تنجو من اللوم لأن الإسلام هو الإسلام والتايمز هى التايمز . وفيما يلى نص ما قالته (ولاحظ اللهجة ’غير الرسمية‘ التى تشي بموقع الثقة والسلطة فيما توحى به عبارة ”لا يدرى أحد ما يجرى الآن فى الإسلام“):

منذ بضعة أشهر ، على سبيل المثال ، شاركت في القيام بمشروع أبعاده هائلة مذهلة . إذ كانت نيويورك قد كلفتني لتوها بالقيام بهذه المهمة الخاصة في المعمعة داخل العالم الإسلامى . كانوا قد عقدوا اجتماعاً في نيويورك ، وقال فيه أحدهم : ”يا لله ! لا أحد يدرى ما يجرى الآن فى الإسلام . فلنرسل فلورا“ . وهكذا استدعوني ، وذهبت . كان ذلك من قبيل الجنون . ولم أكن واثقة حتى من أسلوب استخدام المادة التى سأجمعها .

وكان علىّ أن أنتهى من الترتيبات بسرعة محمومة حتى أتأكد من مقابلة من أريد قبل السفر ، ولم أستطع الذهاب إلى أى مكان أو المكوث فى أى مكان لمدة ثلاثة أيام .

بدأت رحلتى فى باريس ولندن . ثم ذهبت إلى القاهرة ، فهى مقر الجامعة الإسلامية الحققة ، وكذلك إلى الجزائر وتونس . وعدت أحمل عشرين كراساً وأوراقاً وزنها عشرون رطلاً وجلست لأكتب .

وكانت ميزة هذا ، بطبيعة الحال ، أننى أتعلم شيئاً جديداً . اذكر طلب العلم مدى الحياة ، وسوف تقدم إليك نيويورك تايمز منحة دراسية متوالية .

أنا دائماً ما أكتب التحقيقات الصحفية بنفسى ، باستثناء واحد وهو عجزى عن الذهاب إلى مكان ما بسبب ضيق الوقت . فمثلاً ، فيما يتعلق بموضوع الإسلام ،

كنت أحتاج إلى ملف ضخم إلى حد ما عن الفلبين .
واتضح أن مكتب أخبار آسيا لا يستطيع تدبير أحد يقوم
بإعداده لى - إذ كانوا غارقين حتى آذانهم فى أنباء الحرب
فى كمبوديا والورطة فى جنوب كوريا والأزمة السياسية فى
طوكيو - وهكذا كان على شخص آخر أن يقوم بتجميع
المادة التى أريدها قبل مغادرتى نيويورك .

ويزداد الأمر وضوحاً إذا قارنّا بين التحقيقات الصحفية التى
تغطى "الإسلام" فى التايمز وصحيفة لوموند الفرنسية . إذ إن
التايمز جعلت فلورا لويس تقوم بإعداد التحقيق بسرعة ، فهى لا
تناقش القضايا اللاهوتية والمعنوية الكبرى التى يناقشها الناس فى
شتى أرجاء العالم الإسلامى (كيف يمكن للمرء أن يتحدث عن
الإسلام اليوم ، ولا يشير ولو مرة واحدة إلى الصراع المحتدم بين
أنصار الاجتهاد (أى التأويل الفردى) وأنصار التقليد (أى الاعتماد
على تفاسير الثقات) باعتبارها من طرائق تفسير القرآن ؟) كما إنها
لا تناقش أيضاً تاريخ هياكل المدارس الإسلامية المختلفة التى
تلهب نيران "الفورة" التى تحاول توثيقها ، ولكنها تستعيز عن
ذلك بالاعتماد على مقتطفات عشوائية ، مقتبسة من أفواه من
اختارتهم بأسلوب عشوائى ، وتستخدم الحكايات التى تحل فى
تحقيقها محل التحليل ، بل إنها لا تقدم حتى الجوانب الحقيقية
للحياة الإسلامية ، سواء كانت خاصة بالعقيدة ، أو بالمبادئ
المتافيزيقية ، أو بالسياسة .

من المفيد ، كما قلت ، مقارنة ما فعلته كبرى الصحف الأمريكية في هذا الصدد بما نشرته كبرى الصحف الفرنسية ، إذ كانت لوموند ، قبل هذا التاريخ بعام كامل (في ٦ ، ٧ ، ٨ ديسمبر ١٩٧٨) قد كلفت مكسيم رودنسون (وهو مستشرق ماركسي فرنسي بارز تقتطف فلورا لويس أقواله) بدراسة الظاهرة نفسها^(٦) . ولن نجد اختلافاً يفوق الاختلاف بين هذين . فإن رودنسون يلم بالموضوع إلماماً تاماً ، فهو يعرف اللغات ، ويعرف الدين ، ويفهم السياسة . ولا يعتمد على حكايات ، ولا على مقتطفات مثيرة ، ولا يقيم ”التوازن“ في الاعتماد على الخبراء بالإسلام ”الناصرين“ أو ”المعادين“ ، بل يحاول أن يبين طبيعة القوى القائمة في المجتمع الإسلامي ، وفي التاريخ الإسلامي ، والتي تضافرت مع ’التشكيلات‘ السياسية الحالية حتى أدت إلى الأزمة الراهنة . ومن ثم فهو يقدم لنا خبرة متكاملة ذات دلالة - عن الإمبريالية ، والصراع الطبقي ، والنزاع الديني ، والأخلاق الاجتماعية - وهي لا تبرز في عمله في صورة المواقف التي يعرضها ’لفائدة‘ قراء تعتر بهم الشكوك والمخاوف .

ثانياً : فقدان إيران :

من المحتمل أن يلجأ من تشبع بالأخبار السطحية التي يرويها الثرثارون عن إيران ، إلى طلب 'الخلاص' والبصيرة الصادقة في البرنامج الذي تذيعه محطة الإذاعة العامة (التلفزيونية) كل ليلة ، وهو تقرير ماكنيل / ليرار ، الذي يحظى بالتقدير مثل نيويورك تايمز في عالم الصحافة المطبوعة باعتباره صنوة البرامج وأرقاها في دنيا الصحافة التلفزيونية ، ومع ذلك فلقد وجدت أن برامج ماكنيل / ليرار لا تشبع النهم إلى حد بعيد ، سواء من حيث شكل التقديم الذي يتسم بالتقييد والروح المحافظة إلى درجة تدعو للدهشة ، أو من حيث اختيار الضيوف ونطاق المناقشة . ولتناول الشكل أولاً . لما كان موضوع البرنامج يتناول منطقة غير مألوقة من مناطق العالم ، وهي إيران ، فسوف يشعر المشاهد على الفور بالتفاوت الشديد بين الجماهير الغوغائية "هناك" وبين الضيوف الذين يراعون أدق أصول الهندام ، ويتسمون بالتوازن فيما بينهم ، وإن كان يجمعهم مؤهل الخبرة ، وليس بالضرورة عمق البصيرة أو الفهم . ولا غبار على محاولة تفهم موقف ما تفهمًا عقلياً ، على نحو ما يحاول البرنامج تحقيقه ، ولكن الأسئلة المطروحة على الضيوف تدل بوضوح وجلاء على أن ماكنيل وليرار ينزعان إلى طلب ما يدعم الحالة النفسية السائدة في البلاد ، أي الغضب الشديد من الإيرانيين ، والتحليلات التي لا علاقة لها بالتاريخ لدوافع وسلوك الإيرانيين ، ومحاولات إجراء المناقشة بحيث تلائم

إطار الحرب الباردة أو نموذج "إدارة الأزمات" . وقد ظهر مؤشر عميق الدلالة على هذا في برنامجين (أذيعا يومى ٢٨ ديسمبر و ٤ يناير) وكان الضيوف فيهما مجموعتين من رجال الدين المسيحي الأمريكيين الذين عادوا قبل مدة قصيرة من طهران، وتحدثوا في البرنامجين عن تعاطفهم مع مشاعر الإيرانيين الذين عانوا ما عانوه من حكم الشاه المستبد الذى استمر خمسة وعشرين عاماً . وقد أعرب ليرار صراحة عن التشكك ، ولا أقول عن ريبته، فيما يقولان. وعندما ظهر وزير الخارجية آنذاك ، بنى صدر ، ومن خلفه فى المنصب ، وهو قطب زاده (٢٣ و ٢٩ نوفمبر) استمر اتجاه الأسئلة قريباً إلى أبعد حد من موقف الحكومة الأمريكية الذى كان قد اتضح وينحصر فى السؤال عن موعد إطلاق سراح الرهائن، مع تجاهل التنازلات ولجان التحقيق اللازمة للنظر فى سوء تصرفات الشاه وجرائمه . ومن المفارقات أن بنى صدر لم يعد يصر ، ولأول مرة ، على عودة الشاه السابق ؛ بل إنه اقترح الصيغة التى نفذتها فيما بعد لجنة الأمم المتحدة التى ذهبت إلى طهران بعد ذلك بعدة أشهر . أما فى البرنامج فقد تجاهل ماكنيل وليرار هذا الاقتراح - وهو الموقف المعهود منهما .

وأما قائمة الضيوف الذين ظهروا فى البرنامج من أوائل نوفمبر ١٩٧٩ حتى منتصف يناير ١٩٨٠ فكانت ذات دلالة أكبر. فباستثناء المرات الخمس التى ظهر فيها إيرانيون ، وباستثناء ظهور إقبال أحمد مرة واحدة ، وريتشارد فولك مرة واحدة هو الآخر ،

————— ■ قصة إيران ■ —————

وهما المعروفان بمناصرة قضايا العالم الثالث ومعاداة الحروب ، كان جميع المشاركين فى الحوار من الصحفيين ، والمسؤولين الحكوميين ، وخبراء الشرق الأوسط الأكاديميين ، وبعض الأفراد المرتبطين بمؤسسات تجارية أو شبه حكومية ، أو بعض أبناء الشرق الأوسط الذين اشتهروا بمواقفهم المعادية فى جوهرها للثورة الإيرانية . ولم يدع تواتر ظهور بعض الأفراد مجالاً للشك . فقد ظهر منجيز من معهد هدرسون مرتين ، وظهر كل من روبرت نويمان ، السفير الأمريكى السابق فى أفغانستان ، ول. دين براون مرتين أيضاً . وكانت المحصلة النهائية هى وضع كل ما قاله الإيرانيون وفعلوه خارج الحدود الأخلاقية ، وهو ما زاد من مشاعر الغضب دون أن يساعدنا فى تفهم الأنباء . ولقد أذهلنى هذا ، وأدهشنى ألا يحاول ليرار أو ماكنيل النظر فيما كان بنى صدر يعنيه ، مثلاً ، عندما أشار إلى ما يحسه ”المقهورون فى العالم“ قائلاً إن إجابة مطالبهم لا تقتضى تسليم الشاه للحكومة الإيرانية الجديدة (أى أن المسألة تتجاوز مجرد تراجع الولايات المتحدة) ولكنها تقتضى مجرد بادرة من جانب الولايات المتحدة تعترف فيها بأن للمقهورين مظالم مشروعة .

وهكذا فإن أسلوب البحث نفسه فى برنامج تقرير ماكنيل / ليرار كان ، فيما يبدو ، دليلاً على رقابته على ذاته ، فحال دون خوض البرنامج فى المجالات الأوسع للخبرة الإنسانية التى كان المتخصصون أو المتحاورون يعتبرونها مهمة . لقد شاهدنا صفوفًا

دقيقة التنظيم من المشاركين الذين يجلسون حول منضدة يسيطر عليها مضيفان يطرحان الأسئلة بلا هوادة ، ولاحظنا وجهات النظر المتسمة بالتوازن العام ، والتي لم تتح لأى ضيف أن يُسمِعنا بصدق تلك اللغة ”الغريبة“ فى جوهرها ، أى لغة الشعوب المقهورة والبعيدة عنا ، والتي ظلت حتى عهد قريب تكابد التدخل الأمريكى الظالم فى حياتها ، فى صمت وعلى امتداد عقود طويلة؛ واستمعنا إلى الأسئلة التى دائماً ما كانت تركز على أسلوب التعامل مع هذه الأزمة ، لا على محاولة فهم الآفاق الجديدة التى تفتح فى كل مكان فى عالم الأجناس غير البيضاء وغير الأوروبية ؛ وأدركنا ذلك اللجوء شبه الغريزى إلى ’الحكمة‘ التقليدية عن الجغرافيا السياسية ، والقلق الطائفية ، والنهضة الإسلامية ، وتوازن القوى ، وكانت تلك جميعاً تمثل إطار القيود التى يمارس ماكنيل وليرار عملهما فى ظلها ، ومهما تغيرت الظروف ، كانت تلك القيود نفسها هى الإطار الذى تعمل الحكومة فى ظله .

وفى هذا السياق الذى أوجدته الصحافة التى تعاني من الحرص المفرط على اتساق موقفها إزاء قضية إيران ، وهو الاتساق الذى فرضته على نفسها ، نستطيع أن نقدر عمق البصيرة المدهش الذى أبداه أ. ف. ستون فى مقال له بعنوان ”هل تكون الخطوة التالية إنشاء اللوبى اللازم لمناصرة الشاه ؟“ ، وهو الذى كتبه فى ١٧ يناير ١٩٧٩ ونشرته صحيفة نيويورك ريفيو أوف بوكس

————— ■ قصة إيران ■ —————

(مراجعة الكتب) في ٢٢ فبراير . لقد تحدث في هذا المقال عن نجاح الشاه في ”حشد أصدقاء أقوياء“ ، من مصرف تشيس مانهاتان إلى شركات صناعة الأسلحة ، إلى احتكارات النفط ، إلى وكالة الاستخبارات المركزية ، و”دنيا الجامعات المتعطشة“ . أما وقد حضر الشاه ”إلينا هنا شخصياً“ فقد نصادف احتمال اتخاذ إجراءات مغرية ، على الرغم من أنه ”كان ينبغي علينا أن نتعلم ، لكننا لم نتعلم الابتعاد عن الشؤون السياسية الداخلية لإيران ، وقد نتعلم درساً آخر في القريب العاجل في إقصاء الشؤون السياسية الإيرانية عن حياتنا السياسية“ . ولماذا ؟ ويجب ستون ، مواصلاً تنبؤاته الغريبة قائلاً ”ماذا يكون عليه الحال لو أن النظام الإيراني الجديد تقدم بمطالب خاصة من جانبه . . . فزعم حقه في الاستيلاء على أملاك الشاه في الخارج والحسابات المصرفية له وللمؤسسة البهلوية ؟ وماذا يكون الحال عليه لو أنه طلب عودة الشاه لمحاكمته بتهمة نهب ثروات البلد ؟ وماذا يكون الحال عليه لو أنه اتهمه ، باعتباره الحاكم المطلق ، بالمسؤولية المطلقة عما لا حصر له من وقائع التعذيب والإعدام التي ارتكبتها الشرطة السرية التابعة له ؟“ .

وأنا لا أقتطف أقوال ستون لمجرد أن تنبؤاته تصادف أن صدقت ، لكنني أستشهد به أيضاً لأنه ليس من ”الخبراء“ في شؤون إيران ، ولم يلجأ إلى إدعاء ذلك يوماً ما ، كما أنه رجل لم يعرف عنه أى تعاطف مع المسلمين . وما عليك إلا أن تفحص

مقاله حتى تتأكد من خلوه من أية إشارات إلى العقلية الإسلامية أو غرام الشيعة بالاستشهاد أو سوى ذلك من الهراء الذى يطالعنا باعتباره من ” المعلومات “ ذات الصلة بإيران . إنه رجل يفهم السياسة ، ويفهم دون أن يحاول أن يكذب بشأن ما يدفع الرجال والنساء للعمل فى هذا المجتمع وفى غيره من المجتمعات ، وقبل ذلك كله ، فإنه لا شك لديه فى أن الإيرانيين ، وإن لم يكونوا أوروبيين أو أمريكيين ، قد تكون لديهم مظالم وطموحات وآمال مشروعة ومن الحماسة أن يتجاهلها الغربيون . لن تجد فى المقال كنايات أو مبالغات . فما دام ستون لا يعرف الفارسية ، فإنه لا يسمح لنفسه بتصرف تعويض النقص بإطلاق التعميمات عن ”مراوغة“ اللغة الفارسية واستعصاء معانيها على الفهم .

ولقد عبر جوزيف كرافت ، بما يميزه من واقعية ، عن رؤيته الخاصة للقضية فى مقال بعنوان ”حان وقت استعراض القوة“ ، ونشرته واشنطن بوست يوم ١١ نوفمبر ، وكان ما كتبه فى هذا المقال قد أوضح وألقى بأضواء تزيد عما ألقته جميع الإشارات النمطية إلى الحصانة الدبلوماسية وقداصة سفارتنا ، على بعض جوانب الأساس المنطقى الذى يقوم عليه كل ما تقوله وما تفعله أجهزة الإعلام ، وربما دون وعى منها . كتب كرافت يقول إن سقوط الشاه يمثل ”كارثة للمصالح القومية الأمريكية“ . إذ لم يقتصر الشاه على توفير كميات النفط التى نحتاجها ، بانتظام ، لنا ، بل إنه قد فرض النظام على الهضبة الإيرانية من خلال

————— ■ قصة إيران ■ —————

”طموحات الامبراطورية“ . وكان هذا خيراً لأمريكا ، فلقد حافظ على تدفق النفط ، وحافظ على تبعية المنطقة له وإخضاع ”الوطنيين الكامنين“ ، الأمر الذى أتاح لنا ”نحن“ أن نظهر بمظهر القوة . ويمضى كرافت فى مقاله ليوصى ”بالعثور على مناسبة لتأكيد قوة أمريكا بصورة لا يمكن إغفالها وحذا لو كانت مفاجئة ، لصالح وباسم النظم التى تشعر بتهديد آية الله لها“ باعتبار ذلك جانباً من جوانب محاولة ”إعادة بناء السياسات الأمريكية إزاء إيران“ . وما الطرق الأخرى لتنفيذ ذلك ؟ يقول كرافت :

قد يتخذ ذلك شكل مساعدة العراق فى جهودها لبعث المقاومة المحلية داخل إيران . وقد يعنى تقديم مساعدة عسكرية إلى تركيا وإيجاد هذه الفرص واستغلالها يتطلب تغييراً داخلياً حاسماً فى واشنطن . وعلى الولايات المتحدة أن تتمتع بالقدرة على أن تفعل ما يتجاوز إرسال مشاة البحرية وإلقاء القنابل ، أى إن عليها أن تعيد بناء قدرتها (وهى القدرة التى دمرت ذاتها منذ أعوام معدودة فحسب) على التدخل الخفى المقتنع .

ويتضح من مقال كرافت أنه يرفض أن يتقبل أن الثورة الإيرانية قد قامت أصلاً . ومن ثم فلا بد من ”تنقيحها“ بمعنى إعادة النظر فيها وفى كل ما يتصل بها - آية الله ، والإسلام ، والشعب الإيراني - باعتبارها انحراقاً يتمنى أن يقول به قراؤه . وبعبارة أخرى ، نجد أن كرافت ”يسقط“ رؤيته الخاصة للواقع على

واقع إيراني وأمريكي معقد إلى درجة بعيدة ، ويريد من ثم أن يستعوض بهذه الرؤية عن الواقع الفعلي . كما تتميز رؤية كرافت بمزية ' تعليمية ' إضافية وهي مجافاتها الكاملة للأخلاق : إنها تتعلق بالقوة ، القوة التي تمكن أمريكا من صوغ العالم وفقاً لشروطنا "نحن" ، فكأنما لم نتعلم شيئاً من استمرار تدخلنا ، في الواقع ، في إيران ، على مدى السنوات الخمس والعشرين الماضية . وأما إذا وجد نفسه ، في غمار ذلك ، ينكر حق الآخرين في إحداث ما يرونه من تغيير في شكل حكومتهم ، بل وينكر حتى أن تغييراً ما قد حدث بالقطع ، فذلك لا يهمه كثيراً . فهو يريد لأمريكا أن تعرف العالم (وأن يعرفها العالم) بما لها من قوة ، ومن احتياجات ومن رؤية خاصة . وأما ما عدا ذلك فهو إساءة بالغة .

وأما ما يعيب هذه النظرة فهو أنها ، حتى من الزاوية البراجماتية والأناانية المحضة ، نظرة فظة وعمياء . ففي الوقت الذي كان كرافت ومن لفّ لفّه يهاجمون الثورة الإيرانية وينعون فقدان الشاه ، كان الموقف في إيران قد أصبح مزعزجاً ومقلقاً إلى أقصى حد ، إذ كانت الجماهير التي أسقطت نظام حكم الشاه تتصدّر اتّلاقاً سياسياً يرأسه آية الله الخميني . كان يتمتع وحده بالسلطة وبالشرعية الروحية والسياسية القادرة على اجتذاب أنظار البلد . أما تحت السطح الذي يهيمن عليه فكان الصراع يدور بين العديد من الفصائل ، وكان من بينهم بطبيعة الحال رجال الدين

■ قصة إيران ■

(الذين انتظم أتباعهم فى الحزب الجمهورى الإسلامى) وليبراليو الوسط (وبتصدرهم بازرجان) وتجمعٌ عريض من أحزاب وشخصيات إسلامية تتفاوت ميولها ما بين الليبرالية واليسار (وقد برز بنى صدر من بين هذه الشخصيات) واليسار غير الإسلامى ، وهو الذى يتشكل من أحزاب وتجمعات كثيرة مختلفة . وقد ظل الصراع على السلطة قائماً بين هذه الفصائل المختلفة لما يزيد على عام كامل بعد قيام الثورة - أى من فبراير ١٩٧٩ حتى مارس على الأقل أو إبريل ١٩٨٠ ، وكان يبدو أحياناً أن بنى صدر قد انتصر ، وفى أحيان أخرى - أساساً فى أواخر أيام الشتاء وأوائل الربيع عام ١٩٨٠ - أن رجال الدين (بزعامة آية الله محمد بهشتى) قد انتصروا . ولم يُنشر فى الولايات المتحدة من أنباء هذا الصراع أثناء احتدامه إلا قدر بالغ الضآلة . فلقد بلغ الالتزام الأيديولوجى بفكرة جمود الإسلام وثباته درجة من القوة حالت دون ملاحظة التحولات السياسية الجارية فى داخل ذلك البلد المعين . وعندما انتصر التجمع الإسلامى المحافظ نتيجةً لذلك الصراع بعد ذلك ، بدا للناس أن الأوصاف الأولى للإسلام كانت صحيحة على أى حال . لكنه عندما فشلت محاولة إنقاذ الرهائن بالطائرات العمودية ، وبعد أن قررت إدارة الرئيس كارتر تخفيض أولوية قضية إيران لفترة ما (ومن زاوية معينة بعد أن فات الموعد) بدأت الصحافة تؤدى واجبها فى نشر أنباء الصراع على السلطة بين بهشتى وبنى صدر . وكما جرت العادة صورت بنى صدر فى

صورة الشخص الذى نستطيع التعامل معه لولا وجود بهشتى ،
وأما حين كان نجم بنى صدر ساطعاً صاعداً فى أواخر عام
١٩٧٩ ، فلم يكن يلقى إلا التجاهل أو الازدراء .

لا شك أن القوة مسألة معقدة ، فالقوة لا تلمحها العين فى
جميع الأحوال . وتتغير أشكالها بسرعة ، إلا إذا اقتصرنا فى
تفكيرنا على القوة العسكرية . ومع ذلك فقد تنشأ مواقف تصعب
فيها رؤيتها أو فهمها ، على نحو ما أشار إليه كرافت بدقة ،
ويستعصى فيها استعمالها مباشرة (غارة ، تخريب تدبره وكالة
الاستخبارات المركزية ، ضربة تأديبية من لون ما) ولا يمكن
استعمالها إلا بصورة غير مباشرة (”احتجاز أمريكا رهينة“ هو
النموذج الذى قدمه وأعاد تقديمه جهاز إعلامى يتمتع بموارد لا
حصر لها فيما يبدو) . فمنذ زمن بعيد وأجهزة الإعلام مشغولة
بتأكيد ما تتمتع به هى من قوة مباشرة . ولا أرى أنه من المبالغة أن
نقول إن الإحساس ”بالعجز القومى“ الذى تحدث عنه كرافت كان
بمثابة طغيان مؤقت لنوع من أنواع القوة الأمريكية على نوع آخر :
طغيان قوة أجهزة الإعلام التى حجبت قوة العسكريين الذين
أحسوا بعد احتلال السفارة بالإحباط إذ أخرجتهم قوة أخرى كانت
فيما يبدو خارج نطاق القوة العسكرية الأمريكية (وهى الحقيقة التى
أثبتتها بوضوح محاولة الإنقاذ الفاشلة فى أواخر إبريل ١٩٨٠) .

ولكن هذه القوة نفسها ظلت مع ذلك خاضعة للحدود التى
فرضتها عليها قوى أجهزة الإعلام الغنية القادرة على الرمز

والإيحاء . فمهما يكن ما كسبه الفرد الإيراني من حريته أو تحرره من الشاه ومن الولايات المتحدة ، استمر ظهوره على شاشات التلفزيون الأمريكي في خضم جمهور غوغائي كبير مجهول الاسم ، فسلبته الصورةُ فرديته وإنسانيته وعادت للتحكم فيه نتيجة لذلك . وسواء كانت أجهزة الإعلام على وعى بما تفعله أم لا ، فإنها كانت في الواقع تستخدم طاقاتها على التمثيل والرمز لتحقيق غرض معين ، شبيه بالأغراض التي قصدت إلى تحقيقها حكومة الولايات المتحدة في الماضي : ألا وهو توسيع نطاق الوجود أو الحضور الأمريكي ، أو ما كان لا يختلف معناه في نظر الإيرانيين أي إنكار وجود الثورة الإيرانية . ولم يكن هذا يعني في المقام الأول تقديم الأنباء أو تقديم تحليل أو تأملٍ لمرحلة جديدة مهمة من مراحل العلاقات الخارجية الأمريكية ، بل ، وباستثناءات جد قليلة، كان غرض أجهزة الإعلام ، فيما يبدو ، أن تشن حرباً من لون ما على إيران .

وقد أعد صحفيان في صحيفة واشنطن بوست هما وولتر بنكاس و دان مورجان مجموعة رائعة من التقارير التي تتضمن ثمار بحوثهما وتحقيقاتهما ونشراها في ديسمبر ويناير وفبراير ومارس ١٩٨٠ ، فكانت من باب الاستثناء للقاعدة ، إذ وضعا أمام القارئ أدلة قاطعة على الصفقات المربحة التي عقدها الشاه مع شركات السلاح الأمريكية ، وعلى ما يملكه في المؤسسة البهلوية ، وعلى تلاعبه وقمعه للشعب (وقد نشر روبرت جراهام تفاصيل

بعضها في كتابه إيران : وهم القوة) ولكن أمثال هذه المقالات ، إلى جانب المقال الذي كتبه برنارد نوسيتير في نيويورك تايمز بتاريخ ٢٦ نوفمبر ويقارن فيه الخميني بالشاه ، كانت قليلة العدد ، إذا قارناها بحالة الاستياء السائدة التي تنقلها أجهزة الإعلام وتنشرها مراراً وتكراراً . ومن الغريب أن أحداً لم يحاول النظر إلى سياسات الولايات المتحدة في إيران في إطار ما يسمى بامتيازات الأجانب التي كان معمولاً بها على امتداد قرن كامل ، وكانت هذه السياسة تمنح شتى الدول ، ابتداءً بالجلترا ، امتيازات اقتصادية ودبلوماسية وقضائية خارج أراضيها ، في إيران (وهكذا قال الخميني في عام ١٩٦٤ ”لو أن الشاه صدم بسيارته كلباً أمريكياً لتعرض للحساب ، ولو صدم طباحٌ أمريكيٌ بسيارته الشاه فليس لأحد أن يطالبه بأى شيء“^(٧)). ولكن أجهزة الإعلام لم تشر قط إلى هذه السياسة ، وإن كان يمكن بوضوح أن نستخدمها في تفسير الحدة الشديدة لمشاعر الإيرانيين ضد جميع ”الشياطين الأجانب“ وخصوصاً من الدبلوماسيين الأجانب ، لا الولايات المتحدة فقط . وقد كان يمكن أن يؤدي ذلك إلى إسكات صيحات الاستنكار والتظاهر بالتقوى التي سماها من الكثير من المعلقين الذين قالوا إن إيران قد ظلمت أمريكا ظلماً بيتاً فادحاً ، وإن أمريكا بريئة لم تقدم إلى الإيرانيين إلا الخير السابغ الفياض .

وليس من المدهش إذن ألا يخرج القارئ بمعلومات كثيرة مما نشر عن الأزمة في شهورها الثلاثة الأولى ، إذ لا تقدم لنا أجهزة

الإعلام إلا الإصرار على موقفها ، بدلاً من التحليل أو التغطية المتعمقة للتعقيدات الحافلة التي تنزخر بها القضية وأظن أن الأمريكيين سوف يقولون إن أجهزة الإعلام قد قدمت أدلة كثيرة على قدرتها على الوجود ، وهناك في طهران ، وعلى طاقتها على حفز الأحداث على اتخاذ أشكال يسهل هضمها مهما بدت ساذجة . ولكنها لم تر فائدة في تحليل الجوانب السياسية المعقدة للأحداث ، ولم يشعر أحد قطعاً بأن أجهزة الإعلام كانت تقوم بتسجيل وتوثيق التحولات التاريخية المعقدة التي تحير الألباب أحياناً . ولكننا استطعنا أن نكتسب بعض المعرفة بأساليب عمل أجهزة الإعلام .

فإذا نحينا جانباً ذلك التصوير الذي لا هوادة فيه لتجربة المواجهة التي أشرت إليها ، فسوف نقدر مدى ما أنفق على تغطية أنباء إيران والكم الهائل لتلك الأنباء . فعلى امتداد الأسابيع العشرة التي قمت فيها برصد ثمانى صحف يومية ، والشبكات الثلاث ، ومجلة تايم ومجلة نيوزويك ومحطة الإذاعة العامة ، بدا لى أن كل صحيفة كبرى فى البلد قد غطت وأبرزت الأحداث الإيرانية ، إلى جانب ”لمحات عن خلفيتها“ وبعض التحقيقات الصغرى المرتبطة بها . وقال جون كيفنر ، المحرر فى نيويورك تايمز فى ١٥ ديسمبر ١٩٧٩ إن فيلقاً من الصحفيين الغربيين ، الذين لا يقل عددهم عن ثلاثمائة ، يقيم فى طهران (وكان معظمهم ، إن لم يكونوا جميعاً ، فى حاجة إلى مترجمين).

وذكر كول ألن يوم ١٦ ديسمبر ١٩٧٩ فى صحيفة ذى أستراليان أن مجموع ما تنفقه الشبكات الأمريكية الكبرى فى طهران يبلغ مليون دولار يومياً . وقال ألن إن محطة إذاعة كولبيا كان لديها فى طهران ، إلى جانب رئيس مكتب المحطة ”فريق يتكون من ٢٣ صحفياً ، ومصوّر تلفزيونى ، وخبير تسجيل الصوت ، وخبراء أفلام وفنيين يساعدهم ١٢ مترجماً إيرانياً ، وسائق ومرشد“ . وكانت تستخدم جناحاً فى أحد الفنادق ، إيجاره الشهرى ٦٠٠٠ دولار ، مركزاً للعمليات ، إلى جانب خمس وثلاثين غرفة أخرى إيجار الغرفة الواحدة ٧٠ دولاراً فى اليوم للصحفيين والسائقين والمترجمين ؛ وتضاف إلى هذا تكاليف الطائرات الخاصة ، وآلات التليكس ، والسيارات والتليفونات ، إلى جانب قمر صناعى للاتصالات يستخدم أربع ساعات يومياً بتكلفة قدرها ١٠٠ دولار فى الدقيقة ، وترتفع التكاليف بمعدل جد كبير .

وعندما عاد فيرمونت رويستر إلى الولايات المتحدة من رحلة إلى الخارج ، كتب فى وول ستريت جورنال يقول ، فى ١٩ ديسمبر ١٩٧٩ ، إن الكومة التى تجمعت لديه من الصحف ومن برامج التلفزيون التى بدأ يستعرضها كانت شاهداً

”على مدى ضالّة ما وجدته من معلومات لم أكن أحيط بها سلفاً عن الأزمة الإيرانية على الرغم من التغطية الهائلة لأنبائها . وعندما استقر بى المقام فى المنزل وجدت نفسى أغرق فى طوفان يومى من التحقيقات التلفزيونية

والإذاعية والصحفية عن إيران . كانت الصحف تنشر موضوعات مطولة بعناوين ضخمة ، والتلفزيون يخصص معظم نشرات الأنباء المسائية للقضية ثم يذيع برامج خاصة في وقت متأخر كل ليلة تقريباً .

وخطرت لى ، استناداً إلى ذلك ، فكرة كالزندقة وهى أن أجهزة الإعلام تقوم عمداً بالمبالغة فى التغطية لغاية ما .

وقد يبدو ذلك رد فعل غريب بشأن قضية تتمتع بهذه الأهمية الواضحة . . . ولكن عدد الكلمات المستخدمة فى الحديث عن موضوع ما لا يعادل بالضرورة المعلومات التى يقدمها الحديث . والحقيقة أن جانباً كبيراً من الكلمات المستخدمة لم تكن له أى قيمة إخبارية حقيقية على الإطلاق .

اليوم ٢٨ . . اليوم ٣٥ . . اليوم ٤٠ - لم أجد فى معظم الأيام خبراً يختلف عما جاء به اليوم السابق .

ربما لم يكن رد فعل رويستر موجهاً فقط إلى تشابه الأخبار بل كذلك إلى ضيق نطاق الافتراضات المستخدمة فى البحث عن الأنباء ، والتى سريعاً ما تنفد ، وهو أمر غير مرضٍ . فإلى أى مدى زمنى نستطيع الاعتماد على الخبراء أو الصحفيين الذين يساورهم قلق مفهوم بشأن الرهائن ، وتغضبهم بذاءة الحادثة ، وربما أحسوا بالغضب من الإسلام كذلك ، ثم نأمل رغم هذا أن

نحصل على الجديد من المعلومات والأنباء والتحليل ؟ لو أن شخصاً قرأ صحيفة شيكاغو تريبيون يوم ١٨ نوفمبر ، واطلع على المقال المطول الذى كتبه جيمز يانجر ويستشهد فيه بالخبراء الذين يقولون ”إن هذا الأمر ليس مطروحاً للمناقشة على المستوى الوطنى“ وإن الإيرانيين ”متعطشون للاستشهاد“ وإنهم ”يميلون إلى البحث عن كباش فداء“ ، ثم انتقل إلى قراءة مجلة تايم أو مجلة نيوزويك فى الأسبوع التالى ، ومنها إلى قراءة التحقيقات العديدة فى نيويورك تايمز فى الأسبوع الذى يعقبه ، فإنه سوف يواجه فى كل حالة المعلومات التى تقول إن الإيرانيين شيعيون يتحرقون شوقاً إلى الاستشهاد بقيادة رجل غير عقلانى هو الخومينى ، وأنهم يكرهون أمريكا ، وأنهم مصممون على تدمير شياطين الجواسيس ، ولا يرغبون فى حل وسط وهلم جرأ . ألم تقع فى إيران أحداث قبل الاستيلاء على السفارة ، ربما ألفت لنا الضوء على الوضع الراهن ؟ ألم يكن لإيران تاريخ أو مجتمع جدير بالكتابة أو الحديث عنه دون ترجمته إلى الصور البشرية لإيران الملتأمة التى تقوم ، دون سبب ، بتغيير واستفزاز أمريكا وهى ’البطل الصالح‘ فى القصة ؟ وقبل كل شئ ، هل كان همُّ الصحافة ينحصر فى نشر أنباء تتفق ، فيما يبدو ، مع سياسة حكومة الولايات المتحدة الرامية إلى الحفاظ على ”وحدة الصف“ الأمريكى فى المطالبة بالإفراج دون قيد أو شرط عن الرهائن ، وهو المطلب الذى وصفه روجر فيشر ، الأستاذ بجامعة هارفارد ،

فى برنامج "توداى شو" يوم ٣ ديسمبر ، وصفًا بارعًا قائلاً إنه يقع فى المرتبة الثانوية بعد الأولوية الحقيقية ، التى لا تتمثل فى إطلاق سراحهم بل فى "الحفاظ على قوة أمريكا" ؟

ومن المفارقات أن يظهر ما يشى أحيانًا بالخصومة بين الحكومة وأجهزة الإعلام ، والمثال عليه هو الضجة التى أثرت عندما هاجمت الحكومة محطة الإذاعة العامة لأنها استخدمت مقابلة كاليجوس^(٨) ، أو الإشارات المتكررة الصادرة من دوائر تتحدث باسم الحكومة أو بلهجتها ، والتى مفادها ، بتعبير جورج بول فى برنامج تقرير ماكنيل / ليرار يوم ١٢ ديسمبر ، "أن أعظم شبكة اتصالات فى العالم أصبحت تعمل حقا فى خدمة الحكومة المزعومة فى إيران" . ويرتبط بهذا الموضوع ما لمحنه من الطعن المتواصل فى الشهادات أو الأقوال أو التصريحات التى تذيعها أو تطبعها أو تنشرها أو تصورها أجهزة الإعلام ، وهو الطعن الذى يقول إن زيدا أو عمروا قد تعرض لغسيل مخ ، أو إن س أو ص من الإيرانيين يمارس الدعاية أو يعتبر من الأعداء المتعصين ، إذ قال جيمز كوتس فى صحيفة شيكاغو تريبيون يوم ٢٢ نوفمبر ما يلى : "يقول المسئولون فى الإدارة الأمريكية إن الرهائن المحتجزين فى سفارة الولايات المتحدة فى طهران يتعرضون لضغوط نفسية شبيهة بغسيل المخ الذى تعرض له أسرى الحرب الأمريكيون فى الحرب الكورية وحرب فيتنام" . وقد أقر المسئولون فيما بعد بأنهم "يساورهم القلق بشأن بعض الأقوال التى أدلى بها الرهائن المفرج

عنهم منذ إطلاق سراحهم“ . وقال لويس تيمنيك في صحيفة لوس أنجيليس تايمز يوم ٢٦ نوفمبر إن ”على العالم أن يتوقع مشاهدة وسماع مقابلات مسجلة بالفيديو مع بعض الرهائن الذين ’يعترفون’ بشتى ألوان الأخطاء ويدلون بأقوال تعود بالضرر عليهم وعلى الولايات المتحدة“ .

وهاك مثالا آخر لنفس النزاع بين الزملاء وهو الهجوم الذى تعرض له السناتور إدوارد كيندى (مثلاً: ”إن طهران تشرب نخب إدوارد ، نيويورك بوست ، ٥ ديسمبر) بسبب تقديمه رأياً آخر غير مطابق لآراء الحكومة وأجهزة الإعلام ، أو ’العلاقة الساخنة’ التى تلقاها جورج هانسن ، عضو مجلس النواب ، إذ تعرض لنش ماضيه كله حتى يصدق الناس التهم التى وجهها إليه تيب أونيل .

وأنا لا أقول إن أجهزة الإعلام كانت متواطئة تواطؤاً مباشراً مع الحكومة ، ولا إن جميع الأخبار الخاصة بإيران قد شوهتها ’القيود’ الأيديولوجية التى ناقشتها ، بل ولا أرى أى سبيل على الإطلاق للموافقة على احتجاز الرهائن ، وهو ما أقر به منصور فرهانج نفسه ، السفير الإيرانى فى الأمم المتحدة ، فى برنامج تقرير ماكثيل / ليرار يوم ٥ نوفمبر ، ولكن أحداً لن يشك فى أن أزمة الرهائن لعبت دوراً لم يلق التحليل اللازم حتى الآن فى الديناميات المعقدة للثورة الإيرانية المستمرة ، وإن كان قد بدا لنا أن الاحتجاز الذى طال أمده قد خدم قضية العناصر المتخلفة الرجعية

————— ■ قصة إيران ■ —————

فى المجتمع الإيرانى . أما الآن وقد شارفت الأزمة على الحل والانفراج (أساساً لأن الحرب مع العراق لم تعد تجعل لاحتجاز الرهائن أى فائدة للسياسة الإيرانية الداخلية) فقد بدأت تظهر أوضاع جديدة . ومع ذلك ، فإن ما أقصده هو أن العالم الذى نعيش فيه يتميز اليوم بالتعقيد البالغ ، والاختلاف الشديد، بل ومن الأرجح أن يستمر فى إفراز أوضاع غير تقليدية (مهما تكن على غير هوى الأمة فى الولايات المتحدة) إلى الحد الذى تتعذر معه ترجمة كل شىء إلى ما يمكن اعتباره إساءة إلى القوة الأمريكية أو إعلاء من شأنها . ولا ينبغى أن يواصل الأمريكيون اعتقادهم بأن أهم ما يعينهم فى ”الإسلام“ هو مناصرته لأمريكا أو معاداته لها . فإن مثل هذه النظرة القائمة على كراهية الأجانب واختزال صورهم كفيلة باستمرار المواجهة بين الولايات المتحدة وسائر أفراد الجنس البشرى العنيد ، وهى سياسة تعنى توسيع نطاق الحرب الباردة بحيث يشمل جانباً من الكرة الأرضية يفوق ما يمكن قبوله . وأظن أن بيننا من يعتبر هذه السياسة من باب الدعوة الإيجابية ”لأسلوب الحياة الغربى“ ، لكننى أعتقد أيضاً أننا لن نخطئ إذا قلنا إن أسلوب الحياة الغربى لا يتضمن بالضرورة إثارة العداء والمواجهة باعتبارهما من وسائل إيضاح مفهومنا للمكانة التى نشغلها فى العالم .

ولابد لى الآن من عرض آرائى الخاصة بإيجاز شديد عما أصفه بالموقف السياسى العالمى الناشئ (والذى تمثل إيران إحدى

بواده الكبرى) . يقول الكثيرون إن قوة أمريكا آخذة في التدهور، لكنني أقول إن الوعي السياسى قد انتشر فى المزيد من مناطق العالم فأدى إلى انحسار احتمال رضى هذه المناطق بمواصلة الدوران فى فلك المستعمرات التابعة لغيرها ، أو البقاء فى صفوف الحلفاء دون تفكير . وإيران وأوروبا الغربية اليوم ، على الترتيب، يمثلان ما أعنيه . أضف إلى ذلك أنه لا حاجة بنا إلى الظن أن شعب أفغانستان كان يريد غزو الاتحاد السوفييتى لأراضيه أو إلى الظن بأن الإيرانيين كانوا سعداء بمناصرة الولايات المتحدة للشاه السابق ، فالحالان متماثلان . وأعتقد أنه من الخطأ والحمق أن تعتبر أن "الإسلام" كتلة موحدة ، كما أعتقد أنه من قبيل سوء الرأى السياسى أن نتعامل مع "أمريكا" كما لو كانت فرداً لحقه الضرر لا باعتبارها نظاماً معقداً . وأعتقد من ثم أننا فى حاجة لمعرفة المزيد عن العالم ، لا العكس ، وهكذا يجب أن نتوقع مستويات أرفع مما لدينا الآن لنقل الأنباء ، ومزيداً من الحذق الإعلامى ، ومزيداً من الحساسية والدقة فى إبلاغنا بما يجرى من حولنا فى العالم . ولكن هذا يعنى ، ولا شك، أن نتجاوز كثيراً ما يتاح عادة للصحفيين العاملين فى مجتمع ما ، وهو الذى (أ) يتشكل وعيه أساساً فى ضوء الأزمات الطارئة أو بدوافع تعصب عرقية غير مشروطة ، و(ب) يتمتع بقدرة مذهلة على أن يبنى لنفسه هياكل بالغة التعقيد من المعلومات استناداً إلى بعض القوالب اللفظية التى يلتقطها بسرعة ، والمصالح الذاتية ذات التعريف

الضيق و(ج) لم يشكل تاريخ تفاعله مع الشعوب الإسلامية البالغة التنوع ، فى الآونة الأخيرة ، إلا النفط أو بعض الحكام الذين يعود عليهم تحالفهم مع الولايات المتحدة (مثل الشاه السابق) بفوائد محدودة ، وتتسم بالقصور الشديد فى فحصها ، مثل "التحديث" ومناهضة الشيوعية .

وأما تجاوزه ذلك كله فهو شاقٌ عسير . وانظر كيف يخوض مراسلو معظم كبرى الصحف الأمريكية وشبكات التلفزيون نضالاً بطولياً فى أداء واجب متصل الحلقات ، وهو العودة بموضوع صحفى ، وهم يجهلون ، مع ذلك ، فى العادة لغة المنطقة التى يغطونها ، ويفتقرون إلى الخلفية الخاصة بها ، ويتعرضون للنقل إلى منطقة أخرى بعد فترة 'خدمة' قصيرة فيها ، حتى بعد أن يكونوا قد بدأوا إرسال مادة صحفية مهمة . ومهما يكن حظ الفرد من الموهبة ، فلن يستطيع التغطية الإعلامية لبلاد معقدة التركيب مثل إيران أو تركيا أو مصر دون قدر ما من التدريب وإقامة طويلة فيها . وانظر مثلاً كيف أن جيمز ماركام ، القدير الموهوب الذى غطى أنباء الحرب الأهلية اللبنانية لصحيفة التايمز فى ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، كان قد عاد لتوه من فيتنام ، وبعد أن قضى قرابة عام فى الشرق الأدنى ، نقلته الصحيفة إلى إسبانيا ، وكيف أن أنباء بلاد الشام بأسرها قد تولى تغطيتها هنرى تانر ، بصورة متقطعة لصحيفة التايمز ، وهو الذى كان مقره فى روما ، بسبب رحيل جون كفنر ، إلى طهران ، ثم تولاهما نيكولاس كيدج من بعد

تائر، وأما مارفين هاو ، المراسلة السابقة في بيروت (والتي كان من المفترض أيضاً أن تغطي أنباء الأردن ، وسوريا ، والعراق ، والخليج) فقد قضت عاماً واحداً في بيروت بعد إقامة قصيرة في البرتغال ، ثم نُقلت بعد ذلك بعام ، في خريف ١٩٧٩ ، إلى أنقره . فإذا قارنّا ذلك بالمعمول به في بعض الصحف الأوروبية ، برزت لنا بوضوح أخطاره ، وهي التي يرتكبها أصحابها في حق أنفسهم : إن صحيفة لوموند الفرنسية لديها إريك رولو ، الذي يتكلم العربية بطلاقة ، وتولى تغطية أنباء المنطقة لما يقرب من ربع قرن ، وصحيفة الجارديان البريطانية لديها دافيد هيرست ، الذي يجيد لغات المنطقة كذلك ، ولديه خبرة لا يقل طولها عن خمس عشرة سنة . (ولكن تغطية الصحافة الأوروبية للأنباء الخارجية لا تقل ضعفاً، في معظم جوانبها الأخرى ، عن نظيرتها الأمريكية). وأما احتمال عدم قيام مراسلي الشبكات التلفزيونية بالتغطية اللازمة ، ومن الأرجح أن يكون هؤلاء أشد تجوالاً حتى من مراسلي الصحف ، فيجعل من مراسل الصحيفة دائرة معارف ومثالاً للدعاة إن قورن بمراسل التلفزيون .

وأظن أن التذبذب الشديد في المستوى ، وهو ما اعتدناه في ما تنشره الصحف الأمريكية عن الشرق و”الإسلام“ ، لن يحظى بالسكوت والرضا إذا كانت الأنباء تتعلق بأوروبا الغربية ، وإن كان ذلك لا يعني أن مشكلات تغطية أوروبا الغربية قد وجدت الحل ، ولكنني أجد من الصعب ، على أي حال ، أن أفهم سر اتفاق

جميع المسئولين فى الإذاعة والتلفزيون والصحافة، فيما يبدو، على أن مدرسة كتابة الأخبار 'بعيون جديدة' أجدر بالثقة من الاستناد فى كتابتها على الخبرة الطويلة بالمنطقة . ولقد شاهدنا بعض المراسلين التلفزيونيين من ذوى الكفاءة مثل مورتون دين ، وجون كوتشران ، وجورج لويس ، وهم يتحولون أثناء الأزمة الإيرانية إلى "خبراء" أمام عيوننا ، لا بسبب إحاطتهم بالمزيد من العلم ، بل لمجرد افتراض أنك إذا مكثت فى بقعة ما فترة زمنية قصيرة ، فسوف تكتسب المعرفة الكافية بها . وأما ما شاهدناه فى الواقع فهو استناد الصحفى إلى ضرورة إعداد موضوع صحفى ما، ويزداد فى غمار ذلك افتقاره إلى العين الناقدة (على نحو ما رأينا مثلاً فى المناقشات اليومية فى المساء بين جون تشانسلور وبين لويس كوتشران) ويقل اعتماده على التحليل وجمع الأخبار فى الواقع الفعلى . وهكذا اعتدنا التضحية بالدقة ، وإن لم تكن الدقة من فضائل أجهزة الإعلام فى يوم من الأيام ، فى سبيل إعداد الموضوع الصحفى ونشره ، سواء جدّ جديدٌ جديراً بالنشر حقاً أم لا .

ولكن بعض الضغوط الأخرى تلعب أيضاً أدواراً مهمة ، فالعاملون فى الصحف المطبوعة يدركون أن مراسلى شبكات التلفزيون قادرون على إعداد موضوعات إعلامية تخطف الأبصار بصورها ، دون مبالغة ، كل ليلة ؛ كما أنهم يعملون حساباً لما من شأنه أن يجتذب القراء ، والموضوع فى نهاية المطاف لا يكاد

يتميز بالتغطية الفعلية ، أو بالدقة أو الأهمية الحقيقية . وقد أدت المنافسة بين الكلمة المطبوعة وبين الصورة إلى زيادة التأكيد على ما هو غريب في الإسلام الشيعي ، وعلى تقديم صور سيكلوجية للخميين ، وإن كانت هذه المنافسة نفسها تفسر التجاهل في التغطية الإعلامية لشخصيات وقوى نشطة في داخل إيران . ومما له أهمية أكبر ، ويؤدي إلى تشويه أخطر ، استخدام أجهزة الإعلام كقنوات اتصال دبلوماسية ، وهو من جوانب "قصة إيران" التي أشارت إليها مجلة برودكاستنج (الإذاعة) في ٢٤ ديسمبر ١٩٧٩ . فلقد كان الإيرانيون ، مثلما كانت حكومة الولايات المتحدة ، على علم تام بأن التصريحات التي ينقلها التلفزيون ليست موجهة فقط إلى الذين يريدون الأنباء بل أيضاً إلى الحكومات ، وإلى أنصار فصيلة من الفصائل ، وإلى بعض القواعد الشعبية السياسية الجديدة والناشئة . ولم يتم أحد بدراسة ما لهذا من تأثير في "تحديد ما يصلح خبراً" ، ولكنني أعتقد أن إدراك الصحفيين الأمريكيين لهذا يضع قيوداً معينة على تفكيرهم ويدفعهم إلى اختزال صورته في ثنائيات المواجهة بين "نحن" و"هم" ، وإن كان هذا التفسير الحرفي للمشاعر الجماعية قد أدى إلى إيضاح مظاهر عجز الصحفيين وعدم دقتهم ، لا إلى زيادة إخفائها .

ثالثاً : الافتراضات الخفية التي لم تفحص :

كفى بالصحفيّ سوءاً أن يفترق إلى الدقة ، لكنني أرى أن الكتابة الصحفية التي تستند إلى افتراضات مسبقة عن الوضع الراهن أسوأ ، إذ نُشر في عدد يناير - فبراير ١٩٧٩ من مجلة كولمبيا جورناليزم ريفيو مقالٌ يتناول أسلوب تغطية أنباء نظام حكم الشاه في أجهزة الإعلام بالولايات المتحدة ، وقد بين مؤلفا هذا المقال الذي يتسم بدرجة فذة من الفطنة ، وبأدلة مقنعة ، أن ”الصحافة ، إن شئنا الإجمال ، قد قبلت بصفة عامة حجة الشاه المضمرة والتي تقول إن أفضل الموارد الأيديولوجية التي يستطيع شعبه حشدها هو التعصب الديني والشيوعية“^(٩) وعلقت مجلة سيانس أيضاً في عددها الصادر في ١٤ ديسمبر ١٩٧٩ على العجز عن الفهم ، لكنها ألفت بالمسؤولية عن ذلك ، بصورة أكبر ، على عاتق أجهزة الدفاع والاستخبارات برمتها . وأما أعمق عرض وأدق تفصيل لهذا الرأي فقد ورد في مقال كتبه هيرمان نيكيل في مجلة فورتن ، في عددها الصادر في ١٢ مارس ١٩٧٩ . ولكن النتيجة التي توصل إليها نيكيل ، وتتسم بالحكمة ، لم يلتفت إليها أحد بصفة عامة . يقول نيكيل :

إن جذور فشل أمريكا {في إيران} أعمق مما توحى به الأخطاء التكتيكية ، فهي جذور تتغلغل في أعماق الماضي . ولن نستطيع إجراء بحث يعود بفوائد حقيقية في المستقبل إلا إذا تتبعنا هذه الجذور بصبر وتفكير منصف .

ولابد أن نكرر القول بأن أى جهد تبذله الولايات المتحدة لمحاسبة نفسها يجب ألا يجرى من خلال تبادل التهم بأسلوب انفعالى ويؤدى إلى الانقسام ، فى البحث عن إجابة للسؤال ”من ضيّع الصين من أيدينا ؟“ وهو السؤال الذى تسبب فى تسميم الأجواء السياسية فى الأربعينيات والخمسينيات . والفترة الأخيرة من تاريخ سياسات الولايات المتحدة تجاه إيران ليست قصة واضحة إلى الحد الذى يتيح للمتنبئين الحكماء الذين طال تجاهلهم أن يقولوا إن من حقهم الآن أن يرفعوا أصواتهم ويوجهوا أصابع اتهامهم . لا ! إن مسئولية الفشل ، فيما يبدو ، يشارك الجميع فى حملها مشاركة تدعونا جميعاً إلى الإحساس بالتواضع .

لقد كانت المبالغة الخطيرة فى تصور قدرة الشاه على حكم إيران تمثل خطأ فى الحكم احتضنته بنفس القدر من الثقة حكومات الحزبين الجمهورى والديمقراطى . ولم تكن تسمع فى قاعات الكونجرس أصوات الشك أو الاختلاف ، مثلما لم تكن تسمع فى مجالس البيت الأبيض .

وأما المناظرات التى توازن بين المسائل السياسية البناءة ، لا التراشق بالاتهامات الشخصية ، فقد يكون من اللازم أن نبدأ بتجديد وعينا بأن الأمم الأخرى ليست على أى حال ملكاً لنا حتى نقول إنها ”ضاعت من أيدينا“ .

وإذا كان على الأمريكيين أن يخرجوا بدرس واحد من مأساة فيتنام ، فهو أننا لا نمتلك القدرة على إملأ مجرى الأحداث في البلدان العريقة التي تعيش في كنف التأثير العميق لما لدى كل منها من تاريخ وثقافة ودين . وإذا كان الدور الذي تضطلع به البوذية في جنوب شرقي آسيا كثيراً ما بدا لنا محيراً عسير الفهم ، فلقد أثبت دور الإسلام في إيران أنه أكبر وأكثر إثارة لحيرة راسمي السياسات الأمريكيين .

وبعد انقضاء ما يقرب من عام كامل ، كانت المواقف التي توحى بالملكية لأي امتلاك إيران وتقوم على تبادل الاتهامات ، لا تزال سائدة ، وقد أضيفت إليها مفارقة أخرى وهي أن أجهزة الإعلام ، بصفة عامة ، كانت تجد صعوبة ، فيما يبدو ، في التسليم بأن الثورة نفسها قد قامت فعلاً - وبصورة قاطعة . خذ مثلاً أن معظم الصحفيين كانوا يشيرون إلى محمد رضا بلقب "الشاه" لا بعبارة "الشاه السابق" . كما أن أجهزة الإعلام ظلت حتى منتصف عام ١٩٨٠ (وهو الوقت الذي بدا فيه أن الجناح اليميني للثورة بدأ نجمه في الصعود) تركز على نشر أنباء الفظائع وإعدام الأشخاص والتي زادت نسبتها كثيراً عن أنباء الصراع السياسي في البلد ، وهو الذي كان أبعد ما يكون عن الحسم ويجري علناً في الواقع الفعلي . وقد كنت أتصور أن أحد الصحفيين سوف يدرك أن تفصيل القول في دلالة وجود اثني عشر

حزباً سياسياً تتنافس على السلطة والنفوذ ، فى جو حال نسبياً من التعذيب والسجن ، بعد عقود طويلة من القمع الشديد ، وفيما يعنيه ذلك للكيان القومى لبلد من البلدان ، أمر جدير ببذل الجهد فيه . ماذا يعنى لأمة أن يكون لها قائد يتميز ، على الرغم من عناده وعدم جاذبيته من عدة جوانب ، بأنه يشغل موقعاً رسمياً غير محدد بوضوح ، وبأنه لا يولى الحكم المركزى اهتماماً زائداً ، وبأنه يتمتع بالتبجيل الواضح ، ويبدو ذا مهارة فائقة فى الحفاظ على انشغال الفصائل الاثنتى عشرة بعضها البعض وإن كانت تخضع لسلطانه فى النهاية ، وبأنه يتكلم باقتناء وثقة لا حدود لهما بالمستضعفين ؟ وما أقل الموضوعات الصحفية ، فى الأيام الأولى لأزمة الرهائن ، التى قالت إن الحكومة فى إيران كانت مؤقتة على أفضل تقدير ، ريثما تكتمل إقامة دولة جديدة ، أو إنه فى معظم فترات عام ١٩٧٩ كان النقاش دائراً فى إيران حول الدستور وهيكल الحكومة ، أو إن فى إيران أحزاباً متعددة تبذل جهوداً جبارة (دينية أو علمانية ، يمينية أو يسارية) أو إن عشرات الصحف كانت تصدر بانتظام ، أو إن الشعب كان يناقش قضايا سياسية حقيقية ، (لا يمكن اختزالها بأى حال وتصويرها بصورة الحزب الطائفى أو العرقى أو الدينى) وإن أعداداً كبيرة من الإيرانيين يشاركون فيها ، أو إلى أن الصراع بين آيات الله (الخومينى وشريعت - مدارى وغيرهما) كان يتعلق بالتفسيرات السياسية إلى جانب التفسيرات الدينية للمبادئ الإسلامية ، أو إلى

أن مستقبل إيران قد لا يندرج ، بالضرورة ، فى الأنساق التى يراها المحررون من الطبقة الوسطى فى الصحف الأمريكية مطلوبة أو غير مطلوبة .

وأما أشد ما يصعب فهمه فى قطاع التحرير الصحفى وإعداد التحقيقات الصحفية فى أجهزة الإعلام فهو السبب الذى حدا بالعاملين فيه ، دون استثناء تقريباً ، إلى النظر بهذا القدر الكبير من الاحتقار والريبة إلى الحركة التى أسقطت الأسرة البهلوية المالكة وأتت إلى الحكم بجماعات مختلفة، وربما كانت تتمتع بشعبية أكبر ، إذ يشير هال جاليثرفى صحيفة *أتلانتا كونستيتيوشن* بتاريخ ١٣ نوفمبر ١٩٧٩ إلى ”الهمجيين الجدد الذين أطلق لهم العنان فى إيران“ ولم يكن يشير فحسب إلى الطلاب الذين يحتجزون الرهائن بل إلى الجميع فى إيران . وإذا قرأت المقال الطويل الذى كتبه يوسف إبراهيم ، وهو المقال الذى يفصح فى ظاهره عن الخبرة ، فى المجلة التى تصدر يوم الأحد مع *نيويورك تايمز* ، فى يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٩ فسوف تقتنع بأن الثورة قد فشلت فعلاً ، وبأن إيران مكان يمور بالحمم البركانية المستعرة استياءً وخوفاً وحنقاً على الثورة . وأما أدلته فتكاد تنحصر فى بعض الانطباعات الشخصية ، ومقتطفات من أقوال وزيرين ، وتتكون فى معظمها من مناقشات مع أحد رجال المصارف ، وأحد المحامين ، وأحد مديرى شركات الإعلانات .

ولا يعنى هذا أنه لا ينبغي للصحفيين استطلاع الآراء ، أو إحاطة قرائهم بهذه الآراء ، لكنه حين تتحول هذه الآراء إلى حقيقة واقعة ، تتحول الصحافة فجأة إلى نبوءات تحقق رغائب أصحابها . فإذا افترضت أن الثورة الإيرانية شرٌ لأنها تستخدم مصطلحات المقاومة الدينية والسياسية في تصديها للطغيان ، وهي المصطلحات البالغة الغرابة والجدّة (في عيون الغرب) فسوف تشرع في البحث عن هياج الحماسة غير العقلانية وتجده في كل الأحوال . وانظر معى إلى ما يقوله راى موزلى في مقال عنوانه ”الالتزام بشيء واحد والتعصب يستبدان بإيران الثورية“ نشرته صحيفة شيكاغو تريبيون يوم ٢٥ نوفمبر :

إن الذين يرون الموت شرّاً يُعتبرون ، تعريضاً ، متعصبين . ويبدو لنا أن شهوة الدم الثأرية والتحرّق شوقاً إلى الاستشهاد سمتان يتسم بهما ، على وجه الخصوص ، الشيعة المسلمون في إيران . وهذا هو الدافع الداخلى الذى جعل آلاف المواطنين العزل يقفون فى تحد سافر للجنود المسلّحين بالأسلحة الأوتوماتيكية أثناء الثورة .

إن كل جملة من هاتين الجملتين تتضمن افتراضات خلافية إلى حد بعيد ، ويعرضها الكاتب علينا باعتبارها حقائق ، وإن كانت تبدو مقبولة بصفة عامة ما دام الأمر يتعلق بالثورة الإسلامية . ومعظم الأمريكين لا يعتبرون باتريك هنرى متعصباً لأنه قال ”أعطني الحرية أو الهلاك“ . كما إن الرغبة فى قتل

■ قصة إيران ■

المواطنين الفرنسيين الذين كانوا يتعاونون مع جنود الاحتلال النازي (بل إن آلافاً مؤلفة منهم قتلوا فعلاً في غضون أيام معدودة) لا تعنى أننا نستطيع وسم الفرنسيين بهذه السمة بوجه عام . وما قولك في الإعجاب البالغ الشيوع بالأشخاص الذين تدفعهم الشجاعة الأدبية إلى الوقوف في وجه الجنود المسلحين وإرغامهم على التقهقر ؟

وكان مما دعم هجوم موزلى على إيران مقال افتتاحي بالغ الطول نشرته الصحيفة التي يعمل بها في اليوم نفسه ، ويوجه إلى الخوميني تهمة هائلة هي ”شن حرب مقدسة على العالم“ وعاد موضوع الحرب المقدسة أو الجهاد إلى الظهور في مقال كتبه إدموند بوزويرث في صحيفة لوس أنجيليس تايمز يوم ٢ ديسمبر ويتناوله فيه تناولاً شديداً الغرابة . فإذا نحينا جانباً تلك الحقيقة التي ذكرها فضل الرحمن وهي أن ”الخوارج المتعصبين قد انفردوا بين المذاهب الفقهية الإسلامية المتأخرة بإعلان أن الجهاد يمثل ركناً من ”أركان العقيدة“ (١٠)“ نجد أن بوزويرث يواصل مقاله بمنهج عشوائي فيقدم كمية كبيرة مما يعتبره من ”الأدلة“ التاريخية على صحة نظريته التي تقول إن جميع ضروب النشاط السياسي في الفترة التي تمتد نحواً من ألف ومائتي عام ، وفي المنطقة التي تضم تركيا وإيران والسودان وإثيوبيا وإسبانيا والهند ، يمكن تفسيرها بأنها تقوم على الدعوة الإسلامية للجهاد .

وإذا كانت المبالغة الهجومية من طرائق التعبير اتى تشيع بين الصحفيين فى وصفهم لإيران ، فإن الطريقة الأخرى هى التلطف فى التعبير ، وهو ما يسيء الصحفيون استعماله ، عادةً بسبب الجهل ، وإن كان السبب يرجع فى حالات كثيرة إلى عدائهم الأيديولوجى الذى لا يكادون يخفونه . وأشد أشكاله شيوعاً إيراد الصحفى "لتفسير" مقبول ظاهرياً من عنده ليستعيض به عن الواقع الفعلى . فلقد كان نظام الحكم الإيرانى السابق هو الموضوع الوحيد الذى لم تتعرض له الصحف وبرامج التليفزيون إلا بصورة سطحية على امتداد الشهور الثلاثة الأولى من بداية احتلال السفارة الأمريكية فى طهران ، إذ لم يكن من المفضل جماهيرياً أن يأخذ أحدٌ مأخذ الجِدِّ مظالم الإيرانيين الحالية ضد الملك المخلوع ، وضد السياسة الأمريكية (التي طال عليها الأمد) بمناصرتة دون تحفظ . كذلك لم تر الصحافة أن عليها أن تبحث البحث اللازم موضوع انتهاك السيادة الإيرانية فى أغسطس ١٩٥٣ ، عندما تضافرت وكالة الاستخبارات المركزية مع شركة النفط الانجليزية الإيرانية فى تدبير إسقاط محمد مصدق^(١١) (وهو ما أفاض القول فيه كيرمت روزفلت فى كتابه الأخير **الانقلاب المضاد** والذى تعجل فى سحبه من الأسواق) وأما سبب تجاهل الواقعة فهو افتراض أن الولايات المتحدة بصفتها دولة عظمى من حقها تغيير الحكومات والعفو عن الطغاة إذا كان ضحاياهم من الأميين ومن الأجnas غير البيضاء ، وفقاً لتقديرنا . وقال جورج أ. جروس ، وهو من الأطباء

النفسيين العاملين في مقال نشرته صحيفة نيويورك تايمز يوم ١١ يناير ١٩٨٠ إن الولايات المتحدة عندما سمحت للشاه السابق بدخول نيويورك كانت في الواقع تصفح عنه ، وكان ذلك عملاً "مجاناً للمبادئ الأخلاقية" مثلما كان قرار جيرالد فورد بالعمو ، في عظمة ، عن ريتشارد نيكسون يدل على "النقص في قدرته على إصدار الأحكام في إطار أخلاقي ، وفقدانه التعاطف مع الآخرين حين يغضبون لما يمس الخلق الكريم" .

ولكن أمثال هذه الملاحظات كانت قليلة وتفصل بينها فترات طويلة . إذ إن معظم كتاب التحقيقات الصحفية والمقالات الافتتاحية لم يكونوا يتجاوزون التلطف في التعبير . وكانوا فيما يبدو يتفقون على أن الإيرانيين قد قاموا بعمل حربي ضد سفارة الولايات المتحدة ، وإن لم يقل أحد ، تقريباً ، إن ما فعلته الولايات المتحدة ضد إيران عندما أسقطت مصدق في عام ١٩٥٣ كان عملاً حريصاً . وهاك المثل المعهود على ذلك ، إذ كتب إرنست كونين في افتتاحية لوس أنجلوس تايمز يوم ١٠ ديسمبر ١٩٧٩ يقول :

يبدو أن الأنباء الصحفية تؤكد صحة ما يقول به خبراء الشرق الأوسط من أن ما نشهده حقا هو التمرد الواسع النطاق على المؤثرات الدافعة على القلقلة التي صاحبت حركة التحديث بالأسلوب الغربي في السنوات الأخيرة .

إن كراهية الشاه لا ترجع فقط إلى أن رجال شرطته كانوا يعذبون الناس ، بل أيضاً إلى أنه رفع الدعم الحكومي الذى كان يتقاضاه رجال الدين ، وإلى أنه قاد ثورة صناعية تسببت فى اقتلاع جذور الإيرانيين من أساليب الحياة التقليدية فى الريف .

وأما سبب اختيار ”الشيطان أمريكا“ لدور الشرير الرئيسى ، لا فى إيران فحسب بل فى بلدان أخرى كذلك ، فهو أن الولايات المتحدة ظلت على مدى ٢٥ سنة ، القوة الأشد بروزاً فى المنطقة ، وأصبحت من ثم الرمز ’الجاهز‘ للقوى الأجنبية التى تسببت فى هذه التغييرات غير المستحسنة لديهم .

إن جانباً كبيراً من هذه الحجة المقامة ضد الإيرانيين تستند إلى افتراضات غير مصرح بها ، وهكذا فلا بد من قراءتها بعناية وحرص ، إذ إن كوين يقول ضمناً ، أولاً ، إن ”المؤثرات الدافعة على القلقلة“ التى صاحب حركة ”التحديث بالأسلوب الغربى“ هى نتيجة للمحاولة التى بذلها الغرب بحسن نية لإخراج إيران والإسلام من الماضى إلى الحاضر ، وبعبارة أخرى ، إن إيران والإسلام متخلفان والغرب متقدم ، ولا غرو إذا عانى المتخلفون فى محاولتهم اللحاق بركب التقدم . ولكن ذلك من أحكام القيمة ، وهى أحكام تقبل الطعن فيها بوضوح وجلاء وهى تستقى جوهرها ، كما ألمحت فى الفصل الأول ، من أيديولوجية

التحديث . وإلى جانب ذلك ، يفترض كوين ، دون أى مبرر سوى تحيزه العرقي الضيق ، أن الإيرانيين لم يغضبوا من التعذيب قذر غضبهم من إهانة 'رجال الدين' لديهم، وهو يسميهم عمداً تسمية توازي ، حرفياً ، تعبير 'رجال القداسة' أو 'المقدسین' ، للإيحاء بالشعوب البدائية وأطبائهم السحرة الذين يُطلق عليهم هذا التعبير . وهو يوحى ، بالإضافة إلى ذلك بأن الإيرانيين قد لا يشاركوننا ما يخامرنا "نحن" من أحاسيس . وآخر مسألة يطرحها ترتبط بهذه المسائل وتطورها ، إذ يعتبر أن الإيرانيين المتخلفين قد أخطأوا بعدم تقديرهم الجهود القائمة على النوايا الحسنة التي بذلها الأمريكيون والنظام البهلوي لتحقيق التقدم في إيران ؛ وهكذا لا يكتفى بتبرئتنا "نحن" ، بل يدين الإيرانيين إدانة خفية لجهلهم بقيمة نخط الحداثة لدينا ، ولهذا يعتبر الشاه السابق (فى رأيه الموحى به) شخصية نبيلة سامية .

ولم نلمح إشارات تذكر إلى الحقيقة التي ليست خفية باطنة ، بل ولا يصعب الوقوف عليها ، وهى أولاً أن الشركات الأمريكية العاملة فى المنطقة قد حققت أرباحاً طائلة (ولم يكن من الصعب إقامة الصلة بين زيادة أرباح شركات النفط بنسبة ٢٠٠ فى المائة فى السنوات القليلة الماضية وبين ثروة الأسرة البهلوية) وثانياً أن معظم الإيرانيين ، مثل الملايين الكثيرة من العرب الذين لا يستفيدون مباشرة من النفط ، يرون أن الثروة المرتبطة بالأمريكيين تمثل عبئاً من لون ما . وأما إذا قيل إن الشاه كان يلجأ أحياناً إلى قليل من

التعذيب ، على نحو ما ذكرت واشنطن بوست في ١٦ ديسمبر
 ”فلنا أن نحتج بأن ذلك كان يتفق تمامًا مع تقاليد التاريخ
 الإيراني“. ويبدو أن المعنى الموحى به هنا هو أنه لما كان الإيرانيون
 قد تعرضوا على مر التاريخ للتعذيب فإن أى محاولة من جانبهم
 لتغيير هذا القَدَر المكتوب تدخل فى باب خيانتهم لتاريخهم
 الخاص، ناهيك بطبيعتهم الخاصة .

وفيما يلى هذا الموقف المنطقي الذى لا يمكن دحضه (!)
 والذى طالعنا فى موضوع صحفى كتبه أ. شانش فى صحيفة
 لوس أنجيليس تايمز بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٧٩ ، إذ يقول إنه لما كان
 الدستور الإيراني الجديد ”من أغرب الوثائق السياسية فى العصر
 الحديث“ ولما كان لا يشبه الدستور الأمريكى شبهةً كبيراً (فهو
 يخلو من الضوابط !) فإن صعود الخومينى إلى السلطة لا يقل
 سوءاً عن جلوس الشاه على العرش . والواقع يقول إن الدستور
 الإيراني الجديد ينص ، نظرياً على الأقل ، على ”الأحكام
 الخاصة بانتخاب رئيس الجمهورية ونواب البرلمان انتخاباً شعبياً
 وعلى وجود جهاز قضائى منظم“ ولكن شانش لا يقيم وزناً لهذا
 أو لذاك باعتبارهما (فى رأى شانش) ”من مظاهر الزخرفة
 الديمقراطية“. أى إن شانش لا يشير إطلاقاً إلى ما عرضه إريك
 رولو وقدم له تحليلاً مفصلاً فى صحيفة لوموند يومى ٢ و ٣
 ديسمبر ١٩٧٩ ، ونعنى به المناظرة الحامية الوطيس بشأن الدستور،
 والخلافات التى نشأت حول دور الخومينى على وجه الدقة وهلم

جراً . وبعبارة أخرى فإن شائش كان يقدم رأيه الخاص ، أى رأى المحرر الصحفى ، على أنه الحقيقة الواقعة للدستور الإيرانى ، على الرغم مما كان يقع أمام عينيه فى الواقع . وأما ما تلا ذلك من أحداث جعلت النظام الجديد فى إيران لا يبدو مبشراً بأى خير بحلول منتصف عام ١٩٨٠ فكان من قبيل المصادفة المحضة وثمره لنضال مرير ، كانت نتيجته محبطة لآمال الكثيرين من الإيرانيين (وغير الإيرانيين) من مناصرى الثورة . وكذلك ، وبلا شك ، كان ظهور مرشح للرئاسة يمثل أقصى اليمين فى الولايات المتحدة - أى أنه كان مصادفة لا تقل إحباطاً للآمال !

وباستثناء أندرو ينح ، وهو استثناء جدير بالتنويه ، لم يعلق واحد من الشخصيات العامة البارزة فى الولايات المتحدة ولم يقل أى شىء فى عام ١٩٧٩ عما كان النظام السابق يعنيه للإيرانيين الذين اتخذوا ما اتخذوه من إجراءات ضد الولايات المتحدة ، ولم يذكر أحد شيئاً عن ذلك للمراقبين مثل القساوسة الثلاثة الذين تولوا إقامة صلوات عيد الميلاد فى طهران فى السفارة ، ولا لجماعات رجال الدين المسيحى الذين كانوا فى طهران فى أواخر ديسمبر (وظهر هؤلاء وهؤلاء فى برنامج ماكنيل / ليرار يوم ٢٨ ديسمبر و يوم ٤ يناير) . ولقد شاركت الصحافة فى هذا الصمت إذ ظلت تتعامل مع الشاه السابق لما لا يقل عن عشرين يوماً من دخوله الولايات المتحدة باعتباره حالة إنسانية لا يجوز فيها إلا التعاطف والإشفاق ، فبدا ، بعد تجريده من ماضيه السياسى ، لا

علاقة له ، على نحو ما ، بما يحدث في السفارة الأمريكية في طهران . وحاول بعض الصحفيين ، وعلى رأسهم دون أوبردورفر من واشنطن بوست ، اقتفاء الخطوات الملتوية التي اتخذها دافيد روكيفيلر ، وهنري كيسنجر ، وجون ماكلوي ، للضغط على حكومة الولايات المتحدة حتى تقبل حضوره إلى هنا . ولكن هذه الحقائق ، وكذلك الارتباط الطويل الأمد بين الشاه السابق وبنك تشيس مانهاتن - وهو الارتباط الذي كان يمكن أن يساعد في تفسير أسباب عداوة الإيرانيين - لم يقل أحدٌ إن لها أية علاقة بالاستيلاء على السفارة ، وقدم الصحفيون بدلاً منها عدة تفسيرات تتسم بالتلطف في التعبير لأزمة الرهائن باعتبارها نتيجة لتلاعب الخوميني ، وحاجته إلى صرف أنظار الشعب عنه إلى شيء آخر ، وللصعوبات الاقتصادية الداخلية وما شابه ذلك (انظر لوس أنجيليس تايمز في ٢٥ و ٢٧ نوفمبر، و ٧ ، و ١١ ديسمبر، وكذلك واشنطن بوست في ١٥ نوفمبر) .

لقد اقتنعت في النهاية أنه ليس من قبيل السخرية المفرطة أن نقول إن موقف حكومة الولايات المتحدة برمته تجاه إيران (كما يرمز له رفض الرئيس كارتر مناقشة تعاملات البلد في الماضي مع إيران ، وهي التي يصفها بأنها "تاريخ غابر") يعتبر وسيلة مفيدة لتحويل عداة أجهزة الإعلام للإيرانيين وللإسلام ، وللعالم غير الغربي بصفة عامة ، إلى رأس مال سياسي له في عام الانتخابات الأمريكية . وهكذا ظهر الرئيس في صورةٍ من يحافظُ على قوة

■ قصة إيران ■

أمريكا في وجه الهجمات الأجنبية المنحطة ، وكان هذا ، إذا قلنا الصورة ، هو موقف الخوميني في إيران . كان رفض كارتير استخدام القوة يعرضه أحياناً لسهام الاحتقار التي يصبها وليام سافاير وجوزيف كرافت ، ولكنه فيما يبدو قد أكد للجمهور أنه يدعم المعايير الغربية للسلوك المتحضر ، إذا قورن بما يفعله من أصبحوا يسمّون ”بالإرهابيين“ الإسلاميين . وكان من الآثار الأخرى للأزمة أن صوّرت أجهزة الإعلام بعض الحكّام الآخرين، مثل الرئيس السادات ، في صورة ’المعيار‘ المرغوب فيه للإسلام (بعد أن ردّدت ، مراراً وتكراراً ، وصفه للخوميني بأنه مجنونٌ وعارٌ على الإسلام) . وكان هذا يصدق أيضاً على الأسرة المالكة السعودية ، وأما ما لم تتناوله أجهزة الإعلام في الوقت نفسه فكان يتمثل في مقدار هائل من المعلومات المثيرة للقلق ، إلى جانب إطالة الأزمة إلى مدى بعيد في حالة إيران .

خذ مثلاً السادات والسعوديين أولاً . لقد اتفقت الآراء منذ اتفاقيات كامب دافيد عام ١٩٧٨ على أن السادات هو صديقنا في المنطقة ، إذ اشترك مع مناحم بيجين في التصريح علناً عن استعداداه للقيام بدور الشرطي الإقليمي ، وإتاحة القواعد العسكرية في أراضيه للولايات المتحدة وما إلى ذلك بسبيل . وكان من نتائج ذلك أن معظم الأنباء التي تنقلها أجهزة الإعلام من مصر أصبحت تُصوّر وجهة النظر المذكورة فيما يتعلق بالشئون المصرية ، والعربية والإقليمية ، في صورة النظرة الصائبة . والآن التي تصلنا الآن

عن مصر والعالم العربى موجّهة لتأكيد تفوق سطوع نجم السادات، وبالمقارنة بهذه الأنباء لا يكاد يصلنا شىء عن المعارضة التى يواجهها ، كما إن الافتراض السائد هو أنه يمثل 'المعيار' السياسى والمصدر الرئيسى للأنباء أيضاً . وبطبيعة الحال كان ذلك نفسه ما حدث فى ظل نظام الحكم البهلوى فى إيران ، وإذا استثنينا مقالاً يتفرد بنبوءاته الصائبة كتبه باحث من بيركلى يدعى حامد الجار^(١٢) لم نجد من يبدى أى اهتمام بإمكانيات المعارضة الدينية والسياسية للشاه . وتقوم الولايات المتحدة حالياً بتحقيق عدد كبير من مصالحها السياسية والعسكرية والاستراتيجية والاقتصادية من خلال السادات ، ومن خلال منظور السادات الخاص للأمور . ويرجع جانب من هذا إلى جهل أجهزة الإعلام، وإلى تفضيلها "للشخصيات" اللامعة البراقة ، وإلى الانعدام شبه الكامل للبحث والتحرى فى العمل الصحفى فى إطار المناخ الأيديولوجى السائد حالياً فى مصر والشرق الأوسط .

ولسوف نجد أسباباً أخرى لذلك أيضاً ، أحدها هو الجوانب المحلية الحساسة للشرق الأوسط . فليس من قبيل المصادفة ألا نطالع ، بعد فضيحة ووترجيت ، وشتى ما أميط اللثام عنه من أنشطة وكالة الاستخبارات المركزية ، وصدر قانون الحرية الإعلامية ، أية 'مكتشفات' كبرى بشأن تورط الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط . ويتضح هذا بالنسبة لإيران ، لا لأن الكثير من الأمريكين كانوا مرتشين وحسب بل أيضاً بسبب انغماس

إسرائيل انغماساً شديداً في أنشطة الولايات المتحدة في المنطقة في ظل نظام الشاه . إذ إنه أنشأ شرطته السرية بمساعدة مباشرة من جهاز الموساد الإسرائيلي ، وعلى نحو ما شهدنا في حالات كثيرة أخرى ، كانت وكالة الاستخبارات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي يتعاونان عن طيب خاطر مع الأجهزة السرية الإسرائيلية^(١٣) وقد نشرت الصحافة الإسرائيلية سلسلة من المقالات التي ترفع الستار عن الكثير في عام ١٩٧٩ وفي أوائل ١٩٨٠ ، وكان من بين كتابها 'أوري لوبراني' وآخرون ممن كانوا مكلفين بإدارة التعاون بين إسرائيل وإيران قبل الثورة (انظر صحيفة دافار، ٢٠ مارس ١٩٨٠ ، وصحيفة هآرتس ، ١٠ يناير ١٩٨٠) ولم تنشر الصحف الأمريكية أى شيء من هذا ، ربما لأنه قد يبدو محرّجاً لإسرائيل وماساً بصورتها كبلد ديمقراطى محب للحرية . وفى الوقت الذى هبت فيه المؤسسة الاجتماعية في الولايات المتحدة برمتها لمعارضة أى اعتزام لتسليم الشاه السابق إلى إيران ، كان شاب فلسطينى فقير يدعى زياد أبوعين ، يكابد إجراءات الترحيل المطولة وما يصاحبها من عذاب ، لتسليمه إلى إسرائيل (إلى جانب رفض الكفالة وحرمانه من حق الحضور للشهادة) وبالتعاون الإيجابى من جانب وزارة الخارجية الأمريكية . وأما السبب (والسبب الأوحده) فكان أن الحكومة الإسرائيلية قد زعمت أنه كان إرهابياً مسؤولاً عن حادث تفجير قنبلة قبل ذلك بعامين ، وكان ذلك الزعم لا يستند إلا على اعتراف شخص آخر

وهو فلسطيني أيضاً ومن نزلاء أحد السجون الإسرائيلية ، وكان الاعتراف المنتزع منه ، والذي عدل عنه فيما بعد ، باللغة العبرية التي لا يعرفها . ولم يكد شيء من هذا يسترعى انتباه أجهزة الإعلام ، باستثناء المقالة المهمة التي كتبها كلوديا رايت المحررة في نيوسيتيسمان ، في عددي ٧ يناير و ٢١ يناير ١٩٨٠ من مجلة إنكوإيري بعنوان ”اللعب بتسليم الأشخاص“ .

أضف إلى ذلك أن انتشار القلق على استقرار بلدان مثل المملكة العربية السعودية والكويت لم يؤد إلى أى اهتمام إعلامي يتناسب مع مستوى هذا القلق ، باستثناء الانتقادات الضيقة المحدودة و’الانتقائية‘ إلى أبعد حد ، والخاصة بما تتعرض له المملكة العربية السعودية من أخطار تحدث عنها في الفصل الأول. فإذا استعرضنا الشبكات التليفزيونية والصحف الكبرى لم نجد إلا ما أشار إليه إد برادلى ، فى محطة إذاعة كولمبيا ، يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٧٩ ، من أن جميع المعلومات الخاصة باحتلال الحرم المكيّ جاءت من الحكومة ، وأن الحكومة لم تسمح بخروج أنباء من أى مصدر آخر ، ولكن هيلينا كوبان ، المحررة فى كريستيان سيانس مونيتور نقلت من بيروت يوم ٣٠ نوفمبر نبأ يفيد بأن احتلال ذلك المسجد كان له معنى سياسى قاطع بكل تأكيد ، وبأن المعتدين لم يكونوا على الإطلاق من المتعصبين الإسلاميين فحسب، بل كانوا يمثلون جانباً من شبكة سياسية لها ، إلى جانب البرنامج الإسلامى، برنامج علمانى يعارض بشدة احتكار الأسرة المالكة

السعودية للسلطة والمال . وبعد بضعة أسابيع ، اختفى المصدر الذى اعتمدت عليه ، وهو أحد السعوديين المقيمين فى بيروت ، والمعتقد أن الاستخبارات السعودية هى المسئولة عن اختفائه .

ومن المحتمل ، بعد غزو أفغانستان ، أن يزداد زيادة كبيرة عمق الهوة التى نراها تفصل بين الصالح والظالم من المسلمين ، وأن يزداد عدد الأنبياء التى تهلل لمنجزات المسلمين الصالحين مثل السادات وضياء الحق والمجاهدين الأفغان الذين يقاومون الغزو ، وأن تزداد معادلة الإسلام الصالح بمناهضة الشيوعية ، وأيضاً ، إذا أمكن ، بالتحديث . ولكن ما أقل من يعادلون مقاومة الأفغان للاحتلال السوفيتى بمقاومة الفلسطينيين للاحتلال الإسرائيلى ، وهو ما أشار إليه الملك حسين ، عاهل الأردن ، حين ظهر فى البرنامج التليفزيونى "لقاء الصحافة" يوم ٢٢ يونيو ١٩٨٠ .

وأما فى حالة المملكة العربية السعودية ، فإن الأخطار المصاحبة للاستثمارات الهائلة فيها لم يلتفت إليها (وهو ما لا يدعو للدهشة) إلا من يناصرون إسرائيل من الأمريكيين ، إذ يرون أن الرعاية الأمريكية ينبغى ألا تتحول من إسرائيل إلى العرب . ومن الشواهد على ذلك المقال الذى كتبه بيتر لوبين فى نيو ريبلك بتاريخ ٢٢ ديسمبر ١٩٧٩ بعنوان "ما لا نعرفه عن المملكة العربية السعودية" . وهو يقدم وجهة نظر مقبولة ، ولو أنه يبالغ فى عرضها ، وهى أن علينا أن نرفض الكثير مما يقال أو يكتب عن دول النفط الخليجية لأنه يقوم إما على أساس الدعاية للأسر المالكة

أو على الجهل . ومع ذلك فهو يبدى العجز الكامل عن توسيع نطاق انتقاداته حتى تشمل ما يكتب عن إسرائيل ، أو عن الانحياز لإسرائيل ، الذى لا يستعصى على الإدراك ، فى الكثير من مناهج دراسات الشرق الأوسط بشتى الجامعات . وعلى غرار ذلك ، كان يجب على لوبين ، فى إطار إصراره المحقّ على ضرورة تحرى الصحفيين للصدق فى المعلومات الخاصة بحلفائنا من ذوى الثروات النفطية ، أن يقول ما لم يقله من أن الكتابة عن إسرائيل تفتقر افتقاراً ، ذاع سوء صيته ، إلى الدقة العلمية والإنصاف .

رابعاً : بلد آخر :

نستطيع تلخيص كل ما قلته حتى الآن عن تناول أجهزة الإعلام للإسلام وإيران في الشهور الأولى لأزمة الرهائن ، التي وصل فيها التوتر إلى ذروته والكرب إلى أقصى مداه في بضع نقاط رئيسية . وأجدي أسلوب لإيضاح وصياغة هذه النقاط هو النظر في التصوير الأمريكي العام لقصة إيران ومقارنته بإحدى الصور الأوروبية ، وهي سلسلة المقالات اليومية التي كتبها إريك رولو في صحيفة لوموند الفرنسية ، والتي استمرت من أول أسبوع للأزمة حتى آخر ديسمبر ، وعندما طلبت إيران بعدها ، في يناير، مغادرة معظم الصحفيين لإيران ، نشرت صحيفة التايمز مقالات رولو المذكور لعدة أيام . ومن المهم ، بطبيعة الحال، ألا ننسى أن رولو ليس أميركياً ، وأن إيران لم تحتجز رهائن فرنسيين، وأن إيران لم تكن في يوم من الأيام داخل منطقة النفوذ الفرنسي وأن أجهزة الإعلام الفرنسية ليست أفضل كثيراً ، باستثناء ما كتبه رولو ، من نظيرتها الأمريكية . ومن المهم أيضاً أن نشير من جديد إلى أن الكمية المذهلة من المادة الإعلامية في هذه التغطية أتاحت ظهور عدد معين من الموضوعات البالغة القيمة، والتي تتسم بأنها تعارض الرأي المتفق عليه ، بصفة عامة (وإن لم يكن ذلك في جميع الأحوال) . ولننظر إلى بعض المقالات المختارة للنشر في لوس أنجلوس تايمز وبوسطن جلوب ، وبعض المقالات الإبداعية عن البدائل المتاحة لاستعمال القوة ومحاولات التناول الجاد لحقائق

الواقع في إيران (مثل مقال ريتشارد فولك في أتلانتا كونستيتيوشن في ٩ ديسمبر ، ومقال روجر فيشر في مجلة نيوزويك في ١٤ يناير) وبعض المادة الصحفية الممتازة عن خلفية السماح للشاه بدخول البلاد ، والتحليل السياسي الجيد الذي يصادفنا من حين لآخر ، والموضوعات الصحفية التي تتميز بالسرد الشائق ، (ومن الأمثلة ما كتبه دويل ماكمانوس في لوس أنجيليس تايمز وكفتر في نيويورك تايمز) فهذه بعض نماذج المادة الراقية التي نشرت في الأسابيع القليلة الأولى لأزمة الرهائن ، وكانت في متناول أي قارئ تقريباً ممن كانوا يتطلعون إلى شيء يتجاوز الاتجاه الوطني الضيق الذي كان الكتاب يلتزمون به في أغلب الأوقات . وعلينا أن نذكر أيضاً مقالين يتسمان بالقوة البالغة ويتناولان النُّعْرَة الوطنية المفرطة التي ظهرت أخيراً وتجلت في تعليق شارلات على الصدر عن "إيران النووية" وغيرها ، واللذين نشرا في مجلة إنكويري (٢٤ ديسمبر و ٧-٢١ يناير) وأن نشير كذلك إلى المعلومات التي جاءت في الوقت المناسب تماماً ، وعرضها فريدج كوك في مقال نشره في ذا نيشن بتاريخ ٢٢ ديسمبر ، وتناول فيها قضية العدول غير المفهوم عن التحقيق الذي كان الكونجرس قد شرع فيه عام ١٩٦٥ فيما يسمى بردود الفعل الإيرانية ، ويبين فيها أن المسؤولين يحولون دون استثنائه ، ولأسباب غير مفهومة أيضاً ، في هذا الوقت الذي أصبح فيه ذا صلة بالقضية وبصورة عاجلة .

وأما الغالب الأعم فهو أن التليفزيون والصحف اليومية

والمجلات الإخبارية الأسبوعية عاجلت أنباء إيران بأسلوب أبعد ما يكون عن الفهم العميق والإدراك الفطن لما يجرى في إيران ، وهو ما يتجلى في سلسلة المقالات التي كتبها رولو لصحيفة لوموند في الفترة نفسها . فإذا شئت المبالغة قلت إن ما كتبه رولو يجعل إيران تبدو بلداً آخر ، يختلف عن البلد الذي تصوره أجهزة الإعلام الأمريكية . فلم يغفل رولو لحظة واحدة عن الحقيقة وهي أن إيران بلد ما زال يمر بتحويلات ثورية هائلة ، ولما كان بلا حكومة ، فإنه يمر بمرحلة إنشاء مجموعة جديدة كل الجدة من المؤسسات والإجراءات والحقائق السياسية الواقعة . ومن ثم فلا مناص من النظر إلى أزمة سفارة الولايات المتحدة باعتبارها أزمة نشأت في إطار التحويلات المذكورة ، وهي التي كثيراً ما تختلط صورها على الباحث ، لا خارج إطارها . وهو لا يلجأ إلى الإسلام مطلقاً لإلقاء الضوء على الأحداث أو الشخصيات . ويبدو أنه نظر إلى مهمته الصحفية باعتبارها تشمل تحليلاً للسياسة والمجتمع والتاريخ في كل بلد ، على الرغم من تعقيدها ، دون اللجوء إلى التعميمات الأيديولوجية والألفاظ الرنانة التي تفتقر إلى المعاني الواضحة ، حتى إذا لم تؤد تطورات الموقف إلى النتائج المرجوة ، على نحو ما حدث في الواقع فيما بعد ، ولم تسر في الطريق الذي نستطيع فهمه . لم يتحدث صحفي أمريكي واحد عن المناظرة المديدة في إيران حول الاستفتاء الدستوري ، وما أقل التحليلات التي صادفناها عن شتى الأحزاب ، وأندر الإشارات

إلى الصراعات الأيديولوجية المهمة التي تفصل ما بين بهشتي ، وبازرجان ، وبنی صدر ، وقطب زاده ، ولم يعرض صحفي واحد للحديث عن شتى مناهج النزاع التكتيكي المستخدمة في إيران ، أو يقدم لنا تحليلات مفصلة (حتى منتصف عام ١٩٨٠ على الأقل) عن العديد من الشخصيات والأفكار والمؤسسات السياسية المتنافسة على السلطة والاستئثار بانتباه الجماهير ، ولم يشر صحفي أمريكي واحد إلى أن الحياة السياسية في إيران تكتسى في ذاتها من الأهمية ما يجعلها جديرة بالدراسة ، خارج نطاق السؤال عما إذا كان الرهائن سوف يُفرج عنهم أو التساؤل عما إذا كان أحد الأطراف مناصراً لأمريكا أو معادياً لها . بل لقد كان التجاهل من نصيب بعض الأحداث الحاسمة مثل زيارة بنی صدر للطلاب في السفارة يوم ٥ ديسمبر ١٩٧٩ ، بل ولم يشر أحد ، ولو إشارة عابرة ، إلى الدور المهم الذي لعبه في السفارة حجة الإسلام خويئي ، وهو الذي تصادف أن كان كذلك مرشحاً لرئاسة الجمهورية في إيران . وقد كانت هذه بعض الموضوعات التي عاجلها رولو .

والأهم من ذلك أن رولو قد استطاع التسليم مقدماً ، فيما يبدو ، بأنه قد يكون للشخصيات أو التيارات الفكرية المؤثرة في الأزمة دور جاد وجدير بالنظر ، فلم يتهور في الحكم على الأمور ، ولم يصدر أحكاماً مسبقة على شيء ، ولم يقدم أيّاً من النتائج التي يحبّذها المستولون دون مبررات ومقدمات ، ولم يتوان

■ قصة إيسران ■

عن التحقيق في كل موضوع من موضوعاته الصحفية . ويتضح لنا من مقالات رولو أن زيارة هانسن ، عضو مجلس النواب الأمريكي ، لإيران حققت من النجاح ما لم تكن نظنه ، بل إن رولو يقدم لنا أدلة كثيرة في مقاله المنشور يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٧٩ على أن البيت الأبيض (مع أجهزة الإعلام الأمريكية) قد تعمد السماح للنجاح الذي أحرزه هانسن مع الإيرانيين بأن يذوى ويذبل ، على نحو ما قمع البيت الأبيض إمكان قيام الكونجرس بالتحقيق في الإجراءات المصرفية المشتركة ما بين الولايات المتحدة وإيران (وهو ما كان يريده الإيرانيون ، وربما كانوا يطلبون إجراءه في مقابل الإفراج عن الرهائن) . وقد تحدث رولو بالتفصيل ، على مدى النصف الأخير من عام ١٩٧٩ عن الصراع بين بنى صدر وقطب زاده ، والأول اشتراكي ومناهض للإمبريالية دون هوادة ، والأخير يلتزم بموقف المحافظين تجاه القضايا السياسية والاقتصادية ، كما سجل مواقفهما التي تتسم بالتناقض الظاهري إزاء أزمة الرهائن في نوفمبر وديسمبر (بنى صدر يدعو إلى حلّها ، وقطب زاده إلى تصعيدها) .

وأما ما نستطيع تخمينه - وإن لم يذكره أى صحفى أمريكى - فهو أن الولايات المتحدة كانت تفضل التعامل مع قطب زاده ، وتشجع ، فيما يبدو ، إقصاء بنى صدر عن وزارة الخارجية (بعدم أخذه مأخذ الجد ، والعمل على الانتقاص من مقترحاته ، بل وإطلاق صفة 'العبيط' عليه فعلاً) . ومن الواضح أيضاً أن

مواقف حكومة الولايات المتحدة تجاه إيران (وتفضيلها المؤكد للتعامل مع المحافظين على التعامل مع الاشتراكيين) في ضوء فوز بنى صدر برئاسة الجمهورية القريب ، ذات علاقة ما بهذه الفترة، كما يتصل بها أيضاً السبب الحقيقي لسقوط بازرجان : لم يكن ذلك السبب قطعاً أنه كان ليبرالياً ديمقراطياً ، وهو ما كانت أجهزة الإعلام الأمريكية تفضل القول به ، ولم يكن أنه صافح برزنسكى في الجزائر ، بل كان افتقاره إلى الكفاءة والقدرة على تحقيق السياسات ” الإسلامية“ المعلنة لحكومته . ويبين رولو أيضاً في مقال من أهم مقالاته (وهى التى نشرت صحيفة مانشستر جارديان صورة مختصرة لها فى ٢ ديسمبر ١٩٧٩) كيف شنت الولايات المتحدة حرباً اقتصادية متصلة الحلقات ضد إيران قبل الاستيلاء على السفارة بوقت طويل ، فى نوفمبر ، ومن الجوانب التى لا تبشر بالخير فى هذه الحرب استمرار مصرف تشيس مانهاتان فى القيام بدور رئيسى فيها .

ويرجع نجاح رولو إلى عدة عوامل منها أنه صحفى قدير ، ومنها أن الخبرات التى اكتسبها فى بلدان الشرق الأوسط لها تاريخ طويل ، ومنها أنه ، مثل نظرائه الأمريكيين ، يكتب وقد وضع نصب عينيه قراء صحيفته فى بلده . فالواقع أن لوموند ليست مجرد صحيفة فرنسية من بين الصحف الكثيرة ، لكنها صحيفة التوثيق الأولى ، ولا شك أنها ترى أن عملها هو تقديم صورة العالم وفقاً لمفهوم معين عن المصالح الفرنسية . وهذا المفهوم يفسر

————— ■ قصة إيران ■ —————

لنا ، إلى حد ما ، سر الاختلاف بين صورة إيران كما يراها رولو وصورة إيران في نيويورك تايمز فالنظرة الفرنسية تقوم على الوعى بأنها نظرة بديلة أى إنها لا تشبه نظرة القوة العظمى بل وتختلف عن نظرة الأوروبيين الآخرين . أضف إلى ذلك أن موقف فرنسا تجاه الشرق (وموقف لوموند إذا اعتبرناه امتداداً له) موقف قديم قائم على الخبرة ، فهو يحرص على مراعاة ما طرأ من تغيير بعد زوال الاستعمار ؛ ولا يهتم بالقوة الغاشمة اهتمامه بالانتشار والاستراتيجية والتحولات ؛ ويركز على بذور المصالح وتنميتها بدلاً من حماية الاستثمارات الهائلة فى نظم حكم معزولة ؛ ويقدم على الانتقاء ويقبل التغيير ويراعى الفروق الدقيقة (وقد يذهب البعض إلى أنه انتهازى) فيما يختار أن يبدى رضاه عنه وفيما ينتقد. والواقع أن لوموند تقوم على الملكية الجماعية ، فهي صحيفة البورجوازية الفرنسية ، وهى تعبر إزاء العالم غير الفرنسى عن سياسة تعددت أوصافها وتنوعت فقليل إنها تبشيرية ، أو رعوية ، أو أبوية ، أو "اشتراكية ذات قلب رحيم" أو إنها تنتمى لحركة التنوير فى القرن الثامن عشر ، أو كاثوليكية تقدمية (لويس ويزنيتسر فى صحيفة كريستيان سيانس مونيتور بتاريخ ١٣ مايو ١٩٨٠ ، وچين كريمير فى نيويورك تايمز بتاريخ ٣٠ يونيو ١٩٨٠)^(١٤) مهما يكن الأمر ، فالعبرة حقاً بالمنهج الذى تتبعه لوموند ، واعيةً دون شك ، فى محاولة تغطية أنباء العالم كله . فإذا كانت نيويورك تايمز تهتدى أساساً ، فيما يبدو ، بالأزمات الطارئة وبما

هو جدير باعتباره من "الأنباء"، فإن لوموند تحاول توثيق معظم ما يحدث في الخارج أو الإشارة إليه على الأقل . ولا ينفصل الرأي فيها عن الحقائق بنفس الدرجة من الصرامة التي ينفصلان بها عن بعضهما البعض ، فيما يبدو (ولو اقتصر ذلك على الانفصال الشكلي) في صحيفة التايمز، ومن نتيجة ذلك أنه عندما تعرض موضوعات صحفية أو قضايا تتسم بتعقيد غير عادي ، نجد في لوموند قدرًا أكبر من المرونة ، سواء كان ذلك في الطول أو التفاصيل أو العمق في التحقيق الصحفي . والحق أن لوموند توحى في أنبائها الصحفية بالحنكة بشئون العالم ، وأما التايمز فتوحى بالاهتمام الرزين الوقور ، والانتقائي إلى حد ما . ولننظر الآن فيما كتبه رولو يومي ٢ و ٣ ديسمبر ١٩٧٩ .

يبدأ رولو بالإشارة إلى الاهتمام بصورة غير عادية ، على مدى الشهور الثلاثة السابقة ، بالمناقشة حول الجمعية المكلفة بوضع الدستور ، إذ عقدت المئات من الاجتماعات العلنية ، نقل التلفزيون وقائع الكثير منها ، كما قامت الصحافة ، والصحف الحزبية ، بتحليل القضايا المطروحة ، واستغرق المشاركون وقتًا طويلاً في استنكار العناصر "المناهضة للديموقراطية" في نصّ الدستور المقترح . (وبالمناسبة ، لم تتعرض أجهزة الإعلام الأمريكية لأي شيء من هذا، تقريبًا) . ويعلق رولو ، بعد ذلك ، على الانشقاق ، الذي يعد من المفارقات ، بين الخوميني وبين جانب كبير من الطبقة السياسية في البلد ، ثم يمضي في تحليله

فبين بأقصى درجة من التفصيل كيف استطاع الخوميني رغم ذلك تحقيق إرادته فوراً عن طريق اللجوء إلى المخاطرة بمخاطبة الشعب مباشرة بدلاً من المراوغة والمماطلة كسباً للوقت . وقد اقتضى ذلك من رولو ، بطبيعة الحال ، تحليل المناظرة الجارية حول الدستور (قضاياها ، وأنصارها ، وأسلوبها) ثم القوى الحقيقية المشاركة فيها، محافظاً على وضوح الصدع الذي يفصل بين السلطة وبين الدستور . ونرى من عرضه للموضوع في النهاية أن الأنصار ”الإسلاميين“ للهوميني يمثلون طائفة غير متجانسة ، تتجمع وتفرق في شتى أنحاء البلد حسبما يقضى به وعي الخوميني المذهل بما يسمى ”الثورة الدائمة“ بمعنى القدرة الدائمة على التغيير ، وهي التي لا يستطيع التحكم فيها إلا الخوميني نفسه ، بما جبل عليه من طبيعة ”قانونية عسيرة الإرضاء“ ، وهذا في رأي رولو من المفارقات . وبعد أن يقدم رولو قائمة بشتى الأحزاب اليسارية واليمينية ، والاستشهاد ببعض المواقف التي اتخذها كل منها ، يضع رولو أصبعه على عدد من مظاهر التناقض في الدستور المقترح الذي يقول بأن المرأة يجب ألا تكون مجرد مصدر للمتعة الجنسية أو الربح الاقتصادي ، وإن كان لا يصرح بحقوق المرأة ؛ وهو يستنكر النقابات باعتبارها من اختراع الماركسيين ، لكنه ينص على أن مجالس العمال يجب أن تنهض بدور مهم في الحياة الاقتصادية ، ويقول إن جميع المواطنين متساوون في الحقوق، ولكن المذهب الشيعي هو الدين الرسمي للدولة ؛ وهلم جراً . ويؤدي هذا كله إلى الفقرة التالية :

مما لا غنى عنه للإمام الخوميني أن يصدر، دون إبطاء، هذا الدستور القادر على إثارة مناقشات لا تنتهى . لقد أشار عليه الكثيرون بإرجاء الاستفتاء حتى ينتهى اختبار القوة مع الولايات المتحدة ، وقيل له إن البلد الذى يمر بمرحلة انتقالية يستطيع التكيف بسهولة مع نظام حكم انتقالي يستمر فترة طويلة ، ولكن الخوميني أزاح عن طريقه جميع المشورات والاعتراضات المقدمة إليه .

ومن المفارقات أن يبدو ذلك الشيخ الوقور المقيم فى بلدة قُمّ ذا طبيعة قانونية عسيرة الارضاء ، لمن لا يعرفونه خير المعرفة . فهو يصصر على إرساء صرح سلطته على أسس قانونية ، وأرضاء بصورة مباشرة ما اكتسبه من شعبية هائلة فى الأسابيع القليلة الماضية . وأما أى تغيير فى هذه الشعبية فى المستقبل، فسوف يقل دور النص الدستورى فى إحداثه عن دور توازن القوى السياسية الذى سوف تفرزه "الثورة الثانية" التى تجرى حالياً .

إن رولو لا يحاول هنا إصدار أحكام صريحة على شىء (قارن ذلك بالتحليل السطحي الذى نشره دون شانش فى لوس أنجيليس تايمز ، وسبقت الإشارة إليه) ولكنه يبين فحسب نقاط الانفصال بين المظهر وبين القوة ، وبين النص وبين القراء ، وبين الشخصيات وبين الأحزاب ، إذ يضعها جميعاً فى مواضعها الصحيحة من سياقها ، وهو فى جوهره فيضٌ دفاقٌ مضطرب .

وأما الذى يحاول توصيله للقارئ فهو الإحساس إلى حد ما لا بالتحولات الجارية فحسب بل أيضاً بنقاط التركيز والتنازع داخل هذه التحولات. وأقصى ما يفعله رولو هو تقديم تقدير للموقف يتسم بالحرص والحذر. إنه لا يلجأ مطلقاً إلى المقارنات القائمة على الحماس الوطنى ولا إلى إصدار أحكام القيمة التى تنم عن الجهل.

وإن شئنا إجمال القول قلنا إن ما كتبه رولو لصحيفة لوموند مقال سياسى بأفضل معنى من معانى الكلمة. وأما ما نشرته أجهزة الإعلام الأمريكية فلم يكن كذلك على امتداد شهور عديدة، أو قل إنه كان سياسياً بالمعنى السيئ. فكل ما بدا غير مألوف أو كان غريباً على الصحفيين الأمريكين (والغربيين الآخرين) وصمموه بأنه "إسلامى" وعاملوه بقدر 'مناسب' من العداء والسخرية. فلم تنجح إيران، باعتبارها مجتمعاً معاصراً يمر بتغيير غير عادى ومهم فى إحداث تأثير يذكر فى الصحافة الغربية بصفة عامة، والمؤكد أن هذه الصحافة نادراً ما كانت تسمح لتاريخ إيران بأن يظهر، فى العام الأول لقيام الثورة على الأقل، بدرجة كبيرة من الصحة، بل طغى بوضوح وجلاء استعمال القوالب الجاهزة، والكاريكاتيرات اللفظية، وتبدى الجهل والتعصب العرقى وعدم الدقة بصورة مفرطة، إلى جانب ما يكاد يكون خضوعاً كاملاً للأطروحة الحكومية التى تقول إن أهم ما يعنينا الآن هو "عدم الاستسلام للابتزاز" وما إذا كان الرهائن سوف يُطلق سراحهم أم لا. كان الصحفيون يتهورون فى

التوصل إلى نتائجهم وفي حسم مصير صراع لا يزال دائراً ، وكان من نتيجة ذلك عدم تبيان العناصر المميزة للحياة الثورية الإيرانية على الإطلاق ، وهى العناصر التى قد تؤدى إلى استمرارها أو انقطاعها ، وقد صاحب ذلك افتراض مقلق ، وهو أنه إذا كانت الولايات المتحدة قد غفرت للشاه السابق وأعلنت أنه حالة إنسانية وجدير بالإحسان إليه ، فلا يهتمها ما يقوله الإيرانيون (أو التاريخ الإيراني نفسه) . وفى أثناء هذه الفترة أبدى أ. ف. ستون من الشجاعة ما جعله يقول بصراحة إن ضرورة اعتذار الولايات المتحدة لإيران ”عن قيامنا بإعادة الشاه إلى العرش فى عام ١٩٥٣ . . . ليست تاريخاً قديماً للإيرانيين ، وقد لا تمثل لنا نحن أيضاً تاريخاً قديماً“ (فيليدج فويس ، ٢٥ فبراير ١٩٨٠) .

كان تناول أجهزة الإعلام لآباء ’الإسلام‘ وإيران فى عام ١٩٧٩ يتسم بدرجة بالغة من الضعف والروح العدائية ، حتى إننا لنظن أن ذلك قد أضعف علينا عدداً من الفرص السانحة لحل أزمة الرهائن ، وربما كان ذلك هو السبب الذى حدا بالحكومة الإيرانية فى عام ١٩٨٠ إلى أن تقول إن تقليل عدد الصحفيين فى إيران قد يؤدى إلى تهدة التوتر ويؤدى إلى الحل السلمى . وأما ما يعتبر أخطر نتائج فشل أجهزة الإعلام ، وما لا يبشر بالخير للمستقبل ، فهو أن هذه الأجهزة لا ترى (بالسهولة وبالثقة اللازمين) أنها تؤدى مهمة إعلامية حقيقية ومستقلة فيما يتعلق بالقضايا الدولية العاجلة وأثناء فترة تأزم حاد . ويبدو أن أجهزة الإعلام لا تكاد تعي أنها

تستطيع ، دون أن يلحقها الضرر ، تصوير الحقبة الجديدة التي ندخلها في الثمانينيات في صورة المواجهة بين الثنائيات - ”نحن“ في مقابل ”هم“ ، والولايات المتحدة في مقابل الاتحاد السوفيتي ، والغرب في مقابل الإسلام ، مع انحياز هذه الأجهزة دائماً إلى جانب ”الأخيار“ ، إلا إذا وصلنا إلى حيث نعتقد أنه من المحتوم أن تشترك الدولتان العظميان معاً في تدمير العالم .

ومع ذلك فالإنصاف يدعونا إلى رصد التغيرات التي تتعرض لها أجهزة الإعلام مع مرور الوقت على أزمة الرهائن في عام ١٩٨٠ . فلقد شهدنا ازدياد التعمق في فحص دور الولايات المتحدة في إيران ، إذ خصصت محطة إذاعة كولمبيا جانباً كبيراً من حلقتين من حلقات برنامجها ”ستون دقيقة“ للحديث عن التعذيب أيام حكم الشاه ، وللأحاييل التي قام بها هنري كيسنجر لحساب الشاه . وأدت صحيفتا نيويورك تايمز وواشنطن بوست واجبهما فأشارتا إلى الجهود التي بذلتها الحكومة لمنع إذاعة المحطة لذلك التحقيق (في ٧ مارس و٦ مارس على الترتيب) وكذلك ، وعلى نحو ما كان متوقعاً ، نشرت جميع الصحف الكبرى موضوعات تعرب فيها عن استيائها وتشكيكها في الحكمة من القيام بمحاولة الإنقاذ الفاشلة في أواخر إبريل . واتسع نطاق اتفاق الآراء بما ينم عن زيادة استعداد أجهزة الإعلام بصورة غير مسبقة للإقرار بإمكان اختلاف الرأي حول إيران . وازداد انتقادها لموقف الحكومة المتسم بالمماحكة والمماطلة مثلما ازداد الوعي لدى القراء

(والذى تعبر عنه أبواب 'بريد القراء' فى الصحف) بأن أجهزة الإعلام لا تقول لنا الحقيقة الكاملة عن إيران . ومع ذلك فلقد استمر العداء للإسلام واستمر سوء فهمه (وهو المتوقع) بزعماء الصحف المحافظة مثل نيو ريبيك إذ نشرت فى عددها الصادر فى ٧ يونيو ١٩٨٠ : مقالاً بقلم إيلي قدورى بعنوان "الغرب يذعن" يقول فيه إن على الغرب أن "يبرز صورته ويفرض احترامه" وإلا استمرت الفوضى التى تضرب أطنابها فى العالم . وكنا نشعر بين الفينة والفينة باتفاق الآراء الذى يفتّ فى العضد ، على نحو ما حدث عندما عاد رامزى كلارك من مؤتمر "جرائم أمريكا" فى طهران ، وظهر فى التلفزيون فى برنامج "قضايا وإجابات" يوم ٨ يونيو ١٩٨٠ ، وهو البرنامج الذى تذيّعه محطة إيه بى سى ، إذ لم يسمح الذين أجروا المقابلة معه لأنفسهم بتوجيه سؤال واحد يتطلب الإيضاح الحقيقى لموقفه بل كانت جميع أسئلتهم تنضح بالعداء العميق ، وتفصح عن الانصياع دون تردد لموقف الإدارة الأمريكية الذى يقول إن كلارك قد ارتكب بذهابه إلى طهران خيانة لوطنه^(١٥) .

لكننا كنا نصادف من وقت لآخر مواقف مختلفة ، مثل المقالات الأربعة التى كتبها جون كفنر فى صحيفة نيويورك تايمز ، فى ٣٩ و ٣٠ و ٣١ مايو وأول يونيو ١٩٨٠ ، وهى سلسلة يتناول فيها الثورة الإيرانية بذكاء ، أو مثل المقال الذى كتبه شول بخش عن الثورة الإيرانية فى مجلة نيويورك لمراجعة الكتب (٢٦)

يونيو ١٩٨٠) إذ وجدنا ما ينم عن الجهد المبذول في التأمل والتصدي لحقيقة الثورة المستمرة والتي لا يمكن تفهم حقيقتها بألفاظ نظرية مبسطة أو من حيث دلالاتها العملية الصرفة . ومع ذلك فإنني أعتقد أن هذه المقالات ما كانت لتكتب لو أن الرهائن قد أُطلق سراحهم فعلاً . أى إن احتلال السفارة - ذلك الحادث اللا أخلاقي ، وغير القانوني ، والبشع ، والذي تقتصر فائدته السياسية لإيران على الأجل القصير ويؤدي إلى تبديد الجهود في الأجل الطويل - قد فرض أزمة وعى ، دون مبالغة ، في الولايات المتحدة . فبعد أن كانت إيران مستعمرة آسيوية لا يكاد يذكرها أو يكثر لها أحد ، أصبحت بين الحين والحين 'مناسبة' لمحاسبة النفس من جانب الولايات المتحدة . أى إن قصة إيران قد أدت - بسبب إلحاحها نفسه ، وطولها الزمنى القبيح والمثير للقلق - إلى تغيير تدريجي في موقف أجهزة الإعلام ، فبعد أن كان يتسم بالتركيز الضيق الذي لا يحيد ولا يتحول عن هدفه ، أصبح يتميز بالمزيد من النقد ويعود بالمزيد من الفائدة . ونستطيع أن نقول بإيجاز إن احتلال السفارة قد أحلّ الحركة الدينامية محلّ الغضب الثابت الساكن ، وقد اكتسبت هذه الحركة الدينامية على مر الأيام تاريخاً خاصاً بها ، ومن خلاله اكتشفت أجهزة الإعلام جوانب في ذواتها لم تكن تدري بها (وكذلك الأمريكيون بصفة عامة) . وأما إذا كان هذا ما قصد إليه المتمردون أصلاً ، أو كان سبباً في تأخير عودة الأحوال العادية بدلاً من حفزها ، فلم يحن الوقت بعد

للقطع فيه . ولا شك أنه قد ازداد عدد الأمريكيين الذين يفهمون الآن معنى الصراع على السلطة (من ذا الذى لم يدرك الصراع بين بنى صدر وبهشتى ، وشبح الخومينى يكمن خلفهما فى غموض وإيهام ؟) ولا شك أيضاً أنه قد ازداد عدد الأمريكيين الذين أصبحوا يدركون أنه من العبث محاولة فرض نظامنا "نحن" على تلك الفورة العارمة ، أو ، فى هذا الصدد أيضاً ، على المعركة الدائرة بين العراق وإيران . ولا تزال أسئلة كثيرة فى انتظار الإجابة عليها ، مثل ظروف سطوع نجم بهشتى ، وأنماط الصراع بين اليسار واليمين ، وحالة الاقتصاد الإيرانى - وقد يسفر ذلك كله عن شتى النتائج فى القريب العاجل^(١٦) .

وأما السؤال الذى لم يستكشف أحد أبعاده ، فهو السؤال الذى يكمن خلف الأزمة ، والذى يجب علينا الآن أن نحاول التعرض له ، ألا وهو : ما أهمية إيران ، وما أهمية الإسلام ، وما هو نوع المعرفة أو التغطية التى نحتاجها لهذا وذاك ؟ ليس هذا السؤال الثلاثى من قبيل الأسئلة التجريدية . ولا يجب أن نعتبره فحسب جزءاً لا يتجزأ من السياسة المعاصرة ، بل هو جانب حيوى أيضاً من جهود البحث الأكاديمى وجهود التفسير التى تتطلب المعرفة بالثقافات الأخرى . لكننا إذا لم نلق نظرة ترفع أستار الغموض عن العلاقة بين السلطة والمعرفة فى هذا السياق ، فسوف نكون قد تهرّبنا من مواجهة جوهر القضية . وينبغى أن يكون ذلك ما يحدد مسار بحثنا من الآن فصاعداً .

الفصل

الثالث

3

المعرفة

والسلطة

أولاً: المبادئ السياسية لتفسير الإسلام :

المعرفة الصحيحة والمعرفة المضادة :

فى ظل الظروف الراهنة ، حيث لا يعيش ” الإسلام “ فى سلام مع ” الغرب “ ولا يعيش ” الغرب “ فى سلام معه ، بل ولا يعيش كل منهما فى سلام مع ذاته ، قد يبدو من العبث المبالغ فيه أن نتساءل عما إذا كان أبناء ثقافة معينة يستطيعون أن يحيطوا حقاً بمعرفة الثقافات الأخرى . إن علينا أن نطلب العلم ولو فى الصين ، كما يقضى بذلك أحد الأقوال المأثورة الذائعة فى الإسلام ، كما اعتاد الناس فى الغرب ، على الأقل منذ العهود اليونانية القديمة ، أن يقولوا بوجوب طلب المعرفة ، ما دامت تلك المعرفة تتعلق بما هو إنسانى وطبيعى . ولكنه كان من المعتقد فى العادة ، فى حدود ما انتهى إليه المفكرون الغربيون ، أن نتيجة هذا

الطلب أو البحث كانت فى الواقع ناقصة معينة . بل إن فرانسيس
 سيكون نفسه ، مؤلف كتاب تقدم المعرفة الذى يعد البادرة التى
 انطلق منها الفكر الغربى الحديث بأكثر طرائقه حماساً وحفزاً
 ذاتياً، يعبر فى الواقع عن شتى الشكوك فى إمكان إزالة العوائق
 المختلفة (تخطيم الأصنام) التى تحول دون المعرفة . وأما فيكو ،
 تلميذ سيكون الذى كان يجعل أستاذه ، فيقول صراحةً إن المعرفة
 البشرية لا تزيد عما أتى به البشر ، ومن ثم فالواقع الخارجى لا
 يزيد عن كونه ”صوراً معدلة للعقل البشرى“^(١) ويزداد تضاًؤل
 احتمالات المعرفة الموضوعية بما هو بعيدٌ وأجنبىٌ تضاًؤلأ أشدَّ بعد
 نيتشه .

وفى مقابل تيار الشك والتشاؤم المذكور ، نجد أن دارسى
 الإسلام فى الغرب (ودارسى الغرب داخل العالم الإسلامى ، ولو

أننى لن أعرض فى مناقشتى لهم) ميلون إلى التفاؤل وإبداء الثقة التى تشير القلق . كان أوائل المستشرقين المحدثين فى أوروبا لا يخامرهم ، فيما يبدو ، شك يذكر فى أن دراسة الشرق ، والعالم الإسلامى جزء منه ، هى السبيل الأعظم للمعرفة العالمية . وقد كتب أحدهم ، وهو البارون دكشتاين ، فى العشرينيات من القرن التاسع عشر يقول إنه :

مثلما اكتشف كوفييه وهمبولت أسرار تنظيم {الطبيعة} فى أحشاء الأرض، سوف يقوم إيل رموسات، وسانت مارتن ، وسلفستر دى ساسى، وجريم ، وبوب ، وأ.ف. شليجل بمتابعة واكتشاف التنظيم الداخلى للفكر البشرى وأسسهِ البدائية فى إحدى اللغات^(٢) .

وبعد سنوات معدودة كتب إرنست رينان تصديراً لمناقشته لموضوع ”محمد وأصول الإسلام الأولى“ بملاحظات عن الآفاق التى تفتتح أمام ما أسماه ”علم النقد“ . وقال رينان إن علماء الجيولوجيا والتاريخ واللغة يستطيعون التوصل إلى معرفة الأشياء الطبيعية ”البدائية“ - ويعنى بها الأساسية والأصلية - عن طريق فحص آثارها بدقة وصبر ، وإن الإسلام ظاهرة ذات قيمة كبيرة لأن مولده كان قريب العهد نسبياً ولا أصالة له . وانتهى رينان من ذلك إلى القول بأن دراسة الإسلام دراسة لموضوع يستطيع المرء أن يصل المرء فيه إلى معرفة يقينية وعلمية^(٣) .

وربما يكون هذا الموقف ' المناسب ' هو ما جعل تاريخ الاستشراق الإسلامى يخلو نسيباً من تيارات الشك ، ويكاد يخلو تماماً من مساءلة الباحث لنفسه عن منهجه . ولم يخامر معظم دارسى الإسلام فى الغرب أى شك فى إمكان الإحاطة بالمعرفة الموضوعية الحققة عن الإسلام ، أو عن جانب من جوانب الحياة الإسلامية ، على الرغم من القيود التى تفرضها حدود الزمان والمكان . ولكننا لن نجد عددًا كبيراً من الباحثين المحدثين الذين يشاركون رينان غطرسه الصريحة فى آرائهم عن ماهية الإسلام ، فلن نجد باحثاً محترفاً مثلاً يقول مثل رينان إننا نستطيع أن نعرف الإسلام لأنه يمثل نموذجاً أساسياً من نماذج توقف النمو والتطور الإنسانى ، لكننى لم أستطع العثور على أى مثال معاصر للباحث الإسلامى الذى يرى فى البحث نفسه مصدراً للشك . وأظن أن السبب يرجع أيضاً ، إلى حد ما ، إلى تقاليد العاملين بالدراسات الإسلامية ، وهى التى يتوارثونها جيلاً بعد جيل منذ قرنين تقريباً ، فهى تحمى الباحثين الأفراد وتؤكد لهم صحة ما ينتهون إليه ، بغض النظر عن الأخطار المنهجية والتجديدات المنهجية التى تتحدى الباحثين فى معظم مجالات العلوم الإنسانية الأخرى .

ومن النماذج التى تمثل ما أعنيه مقال نشر منذ عهد قريب بعنوان "الوضع الحالى لدراسات الشرق الأوسط" فى عدد صيف ١٩٧٩ من مجلة الباحث الأمريكى ، وكاتبه باحث بريطانى شهير فى الدراسات الإسلامية ، وهو يقيم حالياً ويعمل فى الولايات

المتحدة . والمقال بصفة عامة ينم عن الكسل الذهني إذ لا يتعرض إلا لما اعتدناه وبأسلوب لا طرافة فيه ، ولكن به ما يستوقف غير المتخصص ، إلى جانب لا مبالاة الكاتب بصورة تدعو للدهشة بالقضايا الفكرية ، ألا وهو ما يرويه عما يفترض أنه جذور شجرة النسب الثقافي للاستشراق ، وهو جدير بأن نستشهد بجانب مطول منه :

أتى عصر النهضة الأوروبية بمرحلة جديدة كل الجدة في تطور الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط في العالم الغربي . وربما كان أهم عامل هو حب الاستطلاع الفكري الذي لا يزال فريداً في تاريخ البشرية . فحتى ذلك العصر لم يخامر أحداً إحساسٌ مماثلٌ ولم يذل أحد جهداً مماثلاً لدراسة وتفهم الحضارات الأجنبية بل تلك التي هي أقلّ عداءً لنا . فلقد حاولت مجتمعات كثيرة دراسة أسلافها ، أي من تحسُّ بأنها تدين لهم بدينٍ ما ، أو من ترى أنها مستقاة منهم . كما إن المجتمعات الخاضعة لسيطرة ثقافة أجنبية أقوى من ثقافتها قد اضطرت ، . سواء كان ذلك قسراً أو طواعية ، إلى دراسة لغة من يسيطرون عليها ومحاولة فهمهم . أي إن المجتمعات ، باختصار ، قد درست ساداتها ، بكلا المعنيين لهذه الكلمة ولكن نوع الجهد الذي بذلته أوروبا (وينات أوروبا فيما وراء البحار في وقت لاحق) لدراسة الثقافات النائية والأجنبية ،

ابتداء من عصر النهضة الأوروبية يمثل شيئاً جديداً ومختلفاً كل الاختلاف . ومما له دلالة أن شعوب الشرق الأوسط لا تبدى اليوم اهتماماً يذكر ببعضها البعض، بل هي أقل اهتماماً بالثقافات غير الإسلامية في آسيا وإفريقيا . وأما المحاولات الجادة لدراسة لغات وحضارات الهند والصين في الشرق الأوسط فتقتصر على جامعات تركيا وإسرائيل - وهما البلدان الوحيدان في المنطقة اللذان اختارا عن عمد أسلوب الحياة الغربية .

ولا تزال الحضارات غير الأوروبية تواجه أكبر صعوبة في تفهم حب الاستطلاع الفكري من هذا النوع . وعندما بدأ أوائل علماء الآثار المصرية الأوروبيون حفرياتهم في الشرق الأوسط ، وجد الكثير من أبناء البلد أنه من المحال عليهم تصديق استعداد الأجانب لبذل مثل هذا القدر الكبير من الجهد والوقت والمال والتعرض لمثل هذه الأخطار والمشاق الكثيرة في التنقيب والكشف عما خلفه أسلافهم القدماء المنسيون وفك رموز آثارهم . ومن ثم سعوا إلى تفسيرات أخرى أقرب إلى العقل ، فكان القرويون البسطاء يرون أن علماء الآثار يبحثون عن الكنوز الدفينة ، وأما المتعلمون من سكان المدن فقالوا إنهم إما جواسيس أو عملاء يخدمون حكوماتهم بسبل أخرى . ولم يكن نجاح بعض علماء الآثار فعلياً في إسداء مثل هذه الخدمات إلى

حكوماتهم يعنى أن مثل هذا التفسير لعلمهم أقل خطأ ، بل هو يكشف عن عجز محزن عن تفهم عمل أضاف فصولاً جديدة إلى تاريخ البشرية وأبعاداً جديدة إلى وعى أمم الشرق الأوسط بذواتها . وصعوبة الإدراك المذكورة لا تزال قائمة حتى اليوم بل إنها قد أصابت بعض الأكاديميين الذين يصرون على أن المستشرقين إما باحثون عن الكنوز أو عملاء للإمبريالية .

وكان إرضاء حب الاستطلاع الفكرى الجديد الذى أشرنا إليه قد استفاد كثيراً من الرحلات الاستكشافية التى قام بها الأوروبيون إلى الأراضى الجديدة الغربية فيما وراء المحيط . إذ إن هذه قد ساعدت على تحطيم بعض القوالب الفكرية وكانت بمثابة حافز وفرصة لإجراء المزيد من الدراسة^(١) .

إن هذه الكتابة تتوسل بما لا يكاد يتجاوز بعض المزاعم التى لا تدعمها الأدلة ، والتى تتناقض تناقضاً مباشراً مع كل ما كتب حتى الآن ، سواء كان ذلك ما كتبه عدد كبير من المستشرقين أنفسهم أو مؤرخو أوروبا من عصر النهضة إلى الوقت الحاضر ، أو دارسو تاريخ التفسير من القديس أوغسطينوس حتى الآن . وحتى لو نَحْنُ جانباً ما يقوله عن حب الاستطلاع الفكرى الذى يصفه بأنه ”جديد ومختلف كل الاختلاف“ ومن ثم (نفترض) أنه حب استطلاع فكرى خالص - وهو ما لم يسعد الحظ أى إنسان

آخر حاول قراءة نص وتفسيره بامتلاكه - فلسوف نجد في كلامه الكثير مما لا يقبل إلا بافتراض حُسن النية . فإن قراءة ما كتبه بعض مؤرخي الثقافة والاستعمار ، مثل دونالد لوك أو ج. هـ. بارى تجعلنا ننتهي إلى أن الاهتمام الأوروبي بالثقافات الأجنبية كان يستند إلى التلاقى الفعلى مع تلك الثقافات ، وعادة ما كان ذلك نتيجة للتجارة ، أو للغزو أو للمصادفة^(٥) . "فلاهتمام" ينبع من الحاجة ، والحاجة تستند إلى عوامل تستثيرها دوافع عملية تعمل وتعيش مع بعضها البعض - مثل الخوف ، والشهية ، وحب الاستطلاع ، وما إلى ذلك بسبيل - وهى التى دائماً ما كانت تمارس تأثيرها حيثما وأينما يعيش البشر .

وإلى جانب هذا ، كيف يتأتى للإنسان تفسير ثقافة أخرى إلا إذا نشأت وتوافرت الظروف التى تتيح إمكان هذا التفسير أصلاً ؟ أما فيما يتعلق بالاهتمام الأوروبي بالثقافات الأجنبية ، فلقد كانت هذه الظروف دائماً تجارية أو استعمارية أو ناجمة عن التوسع الحربى ، والغزو ، وبناء الامبراطوريات . وحتى حين قام الباحثون المستشرقون فى الجامعات الألمانية ، فى القرن التاسع عشر ، بدراسة اللغة السنسكريتية ، وتقنين الحديث النبوى ، أو إيضاح نظام الخلافة الإسلامية ، فإنهم كانوا يعتمدون على الجامعات نفسها ، أى على المكتبات وغيرهم من الباحثين والفوائد الاجتماعية التى أتاحت لهم احتراف هذا العمل ، أكثر من اعتمادهم على الوهم المسمى حب الاستطلاع الخالص . وأما

القول بأن الدافع على بناء وامتلاك امبراطوريات أوروبية هائلة ، واكتساب المعارف المرتبطة بها ، كان بصفة أساسية إشباع حب الاستطلاع الفكرى فلا يمكن أن يصدر إلا عن شخصية من الشخصيات الروائية الخيالية ، مثل الدكتور بانجلوس فى رواية كانديد للكاتب الفرنسى فولتير ، أو مثل أعضاء 'أكاديمية المفكرين' فى مدينة لاجادو الخيالية فى رواية رحلات جاليفر التى أبدعها جوناثان سويت . ولا غرو إذن إذا كان أبناء البلاد غير الأوروبية "الجهّال" قد نظروا بمثل هذه الرؤية إلى "حب الاستطلاع الفكرى" لدى الباحثين ، إذ متى أقام باحث غربى فى بلد غير غربى إلا بفضل السيطرة الغربية على ذلك البلد ، مهما تكن رمزية وغير مباشرة^(٦) ؟ ومن الأدلة على ما يتسم به هذا المستشرق من جهل غريب وغرور أنه ، فيما يبدو ، لا يدرى شيئاً عن المناظرة المحتدمة حالياً فى مجال علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) حول التواطؤ بين الإمبريالية وعلم وصف الشعوب (الأنثوغرافيا) ، بل إن ليفى شتراوس نفسه ، ذلك الرائد الفكرى المرموق ، قد أعرب عن مخاوفه من أن تكون الامبريالية من الجوانب الأساسية للعمل الميدانى فى علم الأجناس البشرية (الاثنولوجيا) وإن لم يعرب عن أسفه لذلك .

فإذا استبعدنا دون تردد ما قاله الكاتب عن حب الاستطلاع الخالص ، فلا بد أن تنتهى ، أيضاً ، فى اعتقادى ، إلى أن الحُجّة التى يسوقها ، برمتها ، بشأن دراسات الشرق الأوسط ليست فى

الواقع إلا دفاعاً عن قدرتها التي يعيها شيء في جوهرها - تاريخياً وثقافياً - على أن تصدق فيما تقوله لنا بشأن المجتمعات النائية الأجنبية . وهو يفصل القول فيما بعد ، وفي المقالة نفسها ، عن هذه المسألة حين يشير إلى الأخطار الكامنة في ”إضفاء الطابع السياسى“ على هذا المجال ، وهو ما يزعم أنه لم يستطع تجنبه إلا عدد محدود من الباحثين والأقسام العلمية . ويبدو لى أن السياسة هنا مرتبطة بالتحيز والتعصب الضيق ، كأنما كان الباحث الحقيقى فوق المشاجرات حول التوافه ، لا تشغله إلا الأفكار ، والقيم الخالدة والمبادئ العليا ؛ ومما له دلالة أنه لا يأتينا بشواهد على ذلك . والطريف فى هذه المقالة كلها هو أنها ، مع ذلك ، لا تدعو إلى العلم والإجراءات العلمية إلا بالاسم فقط ، وأما حين يعرض الكاتب لحقيقة دراسات الشرق الأوسط غير السياسية أو ما ينبغى أن تكون عليه ، فهو لا يقول شيئاً . أو بعبارة أخرى ، يقول إن ما يُعتد به حقاً هو ما يتخذه الباحثون من مواقف ، أو ما يتصنعونه منها ، وما يقولونه من ألفاظ رثانة ، أو باختصار ما لديهم من أيديولوجيات . أما المضمون فالكاتب لا يصرح به ، بل إننا نكتشف ما هو أسوأ ، ألا وهو أنه يحاول عامداً إخفاء الروابط القائمة بين البحث العلمى وبين ما يمكننا أن نسميه الإقبال على الدنيا والولع بها ، وذلك حتى يواصل إيهامنا بما يأتى به البحث من حقيقة بريئة من الهوى ، ومن التعصب ومن السياسة . ونحن نكتشف فى هذا حقائق عن المؤلف أكثر مما نكتشفه عن

المجال الذى يُفترض أنه يكتب عنه ، وهى مفارقة تنسم بها كل المحاولات الأوروبية أو الغربية الحديثة للكتابة عن المجتمعات غير الغربية . ولم يكن جميع الباحثين الآخرين واعين بهذه الصعوبة . ففى عام ١٩٧٣ قامت رابطة دراسات الشرق الأوسط ، بالتعاون مع مؤسسة فورد ، بتكليف فريق من الخبراء بإجراء مسح للمجال كله ، بهدف تقييم حالته الراهنة ، واحتياجاته وآفاقه ومشكلاته^(٧) . وكانت النتيجة مجلداً ضخماً حافلاً زاحراً عنوانه : دراسة الشرق الأوسط : البحث والتخصص فى الإنسانىات والعلوم الاجتماعية ، وكان محرره هو لينارد بايندر ، ونشر فى عام ١٩٧٦ . ولما كان الكتاب عملاً جماعياً فقد اتسم بالتفاوت المحتوم فى مستواه ، ولكن القارئ يستوقفه ذلك الإيحاء العام فى شتى مباحثه بالأزمة والعجلة ، وهو ما لا نجده على الإطلاق فى المقالة المنشورة فى مجلة الباحث الأمريكى المذكورة . إذ إن هذه المجموعة من الباحثين الأمريكيين الذين لا يقلون امتيازاً عن نظيرهم البريطانى ، ترى أن 'دراسات الشرق الأوسط' مجال محاصر يمر بضائقة ، إذ لا يحظى بالاهتمام الكافى ، ولا بما يكفى من المال ولا من الباحثين . (ومن المفارقات أن أحد أعضاء لجنة البحث والتدريب فى الرابطة المشار إليها ، وهى التى وضعت التصور الأول للدراسة ، كان قد كتب دراسة عن مجال دراسات الشرق الأوسط بتكليف من الحكومة الأمريكية ، قبل ذلك بسنوات معدودة ، ينتقص فيها من الحاجة إلى الدراسات المتخصصة للإسلام أو للعرب ، قائلاً إن هذا المجال لا يمثل إلا

أهمية ثانوية، من الزاويتين الثقافية والسياسية للولايات المتحدة^(٨) . ولننظر إلى المشكلة التي تكمن خلف جميع المشكلات التي يشير إليها الباحثون المشار إليهم ، وهي التي يعالجها المحرر لينارد بايندر بصراحة في مقدمته للكتاب .

وأول جملة في المقدمة المذكورة هي : ”كان الدافع الأساسي ، ولا يزال ، وراء تنمية وتطوير دراسات مناطق العالم المختلفة في الولايات المتحدة ، دافعاً سياسياً“^(٩) . وينطلق بايندر بعد ذلك إلى استعراض جميع القضايا التنظيمية والفلسفية التي تواجه المتخصص الحديث في الشرق الأوسط ، دون أن يغفل ولو للحظة عن الحقيقة - وهي حقيقة واقعة - التي تقول إن دراسات الشرق الأوسط تعتبر جزءاً من المجتمع الذي تجرى فيه ، إن صح هذا التعبير . وفي نهاية المسح الذي يجريه ، وبعد أن يقول بصراحة إن جميع المسائل الأساسية المطروحة بشأن هذا المجال ، حتى أولها وأبسطها ، لا تخلو من أحكام القيمة -- مثل التساؤل عما إذا كان علينا أن نبدأ بدراسة الهياكل الاجتماعية أو بدراسة الدين ، أو مثل المفاضلة في الأهمية للباحث بين الهياكل السياسية وبين معدلات دخل الفرد - وبعد أن يقول أيضاً إنه ، حتى إذا ”كانت التوجهات المبنية على القيمة في دراسات الشرق الأوسط أدق على الفهم في معظم الأحيان من منظورات المعلومات الحكومية“ يقول ”إن المشكلة لا يمكن تجنبها“^(١٠) . ويحاول بايندر في آخر المقدمة تلخيص تأثير السياسة في مدى صدق ما ينتهي إليه الدارسون الغربيون للثقافات الأجنبية .

إنه لا يتردد في التسليم بأن لكل باحث "توجهات تحكمها القيمة" وبأنها تؤثر في نتائج بحوثه ، ولكنه يستدرك قائلاً "إن التوجهات المعيارية للمباحث العلمية" تقلل من آثار الانحراف الذي تأتي به "الأحكام الخاصة" الشخصية . ولا يشرح لنا بايندر أساليب أداء "المباحث العلمية" بل ولا يحدد لنا ما تتسم به تلك "المباحث" من طاقات قادرة على تحويل الأحكام البشرية إلى تحليلات رائعة مهيبة . وكأنما كان يريد معالجة هذه المسائل بصورة ما فأضاف عبارة في آخر حجته تتسم بغموض لا ضرورة له ولا تمثل أى استمرار لما جاء قبلها ، إذ يقول إن المباحث العلمية "تقدم لنا أيضاً المناهج اللازمة لاستكشاف القضايا الأخلاقية التي تنشأ في سياق مجال البحث" . أية قضايا أخلاقية ؟ أى مناهج ؟ أى سياق لأى مجالات ؟ لا نجد لديه الشرح . ولكن النتيجة التي يتوصل إليها تكتسى مظهر الجدّة المحيرة المربكة ، إلى الحد الذي يبيث في نفسك الثقة في هذه "المباحث العلمية" ، وهو ما يدفعك إلى الاطمئنان دون أن يشرح لك على الإطلاق ما تدور حوله هذه "المباحث العلمية" .

بل إنه حتى حين يعترف كاتب من الكتاب بما للضغوط السياسية الفظة من تأثير في دراسات الشرق الأوسط ، فإنه يميل إلى إخفاء هذه الضغوط فكأنما تبخرت في الهواء ، ومن ثم إلى إعادة السلطة 'المعتمدة' لما يسمى 'الخطاب الاستشراقي' . ولا بأس من تكرار ما قلناه من أن السلطة تنبع من القوة الكامنة في

الثقافة الغربية والتي تسمح لدارسى الشرق أو الإسلام بأن يقولوا أقوالاً عن الإسلام وعن الشرق ظلت سنوات عديدة لا تقبل الطعن فيها تقريباً . فمن سوى المستشرقين قد تحدث ولا يزال يتحدث باسم الشرق ؟ ولم يكن يخالج المستشرق فى القرن التاسع عشر ، أو باحث القرن العشرين ، مثل لينار بايندر ، أى شك فى قدرة "مجال الدراسة" - ولاحظ أنه لا يقول الشرق نفسه أو شعوبه - على تزويد الثقافة الغربية بكل ما تحتاج إلى معرفته عن الشرق ، وهكذا ، فإن كل من يستطيع استعمال لغة ذلك المبحث العلمى ، ونشر مفاهيمه ، وإجادة تطبيق أساليبه ، وحيازة ما يؤهله له ، يستطيع أن يتجاوز التعصب والظروف الحاضرة ليصدر أحكاماً علمية . وهذا الإحساس بالاكتماء الذاتى ، والقدرة على التصحيح الذاتى ، و طاقة التركيز الذاتية ، هو الذى منح ولا يزال يمنح الاستشراق لغته الطنانة التى يستعملها دون حرج وباطمئنان بالغ . وبايندر يقول إن المباحث العلمية ، لا شعوب الشرق ، هى التى تحدد القضايا المعيارية بصفة عامة ، إذ إن هذه المباحث ، على حد قوله ، لا رغبات أهل المنطقة ولا أخلاقيات الحياة اليومية ، هى التى "تقدم لنا المناهج اللازمة" "ستكشف تلك القضايا الأخلاقية التى تنشأ فى سياق هذا المجال" .

وهكذا نرى ، من ناحية ، أن "المباحث العلمية" تعتبر هنا مؤسسات أكثر مما تعتبر أنشطة ، وأنها من ناحية أخرى تحدد تنظيم ووضع المعايير لما تدرسه (وهو ما أنشأته هى أيضاً من زاوية معينة)

بأيسر مما تحلل ذاتها أو تتأمل ما تفعل . والمحصلة التي نخرج بها من هذا ، إذا سمحنا لأنفسنا بترف الإطتاب ، يمكن أن يقال إنها المعرفة الكاملة بثقافة مختلفة . صحيح أن الغرب له منجزات هامة فى دراسة الإسلام ، فقد تولى تحقيق بعض النصوص ، وأضفى الدقة البالغة على بعض التوصيفات الوضعية للإسلام الكلاسيكى، وأما فيما يتعلق بالأبعاد الإنسانية للإسلام المعاصر ، أو بمحنة التعرض لجهود التفسير المتباينة ، فإن ”المباحث العلمية“ فى مجال دراسات الشرق الأوسط المعاصرة لم تقدم إيضاحات كبيرة لهذه أو تلك ولم تساعد أيا منهما .

لا يمكننا أن نقول إن دراسة الإسلام اليوم ”حرة“ أو ”بريئة“ فى أى جانب من جوانبها تقريباً ، أو إن الضغوط المعاصرة الملحة والعاجلة لا تحدد مسارها . وما أبعد هذا عن الموضوعية غير السياسية التى يصف بها الكثيرون من الباحثين فى مجال الاستشراق عملهم ، وهو يبتعد البعد نفسه تقريباً عن الحتمية الآلية التى يحاول بها الماديون السوقيون تفسير جميع الأنشطة الفكرية والثقافية ، قائلين إن القوى الاقتصادية هى التى تحدد مسارها وتحكم فيها مسبقاً ، وهو يبتعد البعد نفسه تقريباً عن الثقة ”المناسبة“ للمتخصصين الذين يولون إيمانهم الكامل للكفاءة الفنية ”للمباحث العلمية“ . وفى موقع ما بين هذه الأطراف المتباعدة تحقق ”مصالح“ المفسر ذاتها وتنعكس آثارها على الثقافة كلها بصفة عامة .

ولكننا نجد هنا درجة أقل من التنوع والحرية عما نحب أن نتصوره . إذ ماذا عساه أن يضيف الأهمية والطرافة على موضوع يمكن اعتباره أكاديمياً أو حتى أثرياً إن لم يكن السلطة والإرادة ؟ ونحن نرى أن المجتمع الغربى يقوم (مثل كل المجتمعات الأخرى ولو بدرجات مختلفة) بتنظيم هذين العاملين ، ويتيح لهما أن يتحققا بصور متفاوتة ، وأن يمارسا قدرًا هائلاً من النفوذ الخاص بهما ، والذي يتجاوز الضرورات الحاضرة المباشرة الضيقة . ولسوف أضرب مثلاً بسيطاً حتى تتضح المسألة بسرعة ، وبعدها ننتقل إلى دراسة بعض التفصيلات .

ينظر الجمهور فى أمريكا وأوروبا اليوم إلى الإسلام باعتباره "أنباء" من نوع لا يسر على الإطلاق . ويسوق التناغم بين أجهزة الإعلام وبين الحكومة وبين خبراء الجغرافيا السياسية - إلى جانب الأكاديميين من ذوى الخبرة فى الإسلام ، رغم كونهم يشغلون مكاناً على هامش الثقافة بوجه عام - فى اعتبار أن الإسلام يمثل تهديداً للحضارة الغربية . ولكن هذا لا يعنى أننا لن نجد فى الغرب إلا التصوير الذى يتنقص من قدر الإسلام أو يكتسى بطابع العنصرية ، فأنا لا أقول بهذا ولا أتفق مع من يقوله ، لكننى أقول إن الصور السلبية للإسلام سائدة إلى درجة أكبر مما عداها ، وإن هذه الصور لا تتفق مع " حقيقة " الإسلام (ما دمنا سلمنا بأن ما يشار إليه باسم "الإسلام" ليس حقيقة طبيعية بل هو بناء مركب أنشأه إلى حد ما المسلمون والغرب بالأساليب التى حاولت وصفها

فيما سبق) ولكنها تتفق حول ما ترى القطاعات البارزة أنه "الإسلام". وتتمتع هذه القطاعات بالسلطة وبالإرادة اللازمتين لنشر تلك الصورة المحددة للإسلام ، ومن ثم فإن هذه الصورة تزداد انتشاراً وحضوراً بحيث تسود ما عداها . وكما قلت في الفصل الأول ، يجرى ذلك وفقاً لعوامل اتفاق الآراء ، وهو الاتفاق الذي يضع الحدود ويمارس الضغوط .

ومن المفيد أن ننظر في الحلقات الدراسية الأربع التي عقدت في الفترة من ١٩٧١ إلى ١٩٧٨ ، بتمويل من مؤسسة فورد ، في جامعة برنستون ، وهي مكان ذو جاذبية واضحة لعقد الحلقات الدراسية الأكاديمية ، لأسباب اجتماعية وسياسية كثيرة . فإلى جانب شهرتها العامة ، يوجد في الجامعة برنامج لدراسات الشرق الأدنى ذاعت شهرته ويتمتع باحترام كبير ، وكان يسمى حتى عهد قريب قسم الدراسات الشرقية ، وكان الذي أنشأه هو فيليب حتى منذ نصف قرن تقريباً . وسيطر على التوجه الحالي للبرنامج - مثل توجه الكثير من برامج الشرق الأدنى الأخرى - علماء الاجتماع والسياسة . إذ يقل مثلاً عدد المناهج الدراسية الخاصة بالآداب الكلاسيكية الإسلامية من عربية وفارسية ، وعدد المتخصصين فيها من الأساتذة ، عن نظائر هذا وذاك في علوم السياسة والاقتصاد والاجتماع والتاريخ الخاصة بالشرق الأدنى . والتعاون بين هذا البرنامج وبين مؤسسة فورد ، مؤسسة العلوم الاجتماعية الأولى في البلد ، يدل (وأضيف أنه قد قصد به أن

يدل) على التمتع بسلطة علمية وثقة مرجعية من الطراز الأول في الولايات المتحدة . ومن ثم فإن أى موضوع يحظى بالتركيز عليه تحت رعايتها يجرى إبرازه إبرازاً لا شك فيه ، فما تقترحه برنستون وما تموله فورد يوحى (ويقصد به أن يوحى) بقضايا جديرة بالتأكيد والأولوية وتتمتع بأهمية بالغة . وإن شئنا الإيجاز قلنا إن الحلقات الدراسية المذكورة ، على الرغم أن واضعيتها ومديريها من الأكاديميين ، قد عُقدت ونصب عينيه المصلحة القومية . أى إن البحث العلمى كان يعتبر فى خدمة تلك المصلحة، وعلى نحو ما سوف نرى ، كان اختيار الموضوعات يشير إلى أن كل ما يتمتع بأفضلية سياسية لدى الحكومة كان يؤدى فى الواقع إلى فرض مجالات بحثية معينة . ومن الجدير بالذكر فى هذا الصدد أن مؤسسة فورد وجامعة برنستون لم يكن من المحتمل ، بل ومن غير المحتمل الآن ، أن يبدى الاهتمام بعقد حلقات دراسية 'فاخرة' حول نظريات النحو العربى فى العصور الوسطى ، على الرغم من إمكان إقامة الحجة على زيادة أهمية عقد حلقة دراسية حول هذا الموضوع ، من الناحية الفكرية الصرفة ، عن أهمية أى من الحلقات التى عقدت .

مهما يكن من أمر ، فعلينا أن نسأل : ماذا تناولت الحلقات الدراسية ومن الذى حضرها ؟ كانت إحداها تتناول موضوع "الرق والمؤسسات المرتبطة به فى مناطق الإسلام فى إفريقيا" . وكان الاقتراح الخاص بعقد هذه الحلقة يركز تركيزاً شديداً على خوف

إفريقيا واستيائها من المسلمين العرب ، كما يذكر أيضاً أن ”بعض العلماء الإسرائيليين“ قد حاولوا تحذير البلدان الإفريقية من الاعتماد أكثر مما ينبغي على الدول العربية التي قامت ”فى الماضى بإفراغ أراضيهم من سكانها“^(١٢) . وهكذا فإن ’رعاة‘ هذه الحلقة الذين اختاروا هذا الموضوع يؤكدون قضية من المؤكد أن تؤدى إلى تعكير صفو العلاقات بين المسلمين الإفريقيين والعرب ، وقد دفعتهم محاولة تحقيق هذا الهدف إلى عدم دعوة أى علماء من العالم الإسلامى العربى .

وعقدت حلقة دراسية أخرى حول نظام ’الذميين‘ ، وكان محورها الرئيسى هو ”وضع الأقليات ، وخصوصاً الأقليات الدينية ، داخل الدولة الإسلامية فى الشرق الأوسط“^(١٣) أما ’الذميون‘ فتعبر يشار به إلى جماعات الأقليات المستقلة نسبياً داخل الدولة العثمانية . وبعد تفكك هذه الدولة ، وانتهاء شتى النظم الاستعمارية الفرنسية والبريطانية ، نشأ عدد من الدول الجديدة فى الشرق الأدنى فى زمن الحرب العالمية الثانية تقريباً . وكانت كل منها ، أو حاولت أن تكون ’دولة أمة‘ ، فكانت إحداها (إسرائيل) دولة أقلية دينية فى إطار الدول الإسلامية المحيطة بها ، وقُدِّرت لدولة أخرى (لبنان) أن تقوم بتمزيقها ، إلى حد كبير ، أقليةً مناوئةً من غير المسلمين ، تتلقى الأسلحة من إسرائيل وتحظى بمناصرة الولايات المتحدة .

كان ذلك المحور أبعد ما يكون عن الموضوع الأكاديمي

المحايد ، ”فنظام الذمّيين“ تعبير ، حتى في وضعه بهذه الصيغة ، عن الحل السياسى المفضل للمشاكل المعقدة لمسألة الجنسية والقضايا العرقية فى العالم الإسلامى المعاصر ، ومهما تكن الأسباب الأكاديمية من وراء دراسته ، فإن نظام أهل الذمة يمثل ارتداداً ونكوصاً إلى عهد سالف بائد ، كانت القوى الاستعمارية (عثمانية أو غربية) تطبق فيه سياسة ’فَرَّقْ تَسُدْ‘ ، حتى تتحكم فى أعداد هائلة من السكان الذين قد يقومون بمناوأتها . وأما الأغلبية السُّنيّة من سكان هذه المنطقة ، وبعض الأقليات أيضاً ، فلقد كان التاريخ القريب للعالم الإسلامى الحديث يمثل لها نضالاً فى سبيل تَحْطِيطِ التقسيمات العرقية والدينية وصولاً إلى نوع ما من الديمقراطية العلمانية (ربما كانت وحدوية) . ولم تنجح أى دولة من دول المنطقة فى تحقيق ذلك إلا فى دنيا السياسات المعلنة (وغير المطبقة فى العادة) ، ولكن إسرائيل والطائفة المارونية التى تنتمى إلى أقصى اليمين فى لبنان قامتا بحملة مستعرة فى سبيل العودة إلى هيكّل للدولة يقوم أساساً على تمتع الأقلية العرقية بالحكم الذاتى وترتبط بروابط ثنائية مع قوة ’راعية‘ أجنبية أو دولة عظمى . ولم يكن من قبيل المصادفة أن واضع خطة الحلقة الدراسية قد اقترحوا تطبيق هذا الحل على الفلسطينيين أيضاً ، إذ إن الشخص الذى أحضروه إلى برنسون للحديث عن ”الأقلية“ العربية الفلسطينية (ويا للسخرية المريرة فى وصفهم بالأقلية !) كان أستاذاً إسرائيلياً . ولا يمكننا أن نعزو عقد هذه الحلقة الدراسية حول هذا الموضوع

البالغ الحساسية في الولايات المتحدة في مثل ذلك الوقت (١٩٧٨) ومشاركة عدد كبير من أفراد الأقليات الدينية والعرقية المعادية للحكم الإسلامي المزعوم (وهم من يمكن أن يعودوا بالفائدة على راسمى السياسات الأمريكية) إلى أى اهتمام علمى أكاديمى محض. ولم يكن من المصادفات أيضاً أن الداعى الرئيسى إلى عقد هذه الحلقة الدراسية كان الباحث نفسه الذى أشرت إليه آنفاً ، نفس الشخص الذى امتدح حب الاستطلاع الفكرى فى الغرب ، وسخر من جميع الأكاديميين وجميع غير الأوروبيين الذين كانوا يشتمون مؤامرة سياسية فى كل شىء .

كانت الحلقة الدراسية الأولى قد ناقشت تطبيق أساليب التحليل النفسى وطرائق التحليل المتبعة فى العلوم السلوكية فى تفهم المجتمعات الحديثة بالشرق الأوسط . وصدر فيما بعد مجلد يتضمن أعمال تلك الحلقة الدراسية^(١٤) . وقد حققت الحلقة الدراسية ما كنا نتوقعه ، بصفة أساسية ، إذ انصب تركيزها الرئيسى على دراسات الشخصية القومية (ولو أن المجلد يتضمن نقداً كتبه على بنوزازى لما يزعمون أنه دراسات الشخصية الإيرانية، وهو نقد يقوم على أسس علمية صارمة ويتسم بالوضوح، وقد أصاب كبد الحقيقة حين ربط بين هذه الدراسات المزعومة وبين أهداف التلاعب للدول الإمبريالية ذات المطامع فى إيران^(١٥)) . كانت نتائج الحلقة الدراسية متوقعة إلى الحد الذى يدعو إلى الانقباض ، إذ لا يمل الكتاب من تكرار الإشارة إلى أن المسلمين

يعيشون في عالم وهمي ، وأن الأسرة تمارس القمع والكبت ، وأن معظم القادة مصابون بأمراض نفسية ، وأن المجتمعات لم تصل إلى مرحلة النضج بعد ، وهلم جرأً ، ولا يقدم هذا الكتاب إلينا ذلك كله من وجهة نظر علماء يسعون إلى تغيير هذه المجتمعات بحيث تصل إلى ”النضج“ ، بل من منظور علماء محايدين ، موضوعيين ، لا يتقيدون بأحكام قيمة ، ولكن الكتاب لا يحسب حساباً للمواقع التي يشغلها هؤلاء العلماء (مهما يبلغ حيادهم وتحررهم من أحكام القيمة) في علاقاتهم بالشركات الكبرى والسلطات الحكومية ، ولا يأخذ في اعتباره الدور المنوط بأبحاثهم في تنفيذ السياسات الحكومية تجاه العالم الإسلامي ، أو ما يترتب على تطبيق المناهج النفسية عندما يقوم مجتمع قوى بدراسة مجتمع أقل قوة منه .

ولم تتناول الحلقة الدراسية الرابعة بحث أى من هذه الأمور، وكان عنوانها ”الأرض ، والسكان ، والمجتمع في الشرق الأدنى: دراسات في التاريخ الاقتصادي من فجر الإسلام إلى القرن التاسع عشر“ . وقد صورت هذه الحلقة نفسها، مثل غيرها من الحلقات، باعتبارها علمية وغير منحازة ، وإن استطعنا أن نستشف تحت السطح اهتماماً ملحاً إلى حد بعيد ويتعلق بالسياسات ، وكان في هذه الحالة اهتماماً بالعلاقات ما بين حيازة الأراضي ، والأنساق السكانية ، وسلطة الدولة ، باعتبار هذه العلاقة مؤشراً على الاستقرار (أو عدم الاستقرار) في المجتمعات الإسلامية

الحديث . ولكن ينبغي ألا نستخلص من هذا أن كل مساهمة في الحلقة الدراسية كانت تستقر إلى القيمة الموضوعية ، أو أن كل مشارك في الحلقة كان طرفاً في مؤامرة شنيعة ، فلقد أبدى القائمون على تنظيم الحلقة حكمة بالغة في أن كفّلوا تحقيق ”التوازن“ بين الآراء ، وكفّلوا للحلقة الدراسية أن تتسم ، إجمالاً ، بسمات المسؤولية والجدية . ومن ناحية أخرى علينا ألا نقع في شرك اعتبار الحلقة مساوية للمجموع الحسابي لأجزائها الكثيرة المنفصلة . فلقد عملت الحلقات الدراسية الأربع معاً ، في اختيار الموضوعات والاتجاهات العامة ، على تشكيل الوعي بالإسلام بأسلوب يضمن إما إقامة مسافة تفصلنا عنه باعتباره ظاهرة معادية وإما تأكيد بعض جوانبه التي نستطيع ”التصدي“ لها في سياساتنا .

وفي هذا الصدد كانت الحلقات الدراسية التي عقدت في جامعة برنستون حول الإسلام تتفق مع تاريخ برامج الدراسات لبعض مناطق العالم الثالث الأخرى ، في الولايات المتحدة - مثل الفترة التالية مباشرة للحرب في الدراسة الأكاديمية للصين^(١٦) . أما الفرق فهو أن البرامج الإسلامية لا تزال في حاجة إلى ”مراجعة“ وتنقيح ، إذ لا تزال تسيطر عليها مفاهيم بالية ، وغامضة إلى حد غير معقول (مثل مفهوم ”الإسلام“ نفسه) إلى جانب مصطلح فكري انقطعت صلاته بالتطورات العامة في العلوم الإنسانية وفي المجتمع كله : فلا يزال من الممكن أن يُقال عن الإسلام ما لا

يمكن قبوله ببساطة إن قيل عن اليهودية ، أو عن أبناء آسيا الآخرين ، أو عن السود ، ولا يزال من الممكن أن تُكتب عن التاريخ الإسلامى ، وعن المجتمع الإسلامى ، دراسات يسعدها أن تتجاهل كل ألوان التقدم الكبرى فى نظرية التفسير منذ نيتشه وماركس وفرويد .

والنتيجة هى أننا لن نجد فى الدراسات الجارية للإسلام إلا أقل القليل مما يمكن أن يعود بفائدة ما على العلماء المهتمين بالمشكلات المنهجية لعلم كتابة التاريخ بصفة عامة ، مثلاً ، أو بتحليل النصوص . ولكن الذى يحدث ، إذا اعتبرنا الحلقات الدراسية المعقودة فى جامعة برنستون خير نموذج لما نقول ، هو أن يظهر عمل علمى عن الإسلام (مثلما ظهر المجلد الذى يتناول علم النفس فى دراسات الشرق الأوسط) ثم تقوم بعرضه أو 'مراجعته' دورية أو دوريتان من المجلات البالغة التخصص ، ثم يختفى . إن هذا العامل وحده دون غيره ، وأقصد به الموقع الهامشى الذى تشغله الدراسات الإسلامية ، وما يريدونه لها من أن تظل مقطوعة الصلة بالثقافة العامة ، هو الذى يتيح للباحثين مواصلة فعل ما يفعلون ، ولأجهزة الإعلام أن تتولى مهمة نشر الصور العنصرية الساخرة للشعوب الإسلامية . وبهذا الأسلوب تواصل قاعدة البحوث الأكاديمية تدعيم بقائها ، ويستمر الزبائن الذين يشترون أخبار الإسلام فى تلقى جرعات هائلة من التهريج حول الحدود (العقوبات) الإسلامية والحريم ، وهو القوت الذى تقدمه أجهزة

الإعلام لهم على مدى عقود مديدة . وعندما تقع عيون الجمهور على الخبراء ، فهم يظهرون باعتبارهم خبراء دعت إلى ظهورهم أزمة طارئة فاجأت ”الغرب“ دون استعداد لها . وهم لا يخفون من وقع أقوالهم ، ولا يتحرون الرهافة في التعبير ، بدافع أى تعاطف ثقافى قديم مع الإسلام ، على نحو ما يحدث فى بريطانيا أو فرنسا ، إذ لا يُعتبرون إلا فنيين يحملون ”عدة عمل جاهزة من أدوات الصنعة“ (وهذه هى عبارة دوايت ماكدونالد)^(١٧) لتقديمها إلى الجمهور الذى يساوره القلق . والجمهور يتقبلهم بطيب خاطر ، فهم يلّبون المطلب الذى يصفه كريستوفر لاش بأنه

الطلب الكبير بصورة غير مسبقة على الخبراء ، والفنيين والمديرين الذى أوجده ما يسميه لاش ”نظام ما بعد العصر الصناعى“ ، إذ يزداد اعتماد الشركات والحكومة ، فى ظل ضغوط الثورة التكنولوجية ، والزيادة السكانية المستمرة ، وحالة الطوارئ الممتدة بلا أجل مسمى بسبب الحرب الباردة ، على جهاز شاسع من أنظمة البيانات التى لا يفهمها إلا المختصون المدربون ، ومن ثم أصبحت الجامعات نفسها مصانع لإنتاج الخبراء بالجملة^(١٨) .

ولقد بلغت درجة الجاذبية التى يتمتع بها سوق الخبراء ، وما يدره من أرباح ، حداً جعل معظم الدراسات الخاصة بالشرق الأوسط تتوجه إلى هذا السوق . وهذا السبب وحده يفسر لنا عدم

التفات أى مجلة راسخة القدم (وكذلك الكتب التى كتبها العلماء الراسخون فى الآونة الأخيرة) إلى بعض الأسئلة الأساسية مثل : لماذا نقوم بدراسات الشرق الأوسط ؟ ومن الذين نتوجه إليهم بصفقاتها ؟ الواقع أن طمس الوعى المنهجى يشترك فى حدوده اشتراكاً كاملاً مع وجود السوق (الحكومات والشركات والمؤسسات) ، فالإنسان لا يسأل ببساطة عن سبب ما يفعله إذا وجد الزبائن الذين يقدرّون إنتاجه أو الذين يمكن أن يتقبلوه على الأقل . بل إننا نرى ما هو أسوأ ، فالباحث يتوقف عن التفكير فى الإقليم والبشر المقيمين فيه ، وهم الذين تجرى الدراسات عنهم، فإذا كان ”الإسلام“ هو موضوع الدراسة لم ينظر إليه باعتباره مشاركاً له فى الحوار بل باعتباره، بأحد المعانى ، سلعة . والنتيجة العامة هى نوع من سوء النية الراسخ فى المؤسسة ’العلمية‘ . فإذا وجه أحد من خارجها انتقاداً لها كان الرد هو رفع راية أمانة البحث العلمى وشرف المجال الذى ينتمى إليه ، ورأيت الاستعداد لإبداء الغطرسة بالألفاظ الرنانة فى نفى الانحياز السياسى ، ووجدت الباحثين يهتثون أنفسهم بصورة تدعم ما يجرى حالياً إلى ما لا نهاية .

لقد تحدثت حتى الآن عن عمل يتسم بالعزلة أساساً ، ومعنى هذا فى هذه الحالة أن الباحث يمارس عمله فى إطار رد الفعل إزاء ما تطلبه منه شتى المصالح ؛ فهو يسترشد بما يراه أفراد طائفته من الباحثين صحيحاً ، أكثر مما يسترشد بضرورات التفسير الأصيل ،

وقبل ذلك كله فإن الثقافة العامة تفرض العزلة على عمله ، وتضعه في موقع هامشي إلا في أوقات الأزمات . أى إنه يفترق إلى كلا الشرطين اللازمين لمعرفة ثقافة أخرى وهما الاتصال الذى لا إكراه فيه بثقافة أجنبية من خلال التبادل الحقيقى ، والتزام الحذر فى التفسير كذلك ، وهذا الافتقار يفرض العزلة ، والنظرة المحلية الضيقة ، والدوران فى حلقات مفرغة فى تغطية الإسلام . وما له مغزاه أن هذه الأمور توضح أيضاً أن تغطية الإسلام ليست تفسيراً بمعناه الأصيل بل تأكيد للسلطة . وأجهزة الإعلام تقول ما تشاء عن الإسلام لأنها تستطيع ذلك . والنتيجة أن نرى ”الحدود“ الإسلامية (العقوبات) وصورة ”المسلمين“ الصالحين (فى أفغانستان على سبيل المثال) تسودان المشهد الحالى بلا تمييز ؛ ولا تكاد التغطية تشمل شيئاً آخر لأن كل ما يقع خارج نطاق التعريف المتفق عليه لما هو مهم لا يعتبر مرتبطاً بمصالح الولايات المتحدة ومفهوم أجهزة الإعلام للموضوع الصحفى الناجح . ومن ناحية أخرى نجد أن الدوائر الأكاديمية تستجيب لما تفهم أنه يلبي المطالب الوطنية ويستجيب لحاجة الشركات ، والنتيجة هو أنها تقوم ”بنحت“ موضوعات دراسات إسلامية مناسبة من كتلة هائلة من التفاصيل الإسلامية ، وهى الموضوعات (الرق ، ونظام أهل الذمة وهلمّ جراً) التى تحدد صورة الإسلام والدراسة الصحيحة للإسلام بحيث تستبعد كل ما لا يتفق تماماً مع هذا أو ذاك . وحتى حين يحدث وتقوم الحكومة أو يقوم أحد أقسام دراسات الشرق الأوسط بإحدى

الجامعات ، أو تقوم إحدى المؤسسات بتنظيم مؤتمر يتناول مستقبل دراسات الشرق الأوسط (وهي العبارة التي تستخدم عادة كناية عن السؤال التالي ”تري ماذا سنفعل إزاء العالم الإسلامي ؟“) نجد أن مجموعة المفاهيم والأهداف تواصل الظهور فيه . لا يكاد يتغير شيء .

ونحن نرى المراهنة بالكثير على هذا التكرار ، وليس بأقله أهمية نظام ”الرعاية“ الذي يدار باقتدار لا بأس به . فكبار الخبراء في هذا المجال ، سواء من الحكومة أو عالم الشركات أو الجامعات عادة ما تربطهم روابط معينة ببعضهم البعض وبالجهات المانحة التي تساهمهم . فالباحث الشاب يعتمد على شبكة علاقاته في الحصول على إعاناته المالية ، ناهيك بالوظيفة وإمكان نشر بحوثه في المجلات العلمية الراسخة . والمغامرة بكتابة بحوث نقدية غير ودية عن العلماء المعترف بهم أو عن عملهم تعنى المخاطرة بالكثير في هذا المجال أكثر من مجالات التاريخ العام أو الأدب . ولذلك فالمقالات التي ’تراجع‘ أى تعرض الكتب مقالات لا طعم لها وعادة ما تميل إلى امتداح الكتاب ، والنقد عادة ما يكتب بلغة موحدة تكتسى أشد الألفاظ إغراقاً في التحذلق والتنتع ، دون إشارة على الإطلاق إلى المنهجية أو الافتراضات المسبقة . وأغرب ما يفتقر إليه هذا المجال - وأشد الظواهر شيوعاً - هو تحليل الصلة التي تربط البحث العلمى بأشكال السلطة المختلفة في المجتمع الذي ينجز الباحثون بحوثهم من أجله . وما إن يُسمع

صوتٌ يتحدى مؤامرة الصمت المذكورة حتى يصبح الموضوع الرئيسى هو الأيديولوجيا والأصول العرقية ، فيقال إن الناقد ماركسى ، أو فلسطينى (أو إيرانى أو مسلم أو سورى) - أو تتردد العبارة المألوفة : نحن نعرف طبيعة هؤلاء النقاد !^(١٩) .

وأما فيما يختص بالمصادر نفسها ، فهم يتعاملون معها دائماً كأنما كانت خامدة لا حياة لها ، وهكذا فالباحث حين يناقش مجتمعاً أو حركة أو شخصية إسلامية معاصرة ، فإنه يتناول موضوع مناقشته باعتباره ، بصفة أساسية ، من الأدلة ، ونادراً ما يعتبره كياناً يتمتع بالاستقلال وبحق الرد ، بمعنى من المعانى . ومن الطريف أن الخبراء الغربيين فى الإسلام لم يبدلوا أى محاولة على الإطلاق للتناول المنهجى للكتابة الإسلامية عن الإسلام : هل هى بحوث علمية ؟ هل هى أدلة على شيء ما ؟ أليست هذا ولا ذاك ؟

ومع ذلك ، وعلى الرغم من هذه الأحوال القاحلة إلى حد بعيد ، بل وربما بسببها ، يكتب بعض الكتّاب كتابات تتضمن معرفة لها قيمتها عن الإسلام ، وتتمكن بعض الأذهان المستقلة من عبور الصحراء . ولكننا نستطيع القول بأن الطابع الهامشى العام والتفكك الفكرى العام (فى مقابل اتفاق آراء أبناء المهنة الواحدة) وإفلاس الشروح والتفسيرات فى معظم ما يكتب عن الإسلام - لا فى كل ما يكتب قطعاً - يرجع إلى الزمالة التى تربط بين أطراف الشبكة التى تضم الشركات والحكومة والجامعات ، وهى الشبكة

التي تسيطر على العمل برمته . وهذا في نهاية المطاف هو ما يتحكم في كيفية رؤية الولايات المتحدة للعالم الإسلامي . وإلاّ فما السبب الذي يجعل مثل هذا الهيكل البالغ الغرابة للمعرفة بالإسلام ينمو ويزدهر ، وقد تشابكت فروعه، وترسخت جذوره، غير عابئ بما يصيبه من فشل مرة بعد أخرى ؟

وأنجح منهج لفهم طابع هذه الرؤية بدقة ، وهي الرؤية التي اكتسبت قوة الإيمان الذي لا يحتمل التساؤل ، هو أن نقارنها مرة أخرى بالموقف السائد في بريطانيا وفرنسا ، وهما اللتان خَلَقَتْهُمَا الولايات المتحدة في العالم الإسلامي . ففي كل منهما كنا نجد دائماً ، بطبيعة الحال ، صفّاً من الخبراء الإسلاميين الذين ينهضون بدور استشاري ، ومنذ مدة بعيدة ، في وضع السياسات الحكومية والتجارية وحتى في تنفيذها . ولكننا كنا نجد في كلتا الحالتين أن المهمة المباشرة هي إدارة شؤون الحكم في المستعمرات ، وهو ما استمر قائماً حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، وكان يُنظر إلى العالم الإسلامي باعتباره سلسلة من المشاكل المنفصلة ، وكانت المعرفة بتلك المشكلات ، بصفة عامة ، معرفة علمية تجريبية ونابعة من التصدي المباشر لها . صحيحٌ أن بعض النظريات والتجريدات الخاصة بالعقل الإسلامي ، فيما يتعلق 'بالرسالة الحضارية' عند فرنسا ، وبالحكم الذاتي للشعوب الخاضعة لبريطانيا ، تتدخل هنا وهناك في تطبيق السياسات ، ولكن ذلك لم يكن يحدث إلا بعد وضع السياسات والشروع في تنفيذها ميدانياً إن صح هذا

التعبير ، وكان للحديث عن الإسلام دور يكاد ينحصر في تبرير المصلحة القومية (أو حتى المصالح الاقتصادية الخاصة) في العالم الإسلامي . وهذا هو السبب الذي يفسر لنا وجود علماء كبار في الدراسات الإسلامية في بريطانيا وفرنسا اليوم ، واعتبارهم من الشخصيات العامة المرموقة ، وأما مبرر وجودهم ، حتى بعد أن تفككت الامبراطوريات الاستعمارية الآن، فهو الحفاظ على اهتمام فرنسا وبريطانيا بالعالم الإسلامي . والطابع الغالب لأمثال هؤلاء العلماء ، ولأسباب أخرى كثيرة ، هو طابع البحث الإنساني لا البحث في العلوم الاجتماعية ، والتأييد الذي يتمتعون به في الثقافة العامة لا يرجع إلى الطلب على الخبراء الذي يتسم به نظام ما بعد العصر الصناعي (وهو الطلب القائم في البلدين جميعاً) مثلما يرجع إلى التيارات الفكرية والأخلاقية العريضة في المجتمع، فإن رودنسون في فرنسا أستاذ مرموق في فقه اللغة وهو أيضاً ماركسيٌّ شهير ، وهوراني في إنجلترا مؤرخ ذائع الصيت ورجل يشي عمله بليبرالية واضحة^(٢٠) . ولكن أمثال هؤلاء لم يعودوا يظهرون في فرنسا وفي إنجلترا ، ومن المحتمل أن يحل محلهم في المستقبل علماء اجتماع بالأسلوب الأمريكي أو علماء آثار متخصصون .

وأما العلماء المماثلون في الولايات المتحدة فلا يُعرفون إلا بصفاتهم خبراء في الشرق الأوسط أو خبراء إسلاميين ، فهم ينتمون إلى طبقة الخبراء ، وأما مجال عملهم ، في حدود ما

يربطهم بالمجتمعات الحديثة في العالم الإسلامي ، فيمكن اعتباره المرادف الفكري لعلم إدارة الأزمات . وهم يدينون بجانب كبير مما يتمتعون به من مكانة إلى القول بأن الولايات المتحدة تعتبر العالم الإسلامي منطقة استراتيجية حافلة بالمشكلات التي يمكن أن تنشأ (وإن لم تكن دائماً مشكلات حقيقية) . وعلى امتداد العقود العديدة التي تولت فيها بريطانيا وفرنسا إدارة شئون المستعمرات الإسلامية ، تكونت لديهما بصورة طبيعية طبقة من الخبراء بالمستعمرات ، ولكن هذه الطبقة لم تفرز ما يتبعها أو ما نراه ملحقاً بها في الولايات المتحدة ، أى شبكة التحالف بين دراسات الشرق الأوسط والحكومة والشركات . كان أساتذة اللغة العربية ، أو الفارسية ، أو المؤسسات الإسلامية ، يقومون بعملهم في الجامعات البريطانية والفرنسية ؛ وكانوا يتلقون الدعوة من وزارات المستعمرات أو من الشركات التجارية الخاصة لإسداء المشورة أو حتى للمشاركة فيها ، وكانوا أحياناً يعقدون المؤتمرات ؛ لكنهم فيما يبدو لم ينشئوا هيكلًا مستقلاً خاصاً بهم ، يتولى الإنفاق عليه بل والمحافظة على وجوده القطاع التجارى الخاص ، أو يتلقى الدعم المباشر من المؤسسات والحكومة .

وهكذا تحدد المعرفة بالعالم الإسلامي وتغطية أنبائه في الولايات المتحدة عوامل الجغرافيا السياسية والمصالح الاقتصادية ، وعلى نطاق هائل من المحال تحقيقه للفرد ، ويدعم هذه العوامل ويساعدها هيكل لإنتاج المعرفة يكاد يماثله في ضخامته واستحالة

التحكم فيه . وما عسى أن يفعله دارس قبائل الجزيرة العربية أو قبائل الإمارات العربية إزاء العقبة التي يمثلها وجود شركة النفط بينه وبين هذه القبائل ، وإزاء الحديث الجاد عن قوات الانتشار السريع والعمل على تنفيذها (انظر موضوع الغلاف لمجلة نيوزويك فى ١٤ يوليو ١٩٨٠ بعنوان ”الدفاع عن حقول النفط : زيادة الحشود العسكرية الأمريكية“) فى منطقة الخليج ، وإزاء الجهاز الكامل من ”العاملين“ فى مجال الشرق الأوسط بوزارة الخارجية الأمريكية ، والشركات والمؤسسات ، وشتى كبار الأساتذة من المستشرقين ؟ ترى أى لون تكتسبه المعرفة بثقافة أخرى فى الواقع حين تكون محاطة بسياج من الافتراضات النظرية التى تقول إن ”أزمة الهلال“ أزمة ملحة عاجلة ، من ناحية ، وسياج من الروابط المؤسسية المزدهرة بين الدراسة العلمية ، والشركات التجارية ، والحكومة ، من ناحية أخرى ؟

ولأختتم هذا القسم بمحاولة الإجابة عن هذا السؤال بحقائق من الواقع ، فى جزئين ، يتعلق الجزء الأول بالأوضاع الفعلية ، وبالحقائق والأرقام التى تحكم ما يمكن أن نسميه التغطية العملية والتى تعتبر ’صحيحة‘ للإسلام . وسوف أركز على الولايات المتحدة وإن كنت أرى أن موقفًا مماثلاً إلى حد بعيد قد بدأ يسود فى أوروبا ، تدريجيًا ، أيضًا . يقول مسح فرنسى مفيد للمراكز الأمريكية لدراسات الشرق الأوسط إن عددًا يبلغ تقريبًا ١٦٥٠ متخصصًا فى الشرق الأوسط كان يقوم فى عام ١٩٧٠ بتدريس

لغات المنطقة لعدد من طلاب الدراسات العليا يبلغ ٢٦٥٩ طالباً، و ٤١٥٠ من طلاب الدرجة الجامعية الأولى (وهم يمثلون، على الترتيب ، ١٢ فى المائة و ٧,٤ فى المائة من مجموع عدد طلاب الدراسات العليا والدرجة الجامعية الأولى الذين اختاروا ”دراسات المنطقة“ مادة رئيسية^(٢١) . وقد اختار المواد الدراسية الخاصة بالشرق الأوسط التى تشملها ”دراسات المنطقة“ عدد من طلاب الدراسات العليا يبلغ ٦٤٠٠ طالباً ، وعدد من طلاب الدرجة الجامعية الأولى يبلغ ٢٢٣٠٠ طالباً (وكان يمثل نسبة ١٢,٦ من المجموع) ولكن رسائل الدكتوراه التى كتبت فى مجال دراسات الشرق الأوسط فى الأعوام الأخيرة كانت لا تشكل إلا نسبة ضئيلة بالمقارنة بغيرها ، إذ لم يتقدم بها إلا أقل من واحد فى المائة من طلاب الدكتوراه فى البلد^(٢٢) . وتقول دراسة تتسم بالعمق والفتنة لمراكز الشرق الأوسط فى الجامعات الأمريكية كتبها ريتشارد نولت (والطريف أن شركة إسو للشرق الأوسط ، وهى فرع من فروع شركة إكس كون للنفط ، هى التى كلفته بإعدادها) ونشرها فى عام ١٩٧٩ ، إن وزارة التعليم الأمريكية كانت تساند ”دراسات المنطقة“ بهدف ”إعداد الخبراء والمتخصصين بسرعة وبأعداد كبيرة لتلبية أغراض الشركات والأغراض الحكومية والتعليمية“ . ولقد استجابت الجامعات لهذه النظرة ، وقد أصاب نولت حين كتب يقول ”تعتبر مراكز الشرق الأوسط ، من وجهة النظر الجامعية ، آلية تسويق جديدة تبشر بالخير لإنتاج الجامعات، إذ لن تقتصر على

المساعدة في زيادة قابلية هذا الإنتاج للتسويق ، من المتخصصين في شتى الفروع العلمية المفيدة من دراسات المنطقة ، والمهنيين اللازمين للأسواق الجديدة التي يمكن أن تتسع اتساعاً هائلاً ، لكنها سوف تساعد أيضاً في إنشاء هذه الأسواق“ . ويقول أيضاً فيما يتعلق ببرامج الماجستير ”تتمتع الأسواق الحكومية ، وأسواق الشركات والمصارف وغير ذلك من الأسواق المهنية بالرواج النسبي فيما يتعلق بتعيين الحاصلين على الماجستير الذين تلقوا التدريب المناسب في دراسات الشرق الأوسط ، بفضل العوامل الاقتصادية والسياسية المتماثلة عند الجميع“ (٢٣) .

وكما تساعد الحلقات الدراسية التي عقدت في جامعة برنستون، والتي أشرت إليها آنفاً ، في تشكيل الاهتمامات الفكرية للباحثين والدارسين ، نجد أن حقائق هذه الأسواق تؤثر هي الأخرى في المواد الدراسية وموضوعات البحوث . وتركز دراسات الشرق الأوسط أشد التركيز على مجالات معينة مثل الشريعة الإسلامية والصراع العربي الإسرائيلي ، فصلتها بالواقع الحي واضحة في الظاهر ، ولكن ذلك يترتب عليه ، وفقاً لما يقوله نولت ، تجاهل الأدب ، وتجاهل المجموعات الكبيرة إلى حد ما من طلاب الشرق الأوسط في الجامعات الأمريكية . كما يقول نولت إن مديري المراكز الذين حادتهم

أشاروا إلى أحداث معينة تعرضوا فيها لضغوط سياسية منظمة ، كان مصدرها في حالات كثيرة من خارج

الجامعات ، ترمى إلى منع أو تشويه صورة بعض الأنشطة المرتبطة بالعرب ، والتي تراها المراكز المعنية مشروعة ومستحبة من وجهة النظر الأكاديمية ، ومن بينها الاحتفالات الثقافية العربية ، وعرض الأفلام العربية ، واستضافة المتحدثين العرب ، وقبول المنح العربية لتدعيم الميزانية - وغير ذلك كثير . وقد أدى الوعي بهذا إلى فرض 'التعويق النفسى' على الجميع ، وهو ما لم يتخلف معظم المديرين عن إبداء استيائهم منه ، ولم يكن بينهم من يملك أن يتجاهله . وقال بعضهم إن الأحوال تسير فى طريق التحسُّن ، وتشكك آخرون فى ذلك^(٢٤) .

وتعلن هذه وتلك جميعاً - أى السياسة والضغوط والأسواق - عن نفسها بطرائق مختلفة . فالحاجة إلى الخبرة بالشرق الأوسط المعاصر تؤدى إلى وضع مناهج دراسية كثيرة ، والتحاق الكثيرين من الطلاب بها ، مع التأكيد الواضح على قبول 'منظورات' المعرفة الأساسية التى تجمع بين الربح المادى وإمكان التطبيق الفورى ، والحفاظ على هذه 'المنظورات' . ومن النتائج الأخرى أن الأبحاث المنهجية غائبة عن الساحة غياباً مطلقاً ، فالطالب الذى يرغب أن يشق طريق حياته العملية فى دراسات الشرق الأوسط يخشى أول الأمر السنوات الطويلة المجتهدة اللازمة للحصول على الدكتوراه (دون ضمان الحصول على وظيفة مدرس

آخر الأمر) فيحصل على الماجستير أو دبلوم الدراسات الدولية في موضوع تتوافر فيه الجاذبية لأكبر أصحاب العمل (الحكومة ، وشركات النفط ، وبيوت الاستثمار الدولية، وشركات المقاولات) وأخيراً يقوم بعمله بأسرع ما يمكن ، وفي شكل 'دراسة حالة' . ويؤدي هذا كله إلى عزل دراسة الإسلام أو الشرق الأوسط عن التيارات الفكرية أو الأخلاقية الأخرى في دنيا الباحثين والعلماء . وتبدو أجهزة الإعلام هنا مسرحاً أصح وأجدي لعرض خبرته من الدوريات العلمية المتخصصة مثلاً ، كما أن الظهور في أجهزة الإعلام يعنى ، على نحو ما يعرف من اعتادوا ذلك ، إما أن تكون مناصراً لقضية ما (وهو ما يفرض عليك قيوداً شديدة) أو تظهر بصورة الخبير الهادئ الذى استدعى دون تحيز ليصدر الأحكام على المذهب الشيعى ومعاداة أمريكا . ومن الواضح أن دور الخبير يساعد المرء فى حياته العملية ، إلا إذا كان قد أصاب النجاح من قبل فى التجارة أو فى عمل حكومة .

قد يبدو ذلك فى صورة 'المحاكاة الساخرة' لأسلوب إنتاج المعرفة ، لكنه يصف بدقة كافية مدى ضيق التركيز والفقر الفاجع للمادة الدراسية اللذين يعيبان المعرفة بالإسلام ، وهو يفسر لنا ، قبل كل شئ ، سبب ابتعاد الخبراء الأكاديميين كل البعد عن الطعن فى الصور النمطية السوقية التى تروجها أجهزة الإعلام ، إذ إنهم يشكّلون هيئة فقدت استقلالها وأصبح أفرادها يقتصر على أداء الدور الذى تقضى به وظائفهم ، وهو الذى يرمز لمكانتهم

باعتبارهم الحجة الموثوق بها في موضوع الإسلام ، وكذلك اعتمادهم على النظام الكُلِّي الذي يحدد هذه الوظائف في إطاره ويجعلها مشروعة ، وهذا هو النظام الذي نرى تجلياته في أجهزة الإعلام التي تعتمد على الصور النمطية القائمة على الخوف والجهل .

وإذا كان ما تحدثت عنه حتى الآن يبدو في صورة القيود الفكرية التي تحد من حرية البحث العلمي - وهي الصورة الحقيقية دون شك - فإن هذه القيود لا تحول دون إنتاج مادة كلامية هائلة عن الشرق الأوسط وعن الإسلام بل وعن بعض مناطق العالم الأخرى . وبعبارة أخرى نجد أننا نواجه الآن ما وصفه فوكو ، في سياق آخر ، بأنه "الحضُّ على الكلام" (٢٥) . فالقيود التنظيمية للفكر والتفكير بشأن الثقافات الأجنبية النائية تختلف اختلافاً شاسعاً عن عمل الرقيب الذي يتدخل بالمنع والحذف ، إذ إنها تحض بصورة إيجابية و"تأكيدية" على كتابة المزيد من المادة المنتجة في ظل هذه القيود . وهذا هو سبب استمرارها رغم التغيرات التي يشهدها العالم ، وسبب مواصلتها تجنيد العاملين في خدمتها .

وهكذا فإن التغطية الحالية للإسلام وللمجتمعات غير الغربية، في مجملها ، تضيف القداسة في واقع الأمر ، على عدد معين من الأفكار والنصوص والثقات . فالفكرة التي تقول إن الإسلام ينتمي للعصور الوسطى ويشكل خطراً علينا ، مثلاً ، أصبحت تشغل

مكأنًا محددًا بدقة في الثقافة العامة وفي السياسة ، فما أيسر الاستشهاد بالثقافات لتأكيدھا ، والإشارة إليها ، وإقامة الحجة على صحة زعم ما بشأن جانب ما من جوانب الإسلام استنادًا إليها ، ولقد أصبح ذلك ميسورًا وفي متناول أيدي الجميع ، لا الخبراء وحدهم ولا الصحفيين . ومثل هذه الفكرة تقوم بدورها بصفقتها المعيار المسبق الذي لا بد أن يضعه في حسبانہ كل من يبغى مناقشة الإسلام أو قول شيء ما عن الإسلام . فبعد أن كان الإسلام حقيقة خارجية ، أو بالأحرى تلك الكيانات المادية المرتبطة به في كل حالة ، أصبحت هذه الصورة للإسلام ذات صحة معتمدة في هذا المجتمع نفسه ، بعد أن دخلت الثقافة المعتمدة وأصبحت تنتمي إليها ، وهو ما يجعل من مهمة تغييرها عملاً بالغ الصعوبة حقًا وصدقًا .

ويكفي هذا فيما يتعلق بالتغطية ' المعتمدة ' للإسلام ، وهي التغطية التي أدت روابطها بالسلطة إلى منحها القوة ، والثبات ، وكذلك وقبل كل شيء ، الحضور . ومع ذلك فلقد شاعت نظرة أخرى للإسلام ، تنتمي إلى فئة أخرى قد أطلق عليها صفة المعرفة المضادة^(٢٦) .

وأعني بالمعرفة المضادة نوع المعرفة الذي ينتجه الذين يعتبرون أنهم يعارضون ، واعين ، الصورة السائدة المعتمدة فيما يكتبون . وهم يفعلون ذلك ، على نحو ما سوف نرى ، لأسباب متفاوتة وفي مواقف متباينة ، ولكنهم جميعًا يدركون جيدًا أن أسلوب

وأسباب دراستهم للإسلام مسائل تتطلب التأمل والصراحة . ونحن لا نجد في تفسيرات هؤلاء المفسرين المضادين ما نعهده من صمت منهجي في كتابات المستشرقين ، وهو الصمت الذي عادة ما يشيع فيه التفاؤل التابع من الثقة في ' موضوعيتهم ' البريئة من أحكام القيمة ، بل نجد بدلاً منه مناقشة تتميز بالعجلة والإلحاح للمعاني السياسية للدراسة الأكاديمية .

وتنقسم المعرفة المضادة بالإسلام إلى ثلاثة أنماط رئيسية ، تتجهها ثلاث قوى في المجتمع القادر على تحدى تلك الصورة السائدة المعتمدة : تتكون الأولى من مجموعة من الباحثين الشبان الذين يتسمون بالمزيد من الحذق العلمي والمزيد من الأمانة السياسية عن أقرانهم الكبار العاملين في هذا المجال ، وهم يرون أن دراسة الإسلام ترتبط بصورة ما بالنشاط السياسي للدولة ومن ثم فهم لا يتظاهرون بأنهم باحثون " موضوعيون " . وهم يرون أن انغماس الولايات المتحدة في السياسة العالمية ، وهي التي يرتبط جانب كبير منها بالعالم الإسلامي ، حقيقة لا ينبغي الصمت إزاءها أو تقبلها باعتبارها واقعاً محايداً . ويتميزون عن المستشرقين الأكبر سناً بأنهم متخصصون ولا يهتمون بإصدار الأحكام العامة مثلهم ، وبأنهم يرحبون بالأدوات المنهجية التجديدية مثل الأنثروبولوجيا البنيوية ، والمناهج الكمية ، والطرائق الماركسية للتحليل ، ويدون اهتماماً حقيقياً بها وينجحون في تطبيقها في حالات كثيرة^(٢٧) . وهم يبدون حساسية ووعياً خاصاً بأشكال الخطاب الاستشراقي المتسمة

بالتحيز العرقي ، ويتميز معظمهم ، بسبب حداثة سنّهم ، بالعمل إلى حد ما خارج نطاق نظام 'الرعاية' الذي يضمن لشيخ مهنتهم ما ينعمون به من ترف . وقد برزت من صفوفهم 'الحلقة الدراسية البديلة' لدراسات الشرق الأوسط ، كما ظهر مشروع بحوث ومعلومات الشرق الأوسط ، وقد أنشئ كلاهما باعتبارهما منظمّتين ترميان بصفة محدّدة إلى تجنب التواطؤ مع الحكومة وشركات النفط . وقد تشكلت مجموعات مماثلة في أوروبا ، وترتبط كل هذه الهيئات بعضها البعض . ولا يتّمسك جميع الباحثين الشباب الذين أشير إليهم إلى هذه الهيئات ، ولكن معظمهم يستغنون تعديل المناهج القائمة وتنقيحها . وهم يسعون جميعاً إلى دراسة الإسلام من منظوراتٍ يهملها أو يجهلها من هم أكبر سناً منهم .

وتتكون المجموعة الثانية من باحثين أكبر سنّاً ولكنهم ، لأسباب أكثر من أن تلخص تلخيصاً منهجياً ، يتبعون مناهج معارضة للدراسات المعتمدة السائدة في هذا المجال . وعلى سبيل المثال نجد أن حامد الجار ، من بيركلي ، ونيكي كيدي من جامعة كاليفورنيا بلوس أنجيليس ، يتّسميان إلى القلة القليلة من الباحثين المتخصصين في إيران الذين قاموا ، قبل نشوب الثورة الإيرانية بعدة سنوات ، بإيلاء الدور الذي يلعبه علماء الدين (رجال الدين الشيعة في إيران) ما يجدر به من اهتمام . ويختلف الجار عن كيدي اختلافاً كبيراً ، وإن كان كل منهما قد أعرب عن تشكّكه

الكبير فى استقرار نظام الحكم البهلوى . وعلى غرار ذلك قام إرفاند إبراهيميان، من كلية باروخ ، بإجراء دراسات للمعارضة العلمانية للشاه ، وهى الدراسات التى تضمنت سلسلة رائعة من النظرات العميقة فى الديناميات السياسية للثورة ، ومن بعده مايكل ج. فيشر من جامعة هارفارد ، وفريد هاليداي فى إنجلترا ، وهما باحثان دفعتهما دوافع فكرية وأكاديمية إلى الخروج على نظرية الأغلبية إلى إيران ، ومن ثم أجريا دراسات ذات قيمة فذة فى إيران المعاصرة^(٢٨) .

والطريف أنه من المحال وضع تلخيص منصف للخصائص المنهجية والأيدولوجية لهؤلاء الذين يكتبون هذه الكتابات عن الإسلام . ومع ذلك فمن اللافت للنظر أنه ليس من بينهم من ينتمى إلى 'مؤسسة' دراسات الشرق الأوسط ، ولا يعنى هذا أنهم شخصيات غير بارزة أو لا تتمتع بالاحترام ، فهم فى الواقع مبرزون ومحترمون ، وإن كان يندر أن نجد بينهم من يعمل فعلاً أو بحكم الوظيفة مستشاراً للحكومة أو للشركات . وقد يكون ذلك هو ما حرّره من الالتزام بالوضع الراهن ومكّنهم من رؤية ما أهمله وتجاهله الكتاب التقليديون عن الإسلام . لكننا لابد أن نقول إن عملهم ، وعمل مجموعة الباحثين الأصغر سناً والمشار إليهم آنفاً ، لن يحقق ما هو قادر عليه من تأثير إلا إذا ازداد الدور السياسى المنوط بهم فى هذا المجتمع . أى إن اعتناقهم لآراء تميزهم عن الخبراء 'المعتمدين' لا يكفى ، وعليهم أن يحاولوا أن

يكفلوا الشيوع لأرائهم بين الناس ، وهو جهد يتجاوز كثيراً مجرد كتابة الدراسات ونشرها ، ومن ثم فهم يواجهون مستقبلاً حافلاً بالنضال السياسى والتنظيمى .

ونرى ثالثاً مجموعة من الكتّاب والدعاة والمفكرين الذين لا يعتبرون من الخبراء المعتمدين عن الإسلام ، وإن كانت معارضتهم لما هو شائع بصفة عامة هى التى تحدد دورهم فى المجتمع ، وهؤلاء هم المناضلون المناهضون للحرب والإمبريالية ، ورجال الدين المنشقون ، والمفكرون والمعلمون الراديكاليون وهلم جرا . ونظرتهم إلى الإسلام لا يكاد يربطها شئ بمذهب المستشرقين ، وإن كان بعضهم قد تأثر بالاستشراق الثقافى الشائع فى كل مكان فى الغرب . ومع ذلك - إذا أخذنا رجلاً مثل أ. ف. ستون مثلاً- فسوف نجد بعض العوامل التى تخفف من التشكك والنفور الثقافى من الإسلام مثل إدراك طبيعة الإمبريالية ، وهو الإدراك الذى تنجم عنه مشاعر أقوى وأصلب ، ومثل إدراك طبيعة المعاناة البشرية سواء كان من يكابدونها من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين . وقد تفرد ستون بالتنبؤ بعواقب استمرار الولايات المتحدة فى مناصرة الشاه بعد الثورة ، ولقد كان أمثاله ، لا الخبراء الحكوميين أو الأكاديميين فى شئون إيران ، هم الذين نادوا باتخاذ سياسات المصالحة مع النظام الثورى .

وأما ما يدعو للإعجاب بهؤلاء الأشخاص فهو أنهم لا يحملون شهادات خبرة رسمية بالإسلام ولكنهم استطاعوا رغم

ذلك ، فيما يبدو ، أن يتفهموا ديناميات معينة داخل عالم ما بعد الاستعمار ومن ثم داخل مناطق أكبر من العالم الإسلامي . وأما التقسيمات الجديرة بالاهتمام في نظريهم فتقوم على أساس الخبرة البشرية لا على أساس 'العناوين' التي تحد من القدرة على التفكير مثل "العقل الإسلامي" أو "الشخصية الإسلامية" . زد على ذلك أن لديهم اهتماماً حقيقياً بمبدأ التبادل والمبادلات ، واختاروا عامدين أن يتجاوزوا ما رسمته الحكومات من خطوط صارمة للعداوة بين الشعوب . ويخطر على البال هنا أساساً قيام رامزي كلارك بزيارة طهران ، والدور الذي يتسم بالشجاعة الذي نهض به في أحلك أيام الأزمة الإيرانية أفراد مثل ريتشارد فولك ، ووليم سلون كوفين الابن ، ودون لوس ، وغيرهم ممن لا يحصيهم العد ، إلى جانب بعض المنظمات مثل لجنة خدمة الأصدقاء ، ومثل منظمة "رجال الدين والعلمانيين الذين يعنيههم الأمر" وغيرها من المجموعات المماثلة . وعلينا أن نضيف إلى هذا الحشد من المنشقين شتى المجلات والمطبوعات ووكالات الأنباء البديلة ، ومن بينها سبعة أيام والأم جونز ، وفي هذا العصر ، والجاردريان ، ووكالة أنباء المحيط الهادئ ، والمسيحية والأزمة ، وهي التي فتحت صفحاتها وأتاحت مواردها للآراء المعارضة للتيار الرسمي في قضية إيران ، ونسبة أقل ، مع الأسف ، في قضية الإسلام . وقد تكررت الظاهرة نفسها في أوروبا .

وأما أهم ما تتسم به هذه المجموعات الثلاث في رأيي فهو

أنها تعتبر المعرفة ، أساساً ، مطلباً يسعى المرء جاهداً إلى تحقيقه ومجالاً لاختلاف الآراء ، لا مجرد ترديد سلبى للحقائق والآراء ”المقبولة“ . والصراع بين هذه النظرة ، فى حدود ما يترتب عليها من تأثير فى موقفنا إزاء الثقافات الأخرى ، وما يترتب عليها من تأثير فى المسائل السياسية الأوسع نطاقاً ، وبين المعرفة المتخصصة المؤسسية التى تتبناها القوى المهيمنة فى المجتمع الغربى المتقدم ، صراع بالغ الأهمية . فهو يتخطى ويتجاوز كثيراً تساؤلنا عما إذا كان أحد الآراء يؤيد الإسلام أو يعارضه ، وعما إذا كان المرء يتمتع بالوطنية أو يتصف بالخيانة . فكلما ازداد ترابط عالمنا واشتد تشابك أطرافه ، زاد استحسان (وازدادت ضرورة) الرقابة على الموارد المحدودة ، والمناطق الاستراتيجية والأعداد الكبيرة من السكان . وأما الحرص على تغذية المخاوف من الفوضى والتشتت فمن الأرجح أن يؤدى إلى ”قولة“ الآراء وزيادة التشكك فى العالم ”الخارجى“ ، ويصدق هذا على العالم الإسلامى مثلما يصدق على الغرب . وفى تلك المرحلة ، التى بدأت الآن فعلاً، سوف ينهض ’إنتاج‘ المعرفة ونشرها بدور رئيسى حاسم بصورة مطلقة . لكنه حتى يحين موعد تفهمنا للمعرفة فى صورها الإنسانية والسياسية باعتبارها شيئاً نكتسبه لفائدة التعايش والترابط، لا من حيث ارتباطها بأجناس أو أمم أو طبقات أو أديان معينة ، فلن ييشر المستقبل بالخير .

ثانياً: المعرفة والتفسير :

تعتبر جميع المعارف الخاصة بالمجتمع البشرى ، لا المعارف الخاصة بالعالم الطبيعى ، من المعارف التاريخية ، ومن ثم فهي تعتمد على الأحكام والتفسيرات . ولكن هذا لا يعنى عدم وجود الحقائق أو البيانات ، ولكنه يعنى أن الحقائق تكتسب أهميتها من المعنى الذى تكتسبه فى التفسير . فلا يختلف اثنان حول الحقيقة التى تقول إن نابليون قد وجد وعاش فعلاً وإنه كان امبراطوراً فرنسياً ، ولكن الخلافات التفسيرية كثيرة حول ما إذا كان حاكماً عظيماً أو حاكماً جلب مصائب من لون ما لفرنسا . وأمثلة هذه الخلافات هى المادة التى تشكل منها الكتابة التاريخية وتُستقى منها المعرفة التاريخية . فالتفسيرات تعتمد كثيراً على شخص المفسر ، وعلى من يتوجه إليه هذا المفسر بالخطاب ، وعلى الغرض الذى يبغي تحقيقه من هذا التفسير ، وعلى اللحظة التاريخية التى يقوم فيها بالتفسير . وبهذا المعنى يمكن وصف جميع التفسيرات بأنها تخضع للسياق أو بأنها سياقية ، فهي تقع فى سياق أوضاع ترتبط بها ، ومن ثم فعلاقة هذا السياق التفسير علاقة ارتباطية^(٢٩) . والسياق يرتبط بما يقوله المفسرون الآخرون أيضاً ، فقد يؤكد صحته ، أو يطعن فيها ، أو يمثل استمراراً لما جاء به المفسرون الآخرون . ولا يوجد تفسير دون سوابق أو رابطة ما بغيره من التفسيرات . وهكذا فكل من يكتب كتابة جادة عن الإسلام، أو الصين، أو شيكسبير ، أو ماركس ، لابد له أن يأخذ فى اعتباره،

بصورة ما ، ما سبق أن قيل فى هذه الموضوعات ، ولو اقتصر السبب على رغبة الكاتب فى ألا يبدو ما كتبه غير ذى صلة بالموضوع أو من باب الحشو الذى لا لزوم له . ولا توجد أى كتابة (بل ولا يمكن أن تكون) جديدة إلى الحد الذى يهبها صفة الأصالة الكاملة ، فالكتابة عن المجتمع البشرى ليست حلولاً لمسائل فى الرياضيات ومن ثم فليس للمرء أن يطمح إلى تحقيق الأصالة 'الجزرية' الممكنة فى ذلك العلم .

وهكذا فإن المعرفة بالثقافات الأخرى تتعرض بصفة خاصة لعدم الدقة، وهى سمة 'غير علمية' كما تخضع لظروف التفسير. ومع ذلك فلنا نقول بصفة غير قطعية إن المعرفة بإحدى الثقافات الأخرى ممكنة ، ومن المهم أن نضيف أنها مستحبة ، إذا ما توافر شرطان اثنان ، وهما ، بالمناسبة ، عين الشرطين اللذان لا يتوافران اليوم فى دراسات الشرق الأوسط أو فى الدراسات الإسلامية بصفة عامة . أما الشرط الأول فهو أن على الدارس أن يشعر أنه مسئول أمام الثقافات والأشخاص الذين يدرسهم وأنه على علاقة 'غير جبرية' معهم . وكما ذكرت آنفاً ، كان معظم ما عرفه الغرب عن العالم غير الغربى قد عرفه فى إطار الاستعمار ، ومن ثم فإن الباحث الأوروبى كان يتناول موضوعه من موقع السيطرة العام ، ويقول ما يقوله عن موضوعه دون الرجوع رجوعاً يُعتدّ به إلى ما قاله غيره من غير الباحثين الأوربيين . ولقد سبق لى تعديد الأسباب ، فى هذا الكتاب وفى الاستشراق ، التى

جعلت المعرفة بالإسلام والشعوب الإسلامية تنطلق بصفة عامة لا من موقف سيطرة ومواجهة فحسب بل أيضاً من موقف نفور ثقافى . فالتعريف السلبي للإسلام اليوم يقول إنه القوة التى يختلف الغرب معها اختلافاً جذرياً ، ومن شأن هذا التوتر أن ينشئ إطاراً يحد بصورة 'جذرية' كل معرفة بالإسلام . وما دام هذا الإطار قائماً استمر الجهل بالإسلام باعتباره خبرةً حيوية يعيشها المسلمون . ويصدق هذا ، للأسف ، وبصفة خاصة فى الولايات المتحدة ، وكذلك ، ولو إلى درجة أقل قليلاً ، فى أوروبا .

والشرط الثانى يستكمل الشرط الأول وينفى به . فالمعرفة بدنيا المجتمع ، على النقيض من المعرفة بالطبيعة ، هى فى أساسها ما دأبتُ على وصفه بالتفسير : وهى تكتسب مكانة المعرفة بشتى الوسائل ، بعضها فكرى ، والكثير منها اجتماعى بل وسياسى . والتفسير أولاً وقبل كل شئ شكل من أشكال التكوين والإنشاء أى إنه يعتمد على نشاط عملى إرادى من جانب العقل البشرى ، فهو يصوغ ويشكل ما يسترعى انتباهه بحرص ودراسة . ومثل هذا النشاط يجرى ، بالضرورة ، فى وقت ومكان محددين ، ويقوم به فرد فى موقع محدد ، له خلفيته المحددة ، وفى سياق أوضاع معينة ، لتحقيق سلسلة من الغايات الخاصة . ومن ثم فإن تفسير النصوص ، وهو الذى تبنى عليه أساساً معرفتنا بالثقافات الأخرى ، لا يجرى فى مختبرات يتوافر لها 'التأمين' العلمى

المعرفة والسلطة ■

الإكلينيكي ، ولا يطمح إلى تحقيق نتائج موضوعية ، بل هو نشاط اجتماعي يرتبط بروابط متشابكة معقدة بسياق الأوضاع التي نشأ فيها أول ما نشأ ، وهذا السياق هو الذي قد يقرر أنه جديرٌ باكتساب مكانة المعرفة وقد يرفضه استناداً إلى أنه لا يلائم تلك المكانة . ومن المحال أن يتجاهل التفسير سياق هذه الأوضاع ، أو أن يكتمل التفسير دون تفسيرٍ لتلك الأوضاع .

والواضح أن بواعث الإزعاج 'غير العلمية' مثل المشاعر والعادات والأعراف والتداعيات والقيم تعتبر جزءاً لا يتجزأ من أي تفسير ، فكل مفسر قارئ ، ولا يوجد من يمكن أن نعتبره قارئاً محايداً أو خالياً من القيم ، أو بعبارة أخرى ، كل قارئ يجمع بين ذاته الخاصة وبين انتمائه إلى مجتمع ما ، وتربطه روابط من شتى الألوان والأشكال بذلك المجتمع . والمفسر في عمله يخوض غمار مشاعر قومية مثل الوطنية أو النُّعرة القومية وأحاسيس شخصية أخرى مثل الخوف أو اليأس ، ولا بد من ثمّ أن يحاول بأسلوبٍ منضبط استعمال العقل والمعلومات التي اكتسبها من التعليم الرسمي (وهي التي تمثل في ذاتها جهداً مديداً في التفسير) حتى يصل إلى مرحلة الفهم . أي إنه لا بد من بذل جهد كبير لاختراق الحواجز القائمة بين سياق أوضاع معينة ، وهو السياق الخاص بالمفسر ، وسياق أوضاع أخرى ، وهو السياق الذي كان قائماً عندما وُحِثَما كُتِبَ ذلك النص . وهذا الجهد الإرادي الذي يبذله القارئ واعياً ، أي جهد تخطي المسافات والحواجز الثقافية ،

هو الذى يمكنه من معرفة المجتمعات والثقافات الأخرى - وهو الذى يحد فى الوقت نفسه من تلك المعرفة . ففى تلك اللحظة يفهم المفسر نفسه فى سياقه الذاتى ، ويفهم النص فى السياق الخاص به ، أى فى السياق الإنسانى الذى نشأ النص فيه . ولن يتأتى هذا إلا من خلال الوعى بالذات الذى يغذو الوعى بما هو بعيد وأجنبى وإن كان بشرياً على كل حال . ولا أظننا فى حاجة إلى تبيان أن هذا الجهد كله لا علاقة له بما يشير إليه المستشرق التقليدى من وجود "معرفة جديدة تختلف اختلافاً كاملاً" أو بما يذكره الأستاذ بايندر عن "المباحث العلمية" التى تصحح نفسها بنفسها .

ولابد من ذكر عنصر آخر من عناصر هذا الوصف ، الذى يتسم بقدر ما من التجريد ، لجهد التفسير الذى يصل المرء فى نهايته إلى المعرفة ، وهى التى لا تتسم بالثبات والاستقرار : من المحال أن يقدم أحد على التفسير الذى يؤدى إلى الفهم ثم إلى المعرفة دون اهتمام شخصى . وقد يبدو ذلك من أشد البديهيّات ابتداءً ، ولكن هذه الحقيقة الواضحة إلى حد كبير هى التى عادةً ما تتعرض للتجاهل أو الإنكار . فالباحث الأمريكى الذى يقرأ ويفسر قصة طويلة معاصرة كتبت باللغة العربية أو اليابانية يبدل فى "الاشتباك" مع موضوع أجنبى جهداً يختلف كل الاختلاف عن جهد الكيميائى فى تفسير معادلة كيميائية . فالعناصر الكيميائية لا تثير المشاعر فى ذاتها ، ولا "تشتبك" مع الأحاسيس البشرية

■ المعرفة والسلطة ■

للشخص ، ولو أننا قد نجد أن هذه العناصر ربما أثارت تداعيات عاطفية لدى العالم لأسباب لا تتصل بهذه العناصر ذاتها من قريب أو بعيد . والعكس هو الصحيح فيما يمكن أن نطلق عليه صفة التفسير الإنساني ، وهو يبدأ فعلاً ، وفقاً لما يقوله الكثيرون من 'المنظرين' ، بإدراك أهواء المفسر ، والإحساس بأنه غريب عن النص الذي يفسره وهلم جراً . ولقد كتب هانز-جورج جادامار يقول :

يتأهب كل من يحاول أن يفهم نصاً من النصوص لما سوف يخبره به ذلك النص ، ولذلك فإن كل ذهن مدرّب على التفسير لابد أن يكون واعياً ، منذ البداية ، بصفة الجِدّة في ذلك النص . ولكن ذلك اللون من الوعي لا يعنى " الحياد " إزاء المادة المطروحة ولا إلغاء ذات القارئ ، لكنه يعنى أن يتمثل القارئ واعياً أهواء ومعانيه المسبقة لأي المعاني والتفسيرات القائمة سلفاً في ذهن نتيجة الخبرات السابقة وأهم ما في الأمر هو أن يكون القارئ على وعى بانحيازه الخاص ، بحيث يقدم النص نفسه إليه بكل ما فيه من جدّة ، ويتمكن القارئ بذلك من تأكيد صدق النص بالرجوع إلى المعاني المسبقة في ذهنه (٣٠) .

وهكذا فإن أول ما ينبغي أن يتوافر الوعي به عند قراءة نص أنتجته ثقافة أجنبية هو المسافة التي تفصله عنا ، والشرط الرئيسي

لوجود هذه المسافة (الزمنية والمكانية) هو ، دون مبالغة ، وجود المفسر في زمنه ومكانه ، وإن لم يقتصر الشرط على ذلك . وكما سبق أن رأينا ، يقوم المنهج المتبع في دراسات المستشرقين أو في ”دراسات المنطقة“ على معادلة المسافة بالسلطة ، أى على إدراج عنصر الطابع الأجنبي للثقافة النائية في قواعد الكتابة الأكاديمية التى توحى بأنها المرجع الموثوق به ، والتى تتمتع بالمكانة الاجتماعية للمعرفة ، دون اعتراف بما فرضه ذلك الطابع الأجنبي على المفسر ، ودون إقرار بهيكل السلطة الذى مكّن المفسر من أداء عمله . والذى أعنيه ببساطة هو أنه لا يكتب اليوم كاتب في الغرب شيئاً عن ”الإسلام“ ، دون استثناء تقريباً ، وهو يدرك بوضوح أن ذلك ”الإسلام“ يعتبر ثقافة معادية ، وأن أى شيء يقوله كاتب محترف عن الإسلام يقع في منطقة نفوذ الشركات والحكومة ، وأن كلا من هذين يلعب دوراً بالغ الضخامة في إخراج هذه التفسيرات ، ومن بعدها المعرفة بالإسلام ، وجعلها ”في خدمة المصلحة القومية“ . وخير مثال على هذا موقف لينارد بايندر ، في الحجة التى قمت بتحليلها آنفاً ، إذ إنه يشير إلى هذه المسائل ثم يجعلها تختفى في الجملة التى يعرب فيها عن التبجيل لروح المهنة و”المباحث العلمية“ التى تعتبر وظيفتها الجماعية الأسلوب الفعال القادر على رفض كل ما من شأنه المساس بقناع الموضوعية العقلانية الذى تضعه على وجهها . وهذا مثال على المعرفة المقبولة اجتماعياً التى تمحو الخطوات التى أدت إلى إنتاجها .

ولنزد الآن من إيضاح معنى "الاهتمام" باعتباره جانباً من جوانب التفسير بأمثلة عملية . فالغربي لا يتصادف أن يهتم بالإسلام أو بالثقافة الإسلامية أو المجتمع الإسلامى ، والمواطن الذى ينتمى إلى دولة صناعية غربية اليوم لا يلتقى بالإسلام إلا بسبب أزمة سياسية نفطية ، أو بسبب التركيز الإعلامى المكثف ، أو بسبب التقاليد العريقة للخبراء "بالإسلام" ، أى للمستشرقين، فى شرح الإسلام وإيضاحه فى الغرب . وانظر إلى أى باحث شاب فى التاريخ يرغب فى التخصص فى التاريخ الحديث للشرق الأوسط . إنه يبدأ دراسته للموضوع فى ظل تأثير العوامل الثلاثة المذكورة ، وكلها يشترك فى تشكيل وصياغة السياق الذى يدرك الباحث فيه "الحقائق" أى ما يفترض أنه البيانات الأولية . وبالإضافة إلى ذلك تتدخل عوامل أخرى ، مثل التاريخ الشخصى للفرد ، وحساسيته ، ومواقفه الذهنية ، وهى فى مجموعها تشكل قدراً كبيراً من اهتمامه بالموضوع : ونرى التوازن بين حب الاستطلاع الخالص وبين الأمل فى حصول على وظيفة مستشار بوزارة الخارجية الأمريكية أو بإحدى شركات النفط ، والرغبة فى تحقيق الشهرة فى البحث العلمى ، أو فى "إثبات" أن الإسلام نظام ثقافى رائع (أو حتى رهيب) والطموح فى أن يكون جسراً بين هذه الثقافة وتلك ، والرغبة فى المعرفة . وإلى جانب ذلك نرى أن النصوص والأساتذة والتقاليد البحثية ، واللحظة التاريخية المعينة، قد بدأت تطبع بطابعها ما سوف يدرسه الباحث الصغير.

ولابد من النظر إلى أمور أخرى أيضاً في نهاية المطاف . فإذا كان الباحث قد درس تاريخ حيازة الأرض في سوريا في القرن التاسع عشر ، مثلاً ، فالأرجح أن تكون لدراسة الموضوع ، مهما تبلغ درجة جفافها و” موضوعيتها“ ، أهمية للسياسة المعاصرة ، خصوصاً للمسئول الحكومي الحريص على تفهم ديناميات السلطة التقليدية (وهي التي ترتبط بحيازة الأرض) في سوريا المعاصرة .

لكنه إذا حدث أولاً أن بذل فرد بعض الجهد للاتصال الطوعي بالثقافة النائية ، وحدث ثانياً أن أدرك هذا ’ المفسر‘ كل الإدراك طيبة سياق الأوضاع التي يتولى فيها التفسير (أى إذا فهم أن المعرفة بثقافة أخرى ليست مطلقة بل نسبية أى تعتمد إلى حد ما على السياق الذى نشأت فيه) فالأرجح أن يتبين المفسر أن النظرة المعتمدة إلى الإسلام وإلى الحضارات ” الأجنبية“ نظرة محدودة وقاصرة إلى حد بعيد . وفى مقابل هذا نجد أن المعرفة بالإسلام ، من وجهة النظر المضادة ، تقطع فيما يبدو شوطاً بعيداً على طريق التغلب على أوجه القصور فى النظرات المعتمدة . ورفض الباحثين المضادين لضرورة إخضاع المعرفة بالإسلام للمصالح السياسية الحكومية هو الذى يجعلهم يؤكدون التوافق بين المعرفة والسلطة . وفى غمار ذلك يسعون إلى إقامة علاقات بالإسلام تختلف عن العلاقات التى تأمر بها مقتضيات السلطة . والبحث عن علاقات بديلة معناه البحث عن سياقات تفسيرية أخرى ، ومن ثم يتكون لديهم وعى منهجى أقرب كثيراً إلى الدقة .

ومع ذلك فلن نستطيع أن نجد أبداً مخرجاً أو مهرباً مُيسراً مما وصفه بعض النقاد بأنه دائرة التفسير المغلقة . ونقول بإيجاز إن المعرفة بدنيا المجتمع من المحال أن تتفوق يوماً ما على التفسيرات التي تقوم عليها . فمعرفةنا بأى ظاهرة بالغة التعقيد والمراوغة ، مثل الإسلام ، تأتي من خلال نصوص وصور وخبرات لا تجسد الإسلام تجسيدا مباشرا حاضرا (وهو الذى لا نفهمه إلا من خلال الأمثلة عليه) بل تعتبر تفسيرات له أو حالات تمثله . وبعبارة أخرى ، تأتي المعرفة بالثقافات أو المجتمع أو الأديان الأخرى من خلال التمازج بين الأدلة غير المباشرة وبين الوضع الشخصى للباحث الفرد ، وهو الذى يضم الزمن والمكان والمواهب الشخصية والأوضاع التاريخية ، إلى جانب الظروف السياسية العامة . وأما ما يجعل تلك المعرفة دقيقة أو غير دقيقة ، أو يقطع بأنها فاسدة أو صحيحة أو أدنى من سواها فيتعلق أساسا بمتطلبات المجتمع الذى تنشأ فيه هذه المعرفة . ويوجد ، بطبيعة الحال ، مستوى بسيط للصدق الواقعى يستحيل دونه وجود أى معرفة ، فكيف يتسنى للمرء مثلاً أن "يعرف" أحد شئاً عن الإسلام فى المغرب دون أن يعرف اللغة العربية ، ولغة البربر ، ودون الإحاطة ببعض المعلومات عن البلد والمجتمع الذى يعيش فيه ؟ أما إذا تجاوزنا هذا المستوى فسوف نرى أن المعرفة بالإسلام فى المغرب لا تنحصر فى مجرد اتفاق ما يوجد هناك مع ما نراه هنا ، أى التوافق بين شئٍ لا حياة فيه وبين من ينظر إليه ، بل هى تفاعل ما بين الاثنين

(عادةً) لتحقيق غرض هنا : مثل كتابة مقال متخصص ، أو إعداد محاضرة ، أو إسداء المشورة لأحد واضعى السياسات . فإذا تحقق الغرض اتجه الرأى إلى أن المعرفة قد توافرت . وتوجد أوجه انتفاع أخرى بالمعرفة (ومن بينها الانتفاع بعدم نفعها ذاته) ولكن الأوجه الأساسية هى توظيفها أو التوصل بها لتحقيق غاية ما .

وهكذا فإن ما نعتبره معرفة يتكون فى الواقع من عناصر شديدة التنوع ، وتحكم فيها الحاجة الخارجية إليها أكثر مما تحكم فيها الحاجة الداخلية (والتي نادراً ما تكون داخلية على أية حال) . وهكذا فإن دراسة الصفوة أو النخبة الإيرانية فى ظل نظام الحكم المهلوى التى يقوم بإعدادها دارس أكاديمى أمريكى ذو مؤهلات معتمدة قد تكون ذات نفع لواضعى السياسات الذين يتصدون للتعامل مع ذلك النظام الإمبراطورى ، ولكن الخبير بالشئون الإيرانية الذى لا يأخذ بالنظرة 'المعتمدة' سيجد هذه الدراسة ذاتها غاصة بالأخطاء والأحكام الفاسدة^(٣١) . ولكن معايير الحكم التى تختلف اختلافات جذرية فيما بينها لا تعنى أننا فى حاجة إلى معايير أفضل ، ومطلقات أشد ثباتاً ، بل عليها أن تذكرنا أن من طبيعة التفسير أن تعود بنا إلى المشكلات التى يثيرها التفسير نفسه ، وإلى طرح الأسئلة التالية : لمن ، ولأى غرض ، ولماذا نجد أن هذا التفسير أشد إقناعاً فى هذا السياق من سواه ؟ إن التفسير والمعرفة ، بل ، كما قال ماثيو أرنولد ، والثقافة نفسها ، دائماً ما تكون ثمرة للمنازعات لا هبة أنعمت بها السماء علينا !

وهكذا فإن القضية التي أطرحها في هذا الكتاب تقول إن التغطية 'المعتمدة' للإسلام التي نجدها في الدوائر الأكاديمية ، ترتبط بما نجده في الحكومة وفي أجهزة الإعلام بروابط متداخلة ، وإنها أشد انتشاراً وأشد ، فيما يبدو ، إقناعاً ونفوذاً في الغرب عن أى "تغطية" أو تفسير آخر . ومن الممكن أن يعزى نجاح هذه التغطية إلى النفوذ السياسى للأشخاص والمؤسسات التي تتولاها وليس بالضرورة إلى صدقها أو دقتها . كما أقمت الحجة على أن هذه التغطية قد ساعدت في تحقيق أغراض لا تتصل بالمعرفة الفعلية للإسلام إلا بأوهن الروابط . وكانت النتيجة هي الانتصارات لا لنوع خاص من المعرفة بالإسلام فحسب بل لتفسير خاص لم يسلم على أى حال من الطعن فيه ، ولم تثبت حصانته ضد اختراق الأسئلة التي وجهتها الأذهان المفتحة الوقائية 'غير المعتمدة' !

ومن ثم فقد يكون من الخير أن أحداً لم يستطع الانتفاع "بالإسلام" بصفة خاصة في تفسير نشوب الحرب بين إيران والعراق ، تماماً مثلما لم تُجدِ الأفكار الخاصة "بالعقلية الزنحية" في تفسير خبرات الأمريكيين من ذوى البشرة السوداء في القرن العشرين . فإن هذه المفاهيم الشمولية ، بغض النظر عن الرضى النرجسى الذى يستقيه الخبير منها وكثيراً ما يعتمد فى كسب رزقه عليها ، لم تنجح فى مسايرة قوة الأحداث نفسها أو القوى المعقدة التي أدت إلى وقوع هذه الأحداث . وكانت النتيجة هي اتساع

الفجوة باطراد بين ما تؤكد هذه المفاهيم التي تفترض أو تفترض التجانس وبين ما يتسم به التاريخ الفعلى من حقائق ونقاط انقطاع أشد قوة . وأحياناً ما كنا نرى فرداً ينفذ من هذه الفجوة لي طرح أسئلة تتصل اتصالاً مباشراً بالواقع ويتوقع إجابات معقولة .

لا يستطيع أحد أن يحيط بكل شيء عن العالم الذى نعيش فيه ، وهكذا لابد أن يستمر تقسيم العمل الفكرى قائماً فى المستقبل المنظور . فالعمل الأكاديمى يتطلب هذا التقسيم ، والمعرفة نفسها تقتضيه ، وتنظيم المجتمع فى الغرب يقوم عليه ، ولكنى أعتقد أن معظم أشكال المعرفة بالمجتمع البشرى متاحة ، فى نهاية الأمر ، لذوى الإدراك السليم - وأقصد به الإدراك الذى ينشأ من الخبرات الإنسانية المشتركة - وأنه يخضع ، بل لابد أن يخضع حقاً ، لـلـوْنِ ما من التقييم النقدى . وهاتان الصفتان ، أى الإدراك السليم والتقييم النقدى ، هما ، فى آخر المطاف ، من الصفات الاجتماعية والفكرية العامة المتاحة للجميع ويستطيع كل إنسان غرسها وتنميتها فى ذاته ، وليست من امتيازات طبقة خاصة أو حكراً على حفنة من ”الخبراء” المعتمدين . ومع ذلك فلا بد من الدراسة الخاصة إن أراد المرء أن يتعلم اللغة العربية أو الصينية ، أو إذا أراد المرء أن يفهم معنى التيارات الاقتصادية والتاريخية والسكانية . والجامعة هى المكان الذى يتيح مثل تلك الدراسة ، ولا شك عندى فى ذلك على الإطلاق . وأما المتاعب فتتسأ حين تؤدى الدراسة إلى تكوين طوائف مغلقة ، يفقد أعضاؤها الصلة

بحقائق المجتمع الواقعية ، والحصافة ، والمسئولية الفكرية ، فيعملون على تعزيز الطائفة بأى ثمن أو يجعلونها ، طائعين ودون طرح أسئلة ، فى خدمة السلطة . وفى كلا الحالين ينتهى الأمر بالمجتمعات أو الثقافات الأجنبية ، مثل الإسلام ، إلى التغطية بالمعنى الحرفى أكثر مما تنال من الإيضاح أو الفهم . بل إننا نواجه هنا خطر اختراع أكاذيب جديدة ، وترويج أنواع لم يسمع بها أحد من "المعلومات" الخاطئة .

لم يتوقف سيل الأدلة المتاحة للجميع ، فى أى لحظة تقريباً على امتداد السنوات القليلة الماضية ، على أن العالم غير الغربى بصفة عامة ، والإسلام بصفة خاصة ، لم يعودا يلتزمان بالأنساق التى وضعها علماء الاجتماع والمستشرقون وخبراء المناطق من أمريكيين وأوروبيين فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة . ومن الصحيح قطعاً أن العالم الإسلامى بصفة عامة لا يتخذ مواقف العداء الكامل لأمريكا والاتحاد السوفيتى ولا هو موحد فيما يفعله بل ولا يمكن التنبؤ بما يفعل . ولم أحاول أن أقدم وصفاً كاملاً لهذه التغييرات ولكننى قلت إن معناها هو بروز حقائق واقعية جديدة 'غير منتظمة' فى العالم الإسلامى . ومن الصحيح أيضاً أن مظاهر "عدم انتظام" مشابهة قد برزت فى المناطق الأخرى التى تحررت من الاستعمار فى عالم اليوم ، وهو ما عكّر صفو الهدوء النظرى الذى ساد الحديث عنه فى السنوات السابقة . ومن الحق ، بطبيعة الحال ، إعادة تأكيد وترديد

القبالب القديمة عن "التخلف" و"العقلية الأفروآسيوية" ، ولكن ربط هذه القبالب سببياً (أى إرجاع أسبابها إلى) ما يقال عن التدهور المحزن للغرب ، والنهائة المؤسفة للاستعمار ، والتقلص الذى يؤسى له للقوة الأمريكية ، معناه - ولا بد أن أصوغ ذلك بأشد لهجة ممكنة - حمق فاحش . ولنقل وحسب إنه من المحال إرغام مجتمعات تبعد آلاف الأميال مكاناً وهويةً عن عالم الأطلسى أن تلتزم بما نريده منها . ويمكن اعتبار ذلك حقيقةً محايدة حتى دون اعتبارها (كما أعتبرها أنا) من الحقائق المفيدة . وعلى أى حال فإن الخطر المتمثل فى الجمع بين فقدان إيران وتدهور الغرب فى أحاديثنا هون أن نغلق فى وجوهنا إمكانية معظم سبل العمل - إلا صعود نجم الغرب واسترجاع أماكن معينة مثل إيران والخليج . وأما النجاح الذى أصابه فى الآونة الأخيرة أولئك الخبراء الذين ينعون فى غمار عملهم نهائة السيطرة البريطانية أو الأمريكية أو الفرنسية على العالم الإسلامى فيعتبر ، فى رأى ، شهادةً مخيفة على ما قد يختفى داخل عقول واضعى السياسات ، وعلى ما يغذوه فى الحقيقة هؤلاء "الخبراء" ، عن وعى أو دون وعى ، من حاجة عميقة الجذور إلى العدوان وإعادة الغزو^(٣٢) . وأما وجود البعض من أبناء تلك البلاد 'المطيعين' الذين يقومون فى العزف فى الفرقة الموسيقية نفسها فينتمى إلى التاريخ البذئ للتعاون مع الغزاة وليس (كما يزعم البعض) من دلائل النضج الجديد فى العالم الثالث .

ولو لم تكن أغراض الغزو المذكورة كامنة ما قيل ما يقال بصفة عامة عن "الإسلام" في الغرب اليوم . وعلينا فوراً تقديم البديل : فإذا كان تعبير "الإسلام" لا يحمل لنا من الدلالات إلا ما يقل كثيراً عما ينبغي أن يحمله ، وإذا كانت 'التغطية' باستخدام هذا التعبير تغطى ، بمعنى تُخفى ، أكثر مما تظهر ، فأين ع...انا ، أو بالأحرى كيف نستطيع أن نجد المعلومات التى لا تحُضُّ على أحلام جديدة بالقوة أو تُنمّي المخاوف وضروب التحيز القديمة ؟ لقد ذكرت فى هذا الكتاب ووصفت أحياناً أنواع البحث التى تعود بأجلّ الفائدة فى هذا الصدد ، وقلت إن نقطة الانطلاق فيها جميعاً هى اعتبار أن كل معرفةٍ تفسيرٌ ، وأن على التفسير أن يكون شديد الحساسية فيما ينتهجه من مناهج وما يضعه من أهداف حتى يتحلّى باليقظة وبالتراحم الإنسانى ، وحتى يصل أيضاً إلى المعرفة . ولكن كل تفسير للثقافات الأخرى ، وخاصة للإسلام ، ينطوى أساساً على الاختيار الذى يواجهه الباحث الفرد أو المفكر الفرد : هل يسخر الفكر لخدمة السلطة أم لخدمة النقد والمجتمع والحق الأخلاقى . وهذا الاختيار يجب أن يكون أولى خطوات التفسير اليوم ، ولا بد أن يؤدى إلى اتخاذ قرار ما ، لا إلى التأجيل وحسب . وإذا كان تاريخ المعرفة بالإسلام فى الغرب قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالغزو والهيمنة ، فلقد آن الأوان لقطع هذه الروابط قطعاً مبرماً . ولا نستطيع مهما قلنا أن نبالغ فى تأكيد ضرورة ذلك . هذا وإلا فسوف نجد أننا لا نواجه التوتر فقط بل

وربما الحرب أيضاً ، بل سوف نقدم إلى عالم المسلمين ، وإلى شتى مجتمعاتهم ودولهم ، احتمال نشوب حروب كثيرة ، ومعاناة لا يتصورها العقل ، وفورات تأتي بالفواجع ، وليس أقلها خطراً مولد نوع من ”الإسلام“ المتأهب تماماً للنهوض بالدور الذي أعدته له قوى الرجعية ، والتزمت واليأس . وحتى لو حكمنا بأشد المعايير إغراقاً في التفاؤل فلن نجد ما يثلج الصدر في هذا الاحتمال .



■ قائمة المراجع الأجنبية ■

Notes

INTRODUCTION

1. Edward W. Said, *Orientalism* (New York: Pantheon Books, 1978; reprint ed., New York: Vintage Books, 1979).
 2. Edward W. Said, *The Question of Palestine*. (New York: Times Books, 1979; reprint ed., New York: Vintage Books, 1980).
 3. For a reference to this see Robert Graham, "The Middle East Muddle," *New York Review of Books*, October 23, 1980, p. 26.
 4. J. B. Kelly, *Arabia, The Gulf, and the West: A Critical View of the Arabs and Their Oil Policy* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1980), p. 504.
 5. Thomas N. Franck and Edward Weisband, *Word Politics: Verbal Strategy Among the Superpowers* (New York: Oxford University Press, 1971).
 6. See Paul Marijnis, "De Dubbelrol van een Islam-Kennen," *NRC Handelsblad*, December 12, 1979. Marijnis's article is a report of research done on Snouck Hurgronje by Professor van Koningveld of the Theological Faculty at the University of Leiden. I am grateful to Jonathan Beard for bringing this item to my attention, and to Professor Jacob Smit for his help in translating it.
 7. For a very full account of the over-all context, see Noam Chomsky and Edward S. Herman, *The Washington Connection and Third World Fascism* and *After the Cataclysm: Postwar Indochina and the Reconstruction of Imperial Ideology*, vols. 1 and 2 of *The Political Economy of Human Rights* (Boston: South End Press, 1979). For a valuable analysis of the nineteenth-century picture see Ronald T. Takaki, *Iron Cages: Race and Culture in 19th Century America* (New York: Alfred A. Knopf, 1979).
-

8. For a well-presented account of how giant corporations intervene in the university, see David F. Noble and Nancy E. Pfund, "Business Coes Back to College," *The Nation*, September 20, 1980, pp. 246-52.

CHAPTER ONE: ISLAM AS NEWS

1. See Edward W. Said, *Orientalism*, pp. 49-73.
2. See Norman Daniel, *The Arabs and Medieval Europe* (London: Longmans, Green & Co., 1975); also his earlier and very useful *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh: University Press, 1960). There is a first-rate survey of this matter, set in the political context of the 1956 Suez War, by Erskine B. Childers in *The Road to Suez: A Study of Western-Arab Relations* (London: MacGibbon & Kee, 1962), pp. 25-61.
3. I have discussed Naipaul in "Bitter Dispatches From the Third World," *The Nation*, May 3, 1980, pp. 522-25.
4. Maxime Rodinson, *Marxism and The Modern World*, trans. Michael Palis (London: Zed Press, 1979). See also Thomas Hodgkin, "The Revolutionary Tradition in Islam," *Race and Class* 21, no. 3 (Winter 1980): 221-37.
5. There is an elegant account of this theme, done by a contemporary Tunisian intellectual: see Hichem Djait, *L'Europe et l'Islam* (Paris: Éditions du Seuil, 1979). A brilliant psychoanalytic/structuralist reading of one "Islamic" motif in European literature—the scraglio—is to be found in Alain Grosrichard, *Structure du sérail: La Fiction du despotisme asiatique dans l'Occident classique* (Paris: Éditions du Seuil, 1979).
6. See Maxime Rodinson, *La Fascination de l'Islam* (Paris: Maspéro, 1980).
7. Albert Hourani, "Islam and the Philosophers of History," in *Europe and The Middle East* (London: Macmillan & Co., 1980), pp. 19-73.
8. As an instance, see the penetrating study by Syed Hussein Alatas, *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos, and Javanese from the 16th to the 20th Century and in the ideology of Colonial Capitalism* (London: Frank Cass & Co., 1977).
9. Not that this has always meant poor writing and scholarship: as an informative general account which answers principally to political exigencies and not mainly to the need for new knowledge about Islam, there is Martin Kramer, *Political Islam* (Washington, D.C.: Sage Publications, 1980). This was written for the Center for Strategic and International Studies, Georgetown University, and therefore belongs to the category of policy, not of "objective," knowledge. Another instance in the January 1980 (vol. 78, no. 453) special issue on "The Middle East, 1980" of *Current History*.

10. *Atlantic Community Quarterly* 17, no. 3 (Fall 1979): 291-305, 377-78.
11. Marshall Hodgson, *The Venture of Islam*, 3 vols. (Chicago and London: University of Chicago Press, 1974). See the important review of this by Albert Hourani, *Journal of Near Eastern Studies* 37, no. 1 (January 1978): 53-62.
12. One index of this is the report "Middle Eastern and African Studies: Developments and Needs" commissioned by the U.S. Department of Health, Education and Welfare in 1967, written by Professor Morroe Berger of Princeton, also president of the Middle East Studies Association (MESA). In this report Berger asserts that the Middle East "is not a center of great cultural achievement . . . and therefore does not constitute its own reward so far as modern culture is concerned. . . . [It] has been receding in immediate political importance to the U.S." For a discussion of this extraordinary document and the context that produced it, see Said, *Orientalism*, pp. 287-93.
13. Quoted in Michael A. Ledeen and William H. Lewis, "Carter and the Fall of the Shah: The Inside Story," *Washington Quarterly* 3, no. 2 (Spring 1980): 11-12. Ledeen and Lewis are supplemented (and supported to a degree) by William H. Sullivan, "Dateline Iran: The Road Not Taken," *Foreign Policy* 40 (Fall 1980): 175-86; Sullivan was United States ambassador to Iran before and during the revolution. See also the six-part series by Scott Armstrong, "The Fall of the Shah," *Washington Post*, October 25, 26, 27, 28, 29, 30, 1980.
14. Hamid Algar, "The Oppositional Role of the Ulama in Twentieth Century Iran," in Nikki R. Keddie, ed., *Scholars, Saints, and Sufis: Muslim Religious Institutions Since 1500* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1972), pp. 231-55. See also Ervand Abrahamian, "The Crowd in Iranian Politics, 1905-1953," *Past and Present* 41 (December 1968): 184-210; also his "Factionalism in Iran: Political Groups in the 14th Parliament (1944-46)," *Middle Eastern Studies* 14, no. 1 (January 1978): 22-25; also "The Causes of the Constitutional Revolution in Iran," *International Journal of Middle East Studies* 10, no. 3 (August 1979): 381-414; and "Structural Causes of the Iranian Revolution," *MERIP Reports* no. 87 (May 1980), pp. 21-26. See also Richard W. Cottam, *Nationalism in Iran* (Pittsburgh, Pa.: University of Pittsburgh Press, 1979).
15. This is especially true of Fred Halliday, *Iran: Dictatorship and Development* (New York: Penguin Books, 1979), which is nevertheless one of the two or three best studies of Iran done since World War II. Maxime Rodinson, in *Marxism and the Muslim World*, has nearly nothing to say about the Muslim religious opposition. Only Algar (note 14 above) seems to have been right on this point—a remarkable achievement.
16. This is the argument put forward in Edward Shils, "The Prospect

- for Lebanese Civility," in Leonard Binder, ed., *Politics in Lebanon* (New York: John Wiley & Sons, 1966), pp. 1-11.
17. Malcolm Kerr, "Political Decision Making in a Confessional Democracy," in Binder, ed., *Politics in Lebanon*, p. 209.
18. See the extraordinarily rich material found in the Moshe Sharett *Personal Diary* (Tel Aviv: Ma'ariv, 1979); Livia Rokach, *Israel's Sacred Terrorism: A Study Based on Moshe Sharett's Personal Diary and Other Documents*, intro. by Noam Chomsky (Belmont, Mass.: Association of Arab-American University Graduates [AAZG], 1980). See also the revelations about the CIA role in Lebanon by former CIA advisor Wilbur Crane Eveland, *Ropes of Sand: America's Failure in the Middle East* (New York: W. W. Norton & Co., 1980).
19. Elie Adib Salem, *Modernization Without Revolution: Lebanon's Experience* (Bloomington and London: Indiana University Press, 1972), p. 144. Salem is also the author of "Form and Substance: A Critical Examination of the Arabic Language," *Middle East Forum* 33 (July 1958): 17-19. The title indicates the approach.
20. Clifford Geertz, "The Integrative Revolution: Primordial Sentiments and Civil Politics in the New States," in *The Interpretation of Cultures* (New York: Basic Books, 1973), p. 296.
21. For an interesting description of "expert" illusions about Lebanon on the eve of the civil war, see Paul and Susan Starr, "Blindness in Lebanon," *Human Behavior* 6 (January 1977): 56-61.
22. I have discussed this in *The Question of Palestine*, pp. 3-53 and *passim*.
23. For a brilliant account of this collective delusion see Ali Jandaghi (pseud.), "The Present Situation in Iran," *Monthly Review*, November 1973, pp. 34-47. See also Stuart Schaar, "Orientalism at the Service of Imperialism," *Race and Class* 21, no. 1 (Summer 1979): 67-80.
24. James A. Bill, "Iran and the Crisis of '78," *Foreign Affairs* 57, no. 2 (Winter 1978-79): 341.
25. William O. Beeman, "Devaluing Experts on Iran," *New York Times*, April 11, 1980; James A. Bill, "Iran Experts: Proven Right But Not Consulted," *Christian Science Monitor*, May 6, 1980.
26. As opposed to scholars during the Vietnam War who made a stronger case for themselves as "scientists" willingly serving the state: here it would be good to know why Vietnam specialists were consulted (with no less disastrous results) and Iran experts not. See Noam Chomsky, "Objectivity and Liberal Scholarship," in *American Power and the New Mandarins: Historical and Political Essays* (New York: Pantheon Books, 1969), pp. 23-158.
27. See Said, *Orientalism*, pp. 123-66.
28. On the connection between scholarship and politics as it has affected

the colonial world, see *Le Mal de voir: Ethnologie et orientalisme: politique et épistémologie, critique et autocritique*, Cahiers Jussieu no. 2 (Paris: Collections 10/18, 1976). On the way in which "fields" of study coincide with national interests see "Special Supplement: Modern China Studies," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, nos. 3-4 (Summer-Fall, 1971): 91-168.

29. See Edmund Ghareeb, ed., *Split Vision: Arab Portrayal in the American Media* (Washington, D.C.: Institute of Middle Eastern and North African Affairs, 1977). For the British counterpart see Sari Nisr, *The Arabs and the English* (London: Longmans, Green & Co., 1979), pp. 140-72.

30. James Peck, "Revolution Versus Modernization and Revisionism: A Two-Front Struggle," in Victor G. Nee and James Peck, eds., *China's Uninterrupted Revolution: From 1840 to the Present* (New York: Pantheon Books, 1975), p. 71. See also Irene L. Gendzier, "Notes Toward a Reading of *The Passing of Traditional Society*," *Review of Middle East Studies* 3 (London: Ithaca Press, 1978), pp. 32-47.

31. An account of the Pahlavi regime's "modernization" is to be found in Robert Graham, *Iran: The Illusion of Power* (New York: St. Martin's Press, 1979). See also Thierry-A. Brun, "The Failures of Western-Style Development Add to the Regime's Problems," and Eric Roulau, "Oil Riches Underwrite Ominous Militarization in a Repressive Society," in Ali-Reza Nobari, ed., *Iran Erupts* (Stanford, Calif.: Iran-America Documentation Group, 1978). Also Claire Brière and Pierre Blanchet, *Iran: La Révolution au nom de Dieu* (Paris: Éditions du Seuil, 1979); this book has an interview with Michel Foucault appended to it.

32. There has been an extraordinary reluctance on the part of the press to say anything about the explicitly religious formulation of positions and policies inside Israel, especially when these are directed at non-Jews. There would be interesting material found in the Gush Emunim literature, or the pronouncements of the various rabbinic authorities, and so on.

33. See Garry Wills, "The Greatest Story Ever Told," subtitled "Blissed out by the pope's U.S. visit—'unique,' 'historic,' 'transcendent'—the breathless press produced a load of papal bull," *Columbia Journalism Review* 17, no. 5 (January-February 1980): 25-33.

34. See the excellent and exhaustive study by Marwan R. Buheiry, *U.S. Threats Against Arab Oil: 1973-1979*, IPS Papers no. 4 (Beirut: Institute for Palestine Studies, 1980).

35. This is a peculiarly American syndrome. In Europe, the situation is considerably more fair, at least as far as journalism on the whole is concerned.

36. Fritz Stern, "The End of the Postwar Era," *Commentary*, April 1974, pp. 27-35.

37. Daniel P. Moynihan, "The United States in Opposition," *Commentary*, March 1975, p. 44.

38. Robert W. Tucker, "Oil: The Issue of American Intervention," *Commentary*, January 1975, pp. 21-31.
39. Tucker, "Further Reflections on Oil and Force," *Commentary*, January 1975, p. 55.
40. In *Encounter*, 54, no. 5 (May 1980): 20-27.
41. Gerard Chaliand, *Revolution in the Third World: Myths and Prospects* (New York: Viking Press, 1977).
42. See Christopher T. Rand, "The Arabian Fantasy: A Dissenting View of the Oil Crisis," *Harper's Magazine*, January 1974, pp. 42-54, and his *Making Democracy Safe for Oil: Oilmen and the Islamic East* (Boston: Little, Brown & Co., 1975). For authoritative work on the true oil picture see John M. Blair, *The Control of Oil* (New York: Pantheon Books, 1976), and Robert Engler, *The Brotherhood of Oil: Energy Policy and the Public Interest* (Chicago and London: University of Chicago Press, 1977).
43. Ayatollah Khomeini's *Mein Kampf: Islamic Government by Ayatollah Ruhollah Khomeini* (New York: Manor Books, 1979), p. 123. For a careful, prerevolutionary critique of repression in Khomeini's Iran, see Fred Halliday, "The Revolution Turns to Repression," *New Statesman*, August 24, 1979, pp. 260-64; also his comments in *The Iranian*, August 22, 1979. See also Nikki R. Keddie, *Iran, Religion, Politics, and Society: Collected Essays* (London: Frank Cass & Co., 1980).
44. C. Wright Mills, "The Cultural Apparatus," in *Power, Politics and People: The Collected Essays of C. Wright Mills*, ed. Irving Louis Horowitz (London, Oxford, New York: Oxford University Press, 1967), pp. 405-6.
45. See Herbert I. Schiller, *The Mind Managers* (Boston: Beacon Press, 1973), pp. 24-27.
46. Herbert Gans, *Deciding What's News: A Study of "CBS Evening News," "NBC Nightly News," "Newsweek," and "Time"* (New York: Pantheon Books, 1979).
47. Gay Talese, *The Kingdom and the Power* (New York: New American Library, 1969); Harrison Salisbury, *Without Fear or Favor: The New York Times and Its Times* (New York: Times Books, 1979); David Halberstam, *The Powers That Be* (New York: Alfred A. Knopf, 1979); Gaye Tuchman, *Making News: A Study in the Construction of Reality* (New York: Free Press, 1978); Herbert I. Schiller, *Mass Communications and American Empire* (Boston: Beacon Press, 1969), *Communication and Cultural Domination* (White Plains, N.Y.: International Arts and Sciences, 1976), *The Mind Managers*; Michael Schudson, *Discovering the News: A Social History of American Newspapers* (New York: Basic Books, 1978); Armand Mattelart, *Multinational Corporations and the Control of Culture: The Ideological Apparatus of Imperialism*, trans. Michael Chanan (Brighton, Sussex: Harvester Press, 1979).

48. Robert Darnton, "Writing News and Telling Stories," *Daedalus* 104, no. 2 (Spring 1975): 183, 188, 192.
 49. This is convincingly demonstrated by Todd Gitlin, *The Whole World Is Watching: Mass Media in the Making and Unmaking of the New Left* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1980).
 50. See in particular Sacvan Bercovitch, "The Rites of Assent: Rhetoric, Ritual, and the Ideology of American Consensus," in Sam Girgus, ed., *Myth, Popular Culture, and the American Ideology* (Albuquerque: University of New Mexico Press, 1980), pp. 3-40.
 51. This is well described by Raymond Williams, "Base and Superstructure in Marxist Cultural Theory," *New Left Review* 82 (November-December 1973): 3-16.
 52. A series of recent studies dealing with American experiences involving Indians, various foreign groups, and "empty" territory make this point tellingly: see Michael Paul Rogin, *Andrew Jackson and the Subjugation of the American Indian* (New York: Alfred A. Knopf, 1975); Ronald T. Takaki, *Iron Cages*; Richard Drinnon, *Facing West: The Metaphysics of Indian-Hating and Empire-Building* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1980); Frederick Turner, *Beyond Geography: The Western Spirit Against the Wilderness* (New York: Viking Press, 1980).
 53. See the recent account of this dissimulation by Chomsky and Herman, *After the Cataclysm*.
 54. In particular see the works by Herbert Schiller and Armand Mattelart cited above, note 47.
 55. For a description of the same verbal action-reaction paradigm, see Franck and Wiesband, *Word Politics*.
 56. On the role of Western-style elites in Muslim/Arab societies, see John Waterbury and Ragaei El Mallakh, *The Middle East in the Coming Decade: From Wellhead to Well-Being?* (New York: McGraw-Hill Book Co., 1978).
 57. Rodinson, "Islam and the Modern Economic Revolution," in his *Marxism and the Muslim World*, p. 151.
 58. *Ibid.*, pp. 154-55.
 59. As a particularly noteworthy example see the recent work of Mohammed Arkoun: *Contribution à l'étude de l'humanisme arabe au IV^e/X^e siècle: Miskawayh, philosophe et historien* (Paris: J. Vrin, 1970); also *Essais sur la pensée islamique* (Paris: Maisonneuve & Larose, 1973); and "La pensée" and "La vie," in Mohammed Arkoun and Louis Gardet, *L'Islam: Hier. Demain* (Paris: Buchet/Chastel, 1978), pp. 120-247.
 60. Albert Hourani, "History," in Leonard Binder, ed., *The Study of the Middle East: Research and Scholarship in the Humanities and the Social Sciences* (New York: John Wiley & Sons, 1976), p. 117.
-

61. See the very useful analysis of this subject as an aspect of the State in dependent societies, by Egbal Ahmad, "Post-Colonial Systems of Power," *Arab Studies Quarterly* 2, no. 4 (Fall 1980): 350-63.

62. A good sense of this activity is provided for Iran by Michael M. C. Fischer, *Iran: From Religious Dispute to Revolution* (Cambridge: Harvard University Press, 1980). But see also Marshall Hodgson, *The Venture of Islam*.

63. The key ideological document is Bernard Lewis, "The Return of Islam," *Commentary*, January 1976, pp. 39-49; see my discussion of this in *Orientalism*, pp. 314-20. In comparison with Élie Kedourie, however, Lewis is mild indeed: see Kedourie's extraordinary attempt to show that Islamic resurgence is principally a variant of "Marxism-Leninism" in his *Islamic Revolution*, *Salisbury Papers* no. 6 (London: Salisbury Group, 1979).

64. W. Montgomery Watt, *What Is Islam?* 2nd ed. (London and New York: Longmans, Green & Co., 1979), pp. 9-21.

65. There is an especially cogent description of this in Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798-1939* (1962; reprint ed., London and Oxford: Oxford University Press, 1970).

66. For a recent, albeit partisan, instance see Adonis (Ali Ahmad Said), *Al-Thabit wal Mutahawwil*, vol. 1, Al-Usul (Beirut: Dar al Awdah, 1974). See also Tayyib Tizini, *Min al-Turath ilal-Thawra: Hawl Nathariya Muqtaraha fi Qadiyyat al-Turath al-'Arabi* (Beirut: Dar Ibu Khaldum, 1978). There is a good account of Tizzini's work by Salch Omar, *Arab Studies Quarterly* 2, no. 3 (Summer 1980): 276-84. For a recent European view of the matter see Jacques Berque, *L'Islam au défi* (Paris: Gallimard, 1980).

67. Hodgson, *Venture of Islam*, 1: 56 ff.

68. Ali Shariati, "Anthropology: The Creation of Man and the Contradiction of God and Iblis, or Spirit and Clay," in *On the Sociology of Islam: Lectures by Ali Shari'ati*, trans. Hamid Algar (Berkeley, Calif.: Mizan Press, 1979), p. 93.

69. Shariati, "The Philosophy of History: Cain and Abel" in *On the Sociology of Islam*, pp. 97-110.

70. See Thomas Hodgkin, "The Revolutionary Tradition in Islam," and Adonis, *Al-Thabit wal Mutahawwil*, on the conflict between official cultures and countercultures.

71. Said, *Orientalism*, pp. 41 ff.

72. Until recently the situation was no different in the representation of other "Oriental" groups: see Tom Engelhardt, "Ambush at Kamikaze Pass," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, no. 1 (Winter-Spring 1971): 65-84.

73. Eric Hoffer, "Islam and Modernization: Muhammad, Messenger of Plod," *American Spectator* 13, no. 6 (June 1980): 11-12.

74. According to L. J. Davis, "Consorting with Arabs: The Friends Oil Buys," *Harper's Magazine*, July 1980, p. 40.

CHAPTER TWO: THE IRAN STORY

1. Salisbury, *Without Fear or Favor*, p. 158.
2. *Ibid.*, p. 163.
3. *Ibid.*, p. 311.
4. *Ibid.*, pp. 560-61.
5. Kedourie, *Islamic Revolution*.
6. These articles are conveniently found in translation: Rodinson, "Islam Resurgent?" *Gazelle Review* 6, ed. Roger Hardy (London: Ithaca Press, 1979), pp. 1-17.
7. Quoted in Roy Parriz Mottahedeh, "Iran's Foreign Devils," *Foreign Policy* 38 (Spring 1980): 28. See also Egbal Ahmad, "A Century of Subjugation," *Christianity and Crisis* 40, no. 3 (March 3, 1980): 37-44.
8. See Robert Friedman, "The Gallagos Affair," *Media People*, March 1980, pp. 33-34.
9. William A. Dorman and Ehsan Omeed, "Reporting Iran the Shah's Way," *Columbia Journalism Review* 17, no. 5 (January-February 1979): 31.
10. Fazlur Rahman, *Islam* (Chicago: University of Chicago Press, 1979), p. 37.
11. Kermit Roosevelt, *Countercoup: The Struggle for the Control of Iran* (New York: McGraw-Hill Book Co., 1979).
12. Hamid Algar, "The Oppositional Role of the 'Ulama in Twentieth-Century Iran," in Keddie, *Scholars, Saints, and Sufis*, pp. 231-55.
13. See Richard Deacon, *The Israeli Secret Service* (New York: Taplinger Publishing Co., 1978), pp. 176-77.
14. For alternative views of *Le Monde*, see Aimé Guedj and Jacques Girault, "*Le Monde*": *Humanisme, objectivité et politique* (Paris: Éditions Sociales, 1970), and Philippe Simonnot, "*Le Monde*" *et le pouvoir* (Paris: Les Presses d'aujourd'hui, 1977).
15. See Clark's proposal for solving the Iran-American crisis: "The Iranian Solution," *The Nation*, June 21, 1980, pp. 737-40.
16. Almost alone, the Middle East Research and Information Project (MERIP) has attempted to do this: see *MERIP Reports*, no. 88 (June 1980), "Iran's Revolution: The First Year," pp. 3-31, or the study of Afghanistan in no. 89 (July-August 1980), pp. 3-26.

CHAPTER THREE: KNOWLEDGE AND POWER

1. Giambattista Vico, *The New Science*, trans. T. G. Bergin and Max Fisch (Ithaca, N.Y.: Cornell University Press, 1968), p. 96.

2. Quoted in Raymond Schwab, *Le Renaissance orientale* (Paris: Payot, 1950), p. 327.
3. Ernest Renan, "Mahomet et les origines de l'islamisme," in *Études d'histoire religieuse* (Paris: Calmann-Lévy, 1880), p. 220.
4. Bernard Lewis, "The State of Middle East Studies," *American Scholar* 48, 3 (Summer 1979), 366-67; emphasis added. It is interesting to compare Lewis's disingenuous assertions with Bryan S. Turner, *Marx and the End of Orientalism* (London: George Allen & Unwin, 1978).
5. See, for example, Donald F. Lach and Carol Flaumenhaft, eds., *Asia on the Eve of Europe's Expansion* (Englewood Cliffs, N. J.: Prentice-Hall, 1965); Donald F. Lach, *Asia in the Making of Europe*; vol. 1, *The Century of Discovery* (Chicago and London: University of Chicago Press, 1965), and vol. 2, *A Century of Wonder* (1977); J. H. Parry, *Europe and a Wider World* (London: Hutchinson & Co., 1949), and *The Age of Reconnaissance* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1963). Certainly one should also consult K. M. Panikkar, *Asia and Western Dominance* (London: George Allen & Unwin, 1959). For interesting accounts of Asians "discovering" the West in modern times, see Ibrahim Abu-Lughod, *Arab Rediscovery of Europe: A Study in Cultural Encounters* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963), and Masao Miyoshi, *As We Saw Them: The First Japanese Embassy to the United States (1860)* (Berkeley, Los Angeles, and London: University of California Press, 1979).
6. There are numerous examples of this, from the career of William Jones, to the Napoleonic expedition to Egypt, to a whole series of nineteenth-century scholar-traveler-agent types: see Said, *Orientalism*, *passim*. See also the revelations about Snouck Hurgronje, note 6, Introduction.
7. See the penetrating review of the work by Bryan S. Turner, *MERIP Reports* no. 68 (June 1978), pp. 20-22. Following Turner's review, in the same issue of *MERIP Reports*, James Paul estimates the cost of the MESA volume at \$85.50 per page.
8. See Said, *Orientalism*, pp. 288-90.
9. Leonard Binder, "Area Studies: A Critical Assessment," in Binder, ed., *Story of the Middle East*, p. 1.
10. *Ibid.*, p. 20.
11. *Ibid.*, p. 21.
12. *Proposal to the Ford Foundation for Two Seminar-Conferences, Program in Near Eastern Studies*, Princeton University (1974-75), pp. 15-16.
13. *Ibid.*, p. 26.
14. L. Carl Brown and Norman Istkowitz, *Psychological Dimensions of Near Eastern Studies* (Princeton, N.J.: Darwin Press, 1977).
15. Ali Banuazizi, "Iranian 'National Character': A Critique of Some Western Perspectives," in Brown and Istkowitz, eds., *Psychological Dimensions of Near Eastern Studies*, pp. 210-39. For similar work on a directly related

- subject, see the important articles by Benjamin Beit-Hallahmi, "National Character and National Behavior in the Middle East: The Case of the Arab Personality," *International Journal of Group Tensions* 2, no. 3 (1972): 19-28; and Fouad Moghrabi, "The Arab Basic Personality," *International Journal of Middle East Studies* 9 (1978): 99-112; also Moghrabi's "A Political Technology of the Soul," *Arab Studies Quarterly* 3, no. 1 (Winter 1981).
16. See "Special Supplement: Modern China Studies," *Bulletin of Concerned Asia Scholars* 3, nos. 3-4 (Summer-Fall 1971).
17. Dwight Macdonald, "Howtoism," in *Against the American Grain* (New York: Vintage Books, 1962), pp. 360-92.
18. Christopher Lasch, *The New Radicalism in America, 1889-1963: The Intellectual as Social Type* (New York: Vintage Books, 1965), p. 316.
19. For an instance of how ethnic origins are cited as "credentials" by a typical Middle East studies expert, see J. C. Hurewitz, "Another View on Iran and the Press," *Columbia Journalism Review* 19, no. 1 (May-June 1980): 19-21. For a response, see Edward W. Said, "Reply," *Columbia Journalism Review* 19 no. 2 (July-August 1980): 68-69.
20. See my comments on recent books by Rodinson and Hourani in *Arab Studies Quarterly* 2, no. 4 (Fall 1980): 386-93.
21. Irène Ferrera-Hoechstetter, "Les Études sur le moyen-orient aux États-Unis," *Maghreb-Mashrek* 82 (October-November 1978): 34.
22. Richard H. Nolte, *Middle East Centers at U.S. Universities*, June 1979, p. 2 (courtesy of Mr. Don Snook of Esso Middle East, who very kindly sent me a copy of Nolte's report).
23. *Ibid.*, pp. 40, 46, 20.
24. *Ibid.*, pp. 43, 24.
25. Michel Foucault, *The History of Sexuality, Volume One: An Introduction*, trans. Robert Hurley (New York: Pantheon Books, 1978), p. 34.
26. The phrase is partly Harold Bloom's, although of course he uses it in a very different context and calls it "antithetical criticism": see his book *The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry* (New York: Oxford University Press, 1973), pp. 93-96.
27. The work of Peter Gran, Judith Tucker, Basem Musallem, Eric Davis, and Stuart Schaar, among others, is representative of this group.
28. See notes 14, 15, and 62, Chapter One.
29. I have discussed the notion of affiliation in "Reflections on Recent American 'Left' Literary Criticism," *Boundary 2* 8, no. 1 (Fall 1979): 26-29.
30. Hans-Georg Gadamer, *Truth and Method* (New York: Seabury Press, 1975), p. 238.
31. See Ali Jandaghi's comments on Marvin Zonis's study of the Iranian elite, in "The Present Situation in Iran," *Monthly Review*, November 1973, pp. 34-47.
32. As instances, there is J. B. Kelly, *Arabia, the Gulf and the West*,

who bewails the departure of the British east of Suez; there is Elie Kedourie, who attacks de Gaulle for having “given up” Algeria—see his review of Alistair Horne, *A Savage War of Peace: Algeria, 1954–1962* in the *Times Literary Supplement*, April 21, 1978, pp. 447–50; and there is Robert W. Tucker and a whole string of followers who have been advocating an American invasion of the Gulf for at least five years (see notes 34 and 38, Chapter One). Behind much of this is the work of Edward N. Luttwak: see the model presented in his book *The Grand Strategy of the Roman Empire: From the First Century A.D. to the Third* (Baltimore and London: Johns Hopkins University Press, 1976).

■ محتوئ الكتاب ■

الصفحة	تصديق
٥	مقدمة المؤلف
٢٥	الفصل الأول : تصوير الإسلام فى الأخبار
٦٧	أولاً : الإسلام والغرب
٦٨	ثانياً : جماعات التفسير
١١٨	ثالثاً : حادثة الأميرة فى سياقهم
١٧٣	الفصل الثانى : قصة إيران
١٨٧	أولاً : الحرب المقدسة
١٨٨	ثانياً : فقدان إيران
٢١٢	

الصفحة

٢٣٦ ثالثاً : الافتراضات الخفية التي لم تُفحص
٢٥٦ رابعاً : بلد آخر
٢٧٣ الفصل الثالث : المعرفة والسلطة
٢٧٤ أولاً : المبادئ السياسية لتفسير الإسلام
٢٧٤ المعرفة الصحيحة والمعرفة المضادة
٣١٩ ثانياً : المعرفة والتفسير
٣٣٧ قائمة المراجع الأجنبية
٣٥١ محتوى الكتاب